الرؤوس



بقلم مارون عبود

للمؤلف

زوبعة الدهور

وجوه وحكايات

في الاعداد

فارس آغا

مارون عبود

الرؤوس

منشورات دار المكشوف

الى ابي اللبنانيين وزعيمهم المجاهد

الشيخ بشاره خليل الخوري

رئيس الجمهورية اللبنانية

تقديراً واحتراماً لنضاله على جبهتي الثقافة والسياسة

مارون عبود

الأوائل

حب وشرب وحرب

حدّد لنا طرفة ، قاصداً او غير قاصد ، غاية الحياة العربية البدوية بقوله :

ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى، وجدّك لم احفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما تُعلَ بالماء تزبد
وكرّي ، اذا نادى المضاف محنباً ، كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنة تحت الخباء المعمد

هذه صورة « السيد » الجاهلي . فهو يرى ان الحياة تنتهي عند باب القبر ، وان الموت نهاية كل حي :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني ابادرها بما ملكت يدي

يريد العربي ان يأكل خيراته في حياته ، ولا عاش كل بخيل .

واذا فتشنا عن الملامح الاخرى وجدنا اكثرها عند هذا الشاب . أما ما ينقصنا من خطوط فهو عند السيد زهير ، في « من ومن ومن » التي اطراها عمر بن الخطاب ، الامام العادل والخبير بكلام العرب . . .

اذا قلنا الشعر الجاهلي فكأننا قلنا الشعر العربي كله ، من امرىء القيس حتى شوقي ، لان علم امرىء القيس ، حامل لواء الشعر في النار ، ظل خفاقاً في سماء ادبنا العربي بضعة عشر قرناً ، ولم ينزل ، عند بعضهم ، الا منذ اعوام . لم يتبع رجل في آداب الدنيا كلها كما اتبع هذا الشاعر . يصعب علينا جداً ان نحلل الدم العربي بل ان نجد دماً عربياً خالصاً

لم يلقح بدماء اخرى . قد يستنكف بعضنا من هذا الزعم ، ولو فكر لقبله بغبطة ، لان العنصر المستعرب في امتنا هو ذو الشأن الاسمى ، وحسبنا ان نعلم — لنقنع ، ولا يتجهم وجه انانيتنا الحقيقة الساطعة — ان النبي — صلعم — هو من العرب المستعربة لا العاربة . والعنصر الذي استعرب بعد الاسلام ، ايضاً ، كان له ابعد اثر في تطور الادب العربي وتجديد دمه ، في النثر والشعر ، خيالاً وتعبيرا ، تفكيراً واغراضاً . فلولا « المستعرب » لم يدخل هواء جديد الى قلعتنا التي حصّناها بسد نوافذها في وجه كل غريب . ان هذا « المستعرب » قد اعطى واخذ . تأثر الى حد بعيد بالسلف وخضع لعقلية العربي وخطته الشعرية كما خضع لسلطانه الديني والمدني فقال الشعر عربياً في تفكيره وتعبيره واغراضه . هذا بشار زعيم المجددين يفتخر في بائيته كأنه عربي قح ، ولولا دلالة تعبيره عليه لعزوت قصيدته الى شاعر جاهلي او اموي .

ان طبيعة المكان القاسية كيّفت هذا الانسان الذي نسميه عربياً . فانفراده في تلك الصحراء ، الحمراء السمراء ، جعل لونه نحاسياً وعزيمته فولاذية ودفاعه غريباً عجيباً . ان ذلك المناخ العنيد جعل الرأس العربي رأسا فريداً ، اذ افنى الضعيف منه ولم يبق من هذا الرأس الاسمر الا الصالح للحياة . اما نحن احفادهم فقد صرنا كما يقول الشاعر :

خطرات النسيم تجرح خديه ولمس الحرير يدمي بنانه

اذا قعدنا في مسرح هواء ناعم سعلنا طول الليل ، واذا عرقنا اصبنا بزكام دائم قد يحملنا الى مصح ضهر الباشق .

ان انفراد العربي في صحرائه جعل منه هذا الرجل الذي نعرفه ، فالشجاعة العربية هي من هبات المحيط وعطاياه السنية . فالذي يعيش في بيت من الوبر فلا بد من ان يكون شجاعاً ، حاضر البديهة والجنان

واليد ، ليقابل عدويه : الانسان والحيوان . والاباء العربي يدعو اليه اسلوب العيش ، فمن لا يستقر في مكان ما يأبى كل ما يذله ويستعبده . فالعربي البدوي سائح دائم ، وعن هذا ايضاً نتجت قلة صبره ، وضعف تعمقه في التفكير ، وارتجاله في كل شيء ، فالمبادرة سمة عربية . ان المجد مبتدر ، كما يقول جرير . ان الاقامة الدائمة في مكان ما تحمل الانسان على اطالة التفكير بما حوله ، اما المسافر الدائم ، سليل الشيخ يعرب ، فلا ينظر الا الى مظاهر الاشياء ، ولهذا لا يتعمق العربي في موضوعه . لقد شبهته بالنحلة تأخذ حاجتها من الزهرة وتظل الزهرة زهرة ، لا ينقص شيء من عرفها وجمالها وطراوتها . بينا المفكر « الآري » يضعها في الانبيق ، ولا يبقي الا خلاصتها ، اما عناصر جمالها فيأكلها اكلا .

ومن خواص العربي الايجاز ، وهذا مقتبس من شكل الحياة ، فبيته وجيز ، ولباسه وجيز ، وطعامه وجيز . لا تلمه ان تغزل بعباءته :

ولبس عباءة وتقرّ عيني احب الي من لبس الشفوف

فهي كل شيء . تصلح لكل ما له من مآرب . فهي الجبة والرداء ، والقميص واللحاف ، والبرنس ، والمشمع ، والطراحة . وهي خيمته تقيه الهجير ، متى اركز عصاه في الرمل ونشرها عليها وقعد يتفيأ ليستريح او ينام . اعذره ، ولا تمل ، متى قرأت وصفه الناقة ، فهي مستودع البقاء ، هي سيارته الخاصة ، وهي سيارة الشحن ، وهي مطبخه واهراؤه . هي مصدر جميع المواد اللازمة له ، ومن وبرها يكتسي ، ولله درها ، فكل ما فيها نافع ، حتى زبلها ، فانه كالفحم الحجري .

اما الكرم فاسلوب الحياة دعا اليه . العربي يسوق ثروته امامه وهي معرضة للهلاك ، ولهذا لا يدّخرها . انه وهّاب نهّاب ، اشتراكي متطرف ، يغزو اذا جاع او احتاج ، ويكف يده عن جيرانه ما دام بخير . اما الغزو

فهو سنة اوجدتها الحال ، فالكفاح لحفظ البقاء تبرره جميع النظم دينية ومدنية . كان الغزو عندهم كحرب اليوم المقيدة بنظم تجب مراعاتها والا كانت الحرب ظالمة وغير مشروعة ، وكذلك الغزو ، وقد ضل من عد الغزو سرقة او كالسرقة .

والعربي متقلب في آرائه ، وقد اكسبه محيطه هذه الخاصة . هو غير عنيد ، غفور رحيم كربه ، لا يصر ولا يثبت ، ككل من يحب الفصاحة واللسن ، الا اذا كان له ثأر فانه لا يهنأ له عيش حتى يأخذه .

والعربي يغويه الطريف ، ويعجبه الذكي الظريف . واننا لنظلم الجاهلي اذا خلطناه بالبرابرة والمتوحشين ، فهو ابن مدنية ، ووارث حضارة . شهم ابي ذو شمم ، توحي اليك طلعته كل هذا اذا تأملت . يثرثر العربي حيناً ، ويتكلم صامتا احيانا . ذكي نجيب لبيب تكفيه الاشارة ليفهم ، حاضر الذهن ، حذر ، لأنه يواجه الاخطار في كل لحظة من حياته .

اختباراته محدودة ، وتحديده لجميع الشؤون يكاد يكون عاماً ، لأنه سطحي في كل اعماله . يحب الامتزاج بالناس الى حد ما ، ثم يعود الى عزلته . يعشق العدالة والحرية والمساواة وينتصر لجاره ، والجار عندنا قبل الدار لأنه عوننا في الملمات ، ولهذا نقول : جارك القريب خير من اخيك البعيد .

ان الغزلة العربية خلقت في الرجل العربي كل هذه الخصائص التي يترجم عنها شعره وادبه .

العربي تياه فخور ، وهذا ما يحمله على التبرج والتطوس والتطيب والتجمل ، فهو رجل مظاهر ، يباهي بكل شيء ويغالي جداً بالتبجح باصله وفصله . من هنا جاء العرب التقعر في حوادث تاريخهم وسردهـا على علاتها دون تمحيص . ومن هنا جاءنا التشبث بعروبتنا حتى انكرناها على فريق من البشر فسميناهم « شعوبية » وان حذقوا العربية وجاؤوا

باروع مما انتجه العربي المحض . وحب العربي القديم واعجابه به سد الطريق على الادباء اكثر من سبعة عشر قرناً ، فحنط شعرنا ونثرنا . وانكماش العرب في جزيرتهم جرّهم الى حب ذاتهم ، حباً لا هوادة فيه ، فرأوا انفسهم فوق العالمين اجمعين ، وحسبوا دمهم اسمى من دم الآخرين . ومن هذه الناحية جاءهم التشدد بالمصاهرة . ثم جرّهم تصنيف انفسهم وتأصيلها الى تصنيف خيلهم وتأصيلها .

وكذلك فعلوا ، بعد الفتح ، حين خالطوا الشعوب الاخرى فقسموا نساءهم اربع طبقات : امة وجارية وام ولد وسيدة . فالامة للرعي والحلب ، والجارية لخدمة الدار ، واذا شرّفها سيدها بتزوجها وعلقت منه سميت ام ولد ، اما السيدة فلا تكون الا عربية ، وتقضي هذه في قعر البيت ، وراء الستار ، لتظهر على المسرح تلك المسماة « جارية » ، ومن هنا جاء قولنا : ابن الست وابن الجارية .

وهذا التشبث بالعروبة كان ويلاً على الدولة واللغة ففرّق العناصر التي وحّدها الدين واللسان . فالاجنبي — كما قلت غير مرة — اذا اقام خمس سنوات فقط في الولايات المتحدة حق له ان يصير اميركياً ، بينما المستعرب — عند بعضنا — لا يصير عربياً حتى يوم القيامة .

والعربي مزواج مطلاق ، ولذلك اسباب : اولاً لأنه يحب النسل ، وشعاره : انما العزة للكاثر . فهو مجنون بحب العزة . ثانياً لأنه شهواني ، وهذه الشهوة توقظها طبيعة المحيط الحار . يكثر العربي من الزوجات لأنه مطبوع على التنقل ، حتى في الحب ، ناهيك ان المرأة البدوية هي عضد زوجها وعونه ، فهو لا يخدمها ، كما هي الحالة اليوم .

وتحجب المرأة جاء من الغيرة عليها ، فالحجاب العربي مخالف لما اختطه بنو اسرائيل ، قبل العرب . فالتوراة تخبرنا ان تامار تغطت ببرقع ،

وجلست في مدخل عينايم التي على طريق تمنة ، فحسبها حموها يهوذا زانية ، لانها كانت قد غطت وجهها ، فمال اليها على الطريق ، فاعطاها رهناً خاتمه وعصابته ، وعصاه التي في يده (تك ٣٨) .

ومن التقاليد العربية والحجاب ، جاءنا هذا السيل العرم من الغزل . فنحن — وقد يكون غيرنا مثلنا — نفكر دائماً بالمرأة ، والاكثار منها ، ونراها متعة . قد يكون الامر كذلك عند كل امة ، ولكن المرأة لم تحتل عند جميع شعرائهم القسم الاوفر من الادب ، حتى كاد يكون الغزل لأدبنا كالملح للطعام — من حيث الوجوب والضرورة لا من حيث القلة والكثرة .

وافراط العربي في المحبة الجنسية حمله على المغالاة في صون المرأة والغيرة منها وعليها ، وهو الذي حمله ايضاً على وأد البنات . ومن اسباب وأد البنات ان كثرة الزوجات تؤدي الى كثرة النسل ، فشاء العربي ان يظل خفيف الظهر فلم يبق من بناته الا اللازم « للتوريد » .

قال ابن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان   نحاذر ان تقسم او تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم   بعولتنا اذا لم تمنعونا

ان للمرأة في الشعر كله ادواراً خطيرة ، وأخطر هذه الادوار في الادب العربي ، وفي الحياة العربية البدوية . وهذه هند وغيرها ماذا فعلن عندما قاتل المشركون النبي محمداً ؟ وهذه ليلى وغيرها كم لهن من يد على تفتيق القرائح وخلق الشعر الطيب !

ومن خصال البدوي الحماسة ، فهو متحمس حتى التهور ، ولذلك قلّت الاحلام في شعره فجاء قليل الايحاء ، فاخفق في الفنون المستوحاة ، وبرع ، فيما بعد ، في الفنون اليدوية كالعمارة .

اظهر نبوغاً في الدروس العملية والذهنية ، يحلم بالحسيات لا بالمعنويات ، يؤثر الحياة الجسدية على الروحية . فالروح امرها لخالقها . يكره التصوف والزهد . يقبل على الدنيا اقباله على الصلاة ، ويتمتع ويعمل لدنياه كأنه يعيش ابداً ، كما يعمل لآخرته كأنه يموت غداً . يسّر دينه ولم يعسر فاخذ من دنياه ما استطاع وترجّى الآخرة رجاء قوياً .

° البدوي لم يتقن عمله ولم يتوخّ الغايات البعيدة ، فهو سطحي في هذا ، كما هو سطحي في شعره . وكذلك هو سطحي في اعماله الاولى ، وكل ذلك ناتج عن نشأته الاولى ، عن وحدته وانفراده . فكما لا تتقصى اغنامه مراعيها فتقضم وتخضم ، تأخذ المتيسر ولا تطالب بالمتعسر ، كذلك صاحبها في اعماله حتى بعد حضارته . ولو فكر الخلفاء في الغد البعيد لما زال ظل الامبراطورية العربية بسرعة . وهذه السطحية في حياتنا هي التي كانت اقوى اسباب جمود شعرنا ووقوفه في عرض الطريق . ان العربي كراكب البحر ، يستعرض ما يمر به من مناظر فتانة خلابة اكثر مما يعنيه ما في البحر من اسرار .

يتخيل العربي ، انما بوجه عام ، فيحكم على الامور حكماً قاطعاً دون برهان ، يعتمد على ذكائه فلا يبالي باكتساب ما عند غيره ، وهذا شأن كل معتدّ بنفسه كالعربي ، فهو في العموم اقدر منه على الخصوص .

احلامنا تزن الجبال رزانة وتخالنا جناً اذا ما نجهل

لم يصدق الفرزدق ، فالعربي يثور لأقل سبب ، ولا يهدأ ان لم يشف نفسه ويثأر .

العربي مغامر اذا دفع ، والبيان يهيجه اكثر من الموسيقى ، فهو يفكر بقلبه لا بعقله . يفي اذا صادق ، ان لذت به امنت ، فاما ان يصونك واما ان يموت دونك . ان هذا ميراث دهور اصبح دين العرب

الامثال وعقيدتهم الغالية . فالعربي لا ينام على ضيم ، يقابل السيف بالسيف ، ويأخذ بثأره بعد اربعين عاماً . . . يصبو الى الآداب اكثر من العلم . يعيش بقلبه لا بعقله ، وهو مع ذلك يحب العدل ، واباؤه وعزته يبغضان الرحمة اليه . يرضى البدوي بالحالة الراهنة اذا كان في سعة ، ولم تمسّ حريته . ولا يضج منها ويطلب غيرها الا في الضيق . يحب حرية القول ولكنه لا يكافح دونها مكافحته ضد قيود حريته . يؤثر العافية الا اذا اهين ونيل مما يقدسه .

يتحد اذا واجه خطراً اجنبياً . واذا امن عاد الى التنازع الداخلي . لا يذعن الا للتقاليد ، ولا يغيّرها الا مرغماً ، كما انه لا يطيع الا مكرهاً . وهذا عائد الى اسلوب حياته الاصلية الذي عوده ذلك . ينشد الاستقلال ابداً ، يؤثر بيتاً تخفق الارياح فيه على قصر منيف يحبس فيه حواسه الخمس ضمن جدران اربعة ولو رفعت من ذهب .

لا يقلد ، ولا ينزل عن قيافته . يريد ان يكون متبوعاً لا تابعاً ، وسيداً لا مسوداً . يحب الخشونة : واخشوشنوا فان النعم لا تدوم . ويفضل اللذات على الثروة . يجمع لينفق ويحسن ، لا ليمنع ويثري . قليل التفكير بالعواقب ، يؤمن ويصدق ، ولكنه لا يدع معتقداته ولو تبين له فسادها . قلما يأخذ بالنظريات « الفلسفية » ، فحسه متسلط على فكره .

كل شيء وجيز ومتعب وصعب في المحيط العربي . فما الصحراء الا بحر يابس جاف ، ولو كنت مكان عمر حين سأله احدهم صف لي البحر ، لقلت له : صف لي الصحراء ، فالصحراء جافة كهوائها ، وكونها على نمط واحد جعل كل شيء عند العربي ، حتى شعره ، على نمط واحد . فهي التي صيرت البدوي فظاً ، غليظ القلب .

ان محيطاً كله جفاف ويبوسة يجعل كل شيء ينشأ فيه يابساً

فظواهر الجزيرة الجوية قاسية ، والوان مناظرها وطبـــاع سكانهـــا وبنيتهم جاءت من نوعها . ندر المطر عندهم واشتدت الحرارة فقـــالوا : برّد الله ضريحه . واذا انهل المطر سقط بغزارة فأفسد ، ولهذا قال الشاعر :

وسقى ديارك غير مفسدهـــا صوب الغـــمام وديمة تهمي

وفي الحديث : اللهم حوالينا لا علينا . ووصف طوفان امرىء القيس دليل قاطع ، فانظر كيف ابتدئت نزهته وكيف اختتمت .

ان حالة كهذه تضيق الصدر ، ومع ذلك لم تبلغ بالعربي حد التطرف ، فقد رأينا حلماً ، ولكن الحلم ليس اولى خصال العرب ، وان ادّعوه ، فمن لا يظلِم الناس ُيظلم .

ان قلة الماء تجفف حتى اخلاق الرجال . ومتى جفت الطباع وقست ، تبعها الشعر . فاذا رأيتهم يقتتلون على ماء ويستعيرون الحوض في كلامهم للتعبير عن مقاصدهم ، فاعذرهم . كل ماهم ناطق ، والنـــاطق يقتضي له الماء ، ولولا مناخ الصحراء القاسي لما صبرت الناقة على الشرب ، وضربوا اخماساً لأسداس .

لا يؤمن العربي الا بذاته ، وهـذه الذات فنيت في القبيلة . فـالقبيلة — قبل الاسلام — كانت الذاتية العربية ، فـكان العربي لا ينظر الا اليها ، وهي التي جعلت شعرنا كله ذاتيـــاً . فالقبيلة كانـت الاله المعبود ، ثم صارت بعد الاسلام قبيلة اعظم واعز . فالبدوي لا يبـالي كثيراً او قليلاً بما وراء الكون ، وقد حسب الدين عرضاً يزول بزوال النبي ، وفي هذا قال الحطيئة :

اطعنا رسول الله اذ كان بيننا فيا ويلتي مـا بال دين ابي بكر
ايورثها بكراً اذا مات بعده وتلك ، لعمر الله ، قاصمة الظهر

لذلك قلّ ذكر الله في الشعر الجاهلي . واقل من ذلك ذكر الثواب

والمقابب ، فهو في نظر البدوي حديث خرافة يسمعه ويتبسم ابتسامة مرة .

حكى لي احدهم ان احد ائمة الدين البيروتيين ، او الدمشقيين ، ذهب الى قبائل شرق الاردن واعظاً فقعد يحدث بني صخر ذات ليلة عن الدينونة ، وكيف يكون الحساب عسيرا جداً فيعاقب الانسان على ما جنت يداه . واطال الشيخ الامام الحديث ، فانبرى له اخيراً احد مشايخ بني صخر فقال له : يا شيخ ، في هذه « الغوشة » سيدنا موسى ما يكون ؟

فاجابه الشيخ : بلى يكون .

— وسيدنا عيسى ؟

— وكيف لا يكون ؟

— والنبي ، صلى الله عليه وسلم ؟

— قبلهم كلهم .

فضحك البدوي ضحكة ازدراء وصاح بالشيخ : قم عنّا ، رعبتنا يا شيخ ، هؤلاء ثلاثة اجاويد ، بوجودهم لا يصير شيء .

واعجاب العربي بنفسه جعله لا يؤثر ادباً على ادبه ، وفي هذا تاه ايضاً الجاحظ العظيم حين قال : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب .

ويتخطى من هذا الى ان يرى في لغته كل شيء ، فسدّ منافذها وصانها ، واللغة كالكائنات تأخذ وتعطي لتحيا . ولهذا الاعتداد بالذات اصيبت لغتنا بما اصيبت من جمود ، مع انها ارحب اللغات صدراً ، وألينهن قدّاً ، تتثنى كأن عظامها من خيزران . انها اوفر اللغات موسيقى لو احسنّا استعمالها ولكننا غرتنا ذاتيتنا وحسبنا الفن الشعري كله في العروض والقافية . مع ان لغتنا ليّنة مطواع كالذهب ، تطرق وترقق وتمدد كما تشاء ، فمهما خشن الحرف فانه يسترخي متى جاوره حرف لين .

انا نرى ذاتنا في كل شيء لأن انفراد العربي جعله لا يعرف غير ذاته ولم يختبر غيرها ، فاخذ يتلهى بها في ادبه . قال الاولون الجاهليون شعراً اعجبنا لأنه صوّر لنا حياتهم تصويراً صادقاً ، ولكننـــا حين نقرأ الذين جاؤوا بعدهم لا نرى شيئاً فنستحي من طلابنا اذ لا نرى مزيداً او شيئاً نقوله لهم . لقد تلهى جميع شعرائنا بذواتهم — وعلى نمط واحد — فجاء شعرهم متشابهاً . اذا قرأت شعر احد الجاهليين فكأنك قرأت الجـــاهلي والاموي والعباسي كله — ما خلا نفراً من الشعراء احدثوا شيئاً جديداً ، وهؤلاء هم « الرؤوس » الذين سندرسهم .

ان اعتداد الجاهلي بنفسه واعتزاله غيره من الناس حال دون تطور الشعر . جاء خياله سطحياً حسياً لأن مروره في صحرائه سطحي ايضاً ، يتبع مواشيه الى المراعي ، ينتقل ويلتفت فيرى كل شيء في محيطه متشابهاً ، ومن اين يأتيه الوحي ؟ وشعره ذاتي غنائي كله لأنه لا يدرك غير الساعة التي هو فيها :

مـــا مضى فات والمؤمّل غيب ولك الساعة التي انت فيهـــا
اذا هبّت رياحك فاغتنمهـــا فان الخافقات لهـا سكون
وان ولدت نياقك فاحتلبها فـلا تدري الفصيل لمن يكون

ولهذا لا يعرف الاقتصاد والادخار . هو كالحجل لا يبـــارح محيطه ، ومن كان هذا شأنه فمن اين يأتيه الجديد ؟ ولكن هذا لا يعني ان نصمهم بالجهل ونعدّهم من البربر . ان العربي خلاصة انسانية . صهرته شمس الصحراء فلم تبق منه الا عروق الرجولة الحق وخطوطها .

والشاعر الجاهلي صورة صادقة لمحيطه وعصره ولون بلاده . اوحى اليه الحل والترحال شعراً غرامياً وتحرقاً وتشوقاً ، فبكى على الطلول . اما نحن اليوم فنرى الشعر العربي الصادق يموت . والا فاي فرق بين حاوله

المعطافين ورحيلهم وبين حالة البدو في جاهليتهم ؟ وما معنى تغزلنا بالزهرة وعشتروت ؟

ولكن العذر واضح ، فالشعر العاطفي لا يخرجه الا الكبت والضغط ، واين هذا في زماننا ؟ فلا تكاد تطل المعطافة من شباكها صباحاً حتى يتواعدا ويلتقيا اما في قهوة او في دار سينما ، او او . . . ان الحب الصحيح قد مات .

يقول بعضهم : لا وحدة في القصيدة العربية او الجاهلية خصوصاً ، والحقيقة غير ذلك . فما وصف العربي – خذ مثلاً امرأ القيس ، ان صح ما زعم لنا من حكاية دارة جلجل – غير حوادث نهاره ، فهي موضوعه المستقل .

لست ممن يشكّون بوجود امرىء القيس ولا غيره ، فاذا لم يصف لنا قصور القسطنطينية فلأنه مات ولم يصلنا شعره ، واغلب الظن لأنه كان مشغول البال بالملك الذي ضاع فليعذره منكر وجوده . . . ناهيك ان زي وصف القصور لم يكن في تلك الايام .

اما الشك في صحة بعض الشعر الجاهلي فقديم قبل مرغليوث والذي انسحب على ذيله . . . فهذا الجاحظ يحدثنا عن ذلك في كتاب الحيوان . وهناك غيره كثيرون ممن شكّوا بنسبة شعر الى شاعر وهو ليس له . اما من زعموا ان سهولة الشعر تدل على عدم جاهليته فنقول لهم :

اذن ليست قصيدة : هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ، من عمل الفرزدق ، لأنها ليّنة هيّنة . الخلاصة ان هذا البحث لا يعنيني ، وهو لا يستحق من الاهتمام اكثر مما قلت ، وهذه كلمة افلتت من شق القلم بالرغم مني ، فلنلمّ المامة قصيرة بزعماء الشعر الجاهلي .

الشعر الجاهلي

نظلم العربي الجاهلي اذا عددناه انساناً اولياً همجياً ، فالشعب الذي لا نستطيع ان ندخل على لغته الفاظاً ، وتراكيب واصولاً وبياناً ، لا ينبغي ان يُعدّ كما عدّ اسلافنا الجاهليين تعصباً وزوراً . فهذه اللغة الكاملة ليونة ومرونة وتبسّطاً ، اللغة التي انزل فيها كتاب كريم كالقرآن ، كتاب عظيم فيه البلاغة العظمى وفيه التشريع والتوحيد ، وفيه علاقات الانسان بخالقه ، وعلاقات الانسان بأخيه ، واللغة التي وسعت – كما وصلتنا – ثقافة الفرس وعلوم اليونان وحكمة الهند ولم تضق صدراً بكل ما عرض عليها من اعباء ثقافية وعلمية وفلسفية وكلامية ، لا تصدر عن رجل اولي .

لقد حان ان نحل الجاهلي محله السامي ما زلنا نتبع آثاره ولا نحيد عن اساليبه قيد شعرة . فالعربي الجاهلي عرف الحضارات التي تقدمته وهضمها عقله فاخرجها في شعره ، يوم كان الشعر لسان حال الشعوب ، واصدق دليل على مقدار رقيّهم . واذا نظرنا الى الشاعر الجاهلي نظرة نزيهة رأينا انه قد عبّر اكثر منا عن نفسه ، وصوّر لنا حياته كما هي ، بلا تدجيل ولا مواربة . كان الجاهلي يتكل على باعه وذراعه ، ولا يلقي همه على ربه كما نفعل نحن اليوم : الله يدبر ، على الله ، ان شاء الله ، بلا تقدير على الله . هذا حديثنا نحن عرب اليوم ، اما الله الجاهلي فبمعزل

عن كل هذا ، على العربي ان يدافع وان يسهر وان يسعى ، وما يجيء من فوق فلا مردّ له .

هذا امرؤ القيس يصف لنا في قصيدته خوالج نفسه ويعبّر لنا عن مشاكله بصور كلها محسوسة ، لأنه ابن بيئة لا يعنيها اي شأن من الشؤون التي لا تحسها . انه يتخيل ويحسن التعبير عن خياله ، واذا لم يسمُ خياله الى ذروة الشعراء العظام فلأنه في محيط لا يوحي اكثر مما اوحى الى صاحبه ، ولأن مدنيته لم تكن تلهمه اكثر مما الهمته ، فاستمد صوره مما عاين وشاهد . لم يكن في عصر الطائرات والسيارات فوصف حصانه وشبهه بما يرى حوله من اوابد :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ورأى صدر حبيبته يبصّ ويلمع فقال :

مهفهفة بيضاء غير مفاضة   ترائبها مصقولة كالسجنجل

ونظر الى شعرها ولم تكن ثم « موضة » قص الشعر فاعجبه منه ذاك الطول فقال فيه :

وفرع يزين المتن اسود فاحم   أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات الى العلى   تضلّ العقاص في مثّنى ومرسل

اما نظرتها فكظبية من ظباء وجرة ، وجيدها كجيد الريم ، وخصرها نحيل لدّين ، وساقها كأنبوب النخل ، واصابعها كالأساريع — ديدان اظنها ما نسميه نحن — بو مغيط — هذا تشبيه لا يشرّف ذوق الشاعر الملك واخيراً يراها :

تضيء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممسى راهب متبتل

وفي اعتصام المرأة بدموعها ، حين تدعو الحاجة ، يقول ويجيد كل الاجادة :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي   بسهميك في اعشار قلب مقتّل

اذا لم نفهم كل مـــا قصد امير الشعراء ، وسيد المجددين في الأدب العربي ، والامام المتبوع سبعة عشر قرناً واكثر ، فاننـا نمرّ به مـاطين الشفتين . اما اذا عرفنا انه يستغل « الميسر » الجاهلي في شعره فندرك اجادته العظيمة في هذا البيت : فالسهمان هما عيناها ، وقلب امرىء القيس هو الجزور ، والجزور يقسم عندهم عشرة اقسام قد يفوز بها كلها سهمان اسمهما المعلّى والرقيب . ان هذين السهمين هما عينا عنيزة او فاطمة ، فهي قد غنمت حبيبها كله ولم تترك لأخرى شيئاً منه . فهنيئاً لها ما اكبر حظها !

واذا وصف الليل شبّهه بجمل ضخم يبرك فيملأ الساحة . والليل جمل واي جمل ، فانه يغطي الجزيرة بل الشرق كله . . .

واي الهام او وحي يأتي الجاهلي ، ليشبّه ذلك النجم الذي يراه العاشق المنتظر كأنه لا يحول ولا يزول ، بأحسن من قول امرىء القيس :

فيـا لك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدّت بيذبل

ان رائحة الجاهلية تفوح من كل كلمة في عجز هذا البيت ، ويخطىء من يروي غير هذه الرواية لانه يبعده عن محيطه وزمانه ، ويفقده قوته وروعته ، وقد اشرت الى هذا اذ تكلمت عن كتـاب « الادب العربي في آثار اعلامه » .

ان معلقة الشاعر العظيم ، وان لم نجد فيها منفعة تربوية لابنائنـــا ، لهي تدل على خيال ذي شأن حازه هذا الشاعر ، فولّد ما استطاع توليده في ذلك الزمان . اذا قرأت وصف حصانه ، عرفت انك امام مصور ماهر ، واذا انتقلت الى وصفه الطوفان وجدت فيه تصديقـاً لزعمي ، وخصوصـاً اذا امعنت النظر في ما بعد هذا الطوفان فقرأت :

كأن ذرى رأس المجيمر غـدوة   من السيل والغثّـاء فلكة مغزل

كأن مكاكيّ الجواء غديّـــة   صبحن سلافـاً من رحيق مفلفل

كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصوى انابيش عنصل

صور نواها تافهة ، اذا نسينا ان الانسان لا يستطيع ان يتخيل الا كما يرى ، فامرؤ القيس لم يزّعم عبثاً ، ولكننا نحن لا يؤثّر بنا هذا القول كما يؤثّر بابن البادية لأننا نجهل الاحوال التي لابسها الشاعر . فقصيدته هي صور طبق الاصل عن محيطه وحياته ، وهو الذي شق طريق القصص الشعري ، وما عمر ابن ابي ربيعة الا متّبع خطاه ، وان حاول بعض الباحثين انكاره . ومن قرأ هذه اللامية واللامية الثانية رأى ان الزعيم العظيم لم يدع شيئاً من طرق الشعر الغرامي ، فهو وعمر فرسا رهان في حلبة الفسق والفجور وقلة الحياء .

ان امرأ القيس لا يتخلى عن خياله القوي حتى في سرد حوادث حبه الواقعية ، فانظر قوله :

سموت اليها بعدما نام اهلها سموّ حباب الماء حالاً على حال

لا استطيع الوقوف معك عند امرىء القيس اكثر مما وقفت ، فتقصّ انت خباياه على ضوء الخيال الفني ، والصور الكثيرة ، ولا تحلم بأن تأخذ عنه شيئاً فتلك البضاعة لا تنفق في سوقنا اليوم . ان جميع الشعراء بعده قد تحاموه ولم يغزوه كعادة الشعراء لأنه اوجد صوره كاملة لا يستطاع فيها اكثر مما استطاع . ولا تظنن انني سأحدثك عن الشعراء بعده ، الا بمقدار ما يختلف بعضهم عن بعض . فطرفة يتبع ، كجميع الشعراء ، خطى امرىء القيس فيصور الطلل صورة اروع اذ يقول : يلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد . وفي بيت واحد يصف خولة فيقول قولاً رائعاً :

ووجه كأن الشمس القت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد

ثم ينتقل الى ناقته ، فيصفها اجمالا وتفصيلاً ، ولولا الحياء لم يدع

شيئاً منها الا وصفه . ثم ينتقل الى وصف نفسه فيمعن في تحليل « ذاته الكريمة » ووصفها ، ويتعرض لما وراء القبر فيعبّر عن الفكرة الجاهلية فيما امام القبر وفيما وراءه اصدق تعبير . ولا ينسى المشاكل الاهلية ويعلن انه مظلوم ، ويخشى ان يموت غير مبكي كما يستحق ان يبكى ، فيوصي ابنة اخيه — معبد — بذلك ، ويعلمها ما يجب عليها ان تعمل .

ان هذه القصيدة تصور اكثر احوال العربي الجاهلي ومشاكله الاجتماعية حتى الدينية ، واذا صوّر طرفة « الجهّال » فالعم زهير يصور « الكمال » ، وهل تطلب من ربيب مقعد ان يقول كطرفة :

وآليت لا ينفكّ كشحي بطانة   لعضب رقيق الشفرتين مهنـدِ
اخي ثقة لا ينثني عن ضريبة   اذا قيل مهلًا قال حاجزه قدِ

ولكنه يمد يده ، وهو زعيم الشعر المحكك ، الى صورة طرفة فيعطيها شيئاً من الوانه وموسيقاه و« عسله المصّفى » فيقول :

ودار لها بالرقمتين كأنهـا   مراجيع وشم في نواشر معصم

و « يشخّص » تلك الدار التي عرفها بعد عشرين عاماً فيسلم عليها سلام الاحباب بعد الغياب . . . ثم يصف لنا وصفاً دقيقاً ظعائن الحبيبة فتخال شريطاً سينمائياً ينشر امامك . وينتقل انتقالاً بشعاً ليمدح صاحبيه المشهورين ، ولكن زهيراً وان كان اول المدّاحين ، فهو لا يمدح الرجل الا بما عمل فيصف ما له من مبرّات . ثم يحث على السلم ويقبّح الحرب ، ويهدد الاعراب باليوم الآخر والحساب العسير ، وهذا شيء لا يقيم له الأعراب اقل وزن كما أنبأنا الكتاب الكريم .

ان زهيراً مولع بالتجسيد ، ووهب الحياة لما لا حياة فيه ، فيقربه زعمه الى الناس ، ولا عيب في قصيدته الا هذا الكر والفر ، والذهاب والاياب . اما حكمة زهير ، فهي ايضاً صورة للنفس العربية ، وليس

الرجل بزاهد في الحياة وان قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

فهو في كل بيت من هذه الحكم لا يصدر الا عن ينبوع النفس العربية. والنفس العربية ليست كلها عتواً وطغياناً ، ومن زعم ذلك فقد ضل. ان الشخص الواحد يمر كل يوم في اطوار مختلفة ، فكيف بالامة.

اما لبيد القائل :

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

فجذا حذو من سبقوه ، وافترق عنهم فحدثنا عن حمار واتان وحشيين انقطعا عن العالم مدة فكان شهر العسل عندهما ستة اشهر . اما عمرو بن كلثوم فقصيدته قصيدة الشباب ، هناك قبيلة تتكلم لا شاعر ، فذات الشاعر ذابت في قبيلته ، فاصبح كأنه لا يحس مفرداً . بدأ « ملحمته » في وصف الخمرة ، وتأثيرها في الناس . ولا بد لرجل مثله ان يدع الطلول ويصف الكأس ففي قرارتها الشجاعة ، وهي من « المقبّلات » العظمى لاقتحام مأدبة كمأدبة عمرو بن هند التي اعدها للاراقم ، فأكل منها حتى تخم . وعلم ابن كلثوم ، وهو نموذج الفتى العربي ، ان لا بد للخمرة من ساقية لتحلو وتطيب فذكر صاحبته بخير ، ثم أقبل على عمرو بن هند ، فخاطبه بسهولة فائقة وتحداه اخيراً بقوله :

حديّا الناس كلهم جميعاً مقارعة بنيهم عن بنينا

ثم يعود الى البكريين بني عمه فيلومهم على نسيان ما كان ، واخيراً يملأ البر خيلًا ، والبحر سفيناً ، وتسجد لطفل قبيلته الجبابرة . وهو بهذا يفتح باب الابتهار على مصراعيه لكل شاعر عربي . وليسمح لي من تعودوا تقديس كل قديم ان اقول كلمتي وامشي . ما اظن صاحب ملحمة « الزير » التي اولها :

يقول الزير بو ليلى المهلهل وقلب الزير قاسي ما يلينا
وان لان الحديد ما لان قلبي وقلبي من حديد القاسينا

الا مستلهماً او معارضاً قصيدة ابن كلثوم . . .

اما ابن حلزة فهو ذاك المدره الرصين . توكأ على المنطق حين رأى ابن عمه فائر العاطفة ، واتخذ الهزء الناعم مجنــاً يتقي به سهام ابن عمه المرنانة .

اما صاحبنا الاعشى فأعرب في مطلع قصيدته عن اخلاق سكير حقاً . السكير يهمه الحاضر وما هو آتٍ ولا يبكي لما فــات . فعكف على وصف صاحبته هريرة وصفاً يفري ويهز ، حتى اخرج صورة يعرفهــا المنكوبون في الحب في كل عصر فقال :

عُلّقتها عرضاً ، وعُلّقت رجلاً غيري وعُلّق اخرى غيرها الرجل

ويلمّ باغراض شتى حتى الحماسة والقتال فيقول :

ان تركبوا فركوب الخيل عادتنا او تنزلون فانّا معشر نزل

وقد صدق اسلافنا حين لقّبوه صناجة العرب ، فقصيدته على بداوتــه موسيقية لا تبارى جرسـاً ورقة ، ولا عجب فالاعشى شاعر الخمرة الدوار . انه يحسن القص ، فاقرأ ابياته لشريح ، تعلم انه بالفـــاظ قصيرة يخرج صورة تامة . وهو من الشعراء المجسدين الكبـار ، وقد خـــاطب ناقته خطاباً اخذه بعده الفرزدق فاوحى الى جرير تلك الصورة المخزية فأخرسه .

اما النـــابغة فهو من السلالة الزهيرية ديباجة وتحكيكاً ، وقفزاً من غرض الى غرض ، وقد احسن خطاب دمنة دار نعم حين قال :

عوجوا فحيّوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيّون من نؤي واحجار
واستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات اخبار

ومن عنده اخبار اكثر من الدار ، وخصوصـــاً اذا كانت من دور

الكراء التي وصفها الجاحظ في البخلاء ، ففيها منافع للناس العاشقين . . .

لقد قصر النابغة عن النابغة في استخبار الدار في داليته ، ناهيك ان الدالية مفككة الاجزاء مثل قصيدة زهير ، وقد اعرب صاحب جمهرة العرب عن ذوقه الفني حين احصى الرائية في كتابه لا الدالية . والنابغة يقيم الدليل على نبوغه في وثبات رائعة موفقة في الصورة والموسيقى كقوله في استبطاء الليل ، حتى صارت الليلة النابغية ، بعد بديع الزمان ، مضرب المثل :

كليني لهم يا اميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وقوله في الصورة الثانية التي افتخر بها النابغة في عكاظ على حسان — ان صدق الرواة :

وانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت ان المنتأى عنك واسع
نُبّئت ان ابا قابوس اوعدني ولا قرار على زأر من الاسد

ثم في قوله الذي عبّر عنه اسلافنا بالرهبة :

اتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون

ان نابغتنا اتبع زهيراً في اخراج الصور فاستجدى بها نعمانه السمح ، وترك هندازها لثالث هؤلاء — الاخطل التغلبي — الذي قال : اشعر الناس ، قبيلةً ، بنو قيس ، واشعر الناس ، بيتاً ، بيت زهير ، واشعر الناس ، رجلاً ، رجل في قميصي .

ان المقابلة بين هؤلاء الفحول الثلاثة ميسورة ، فليت من له متسع من الوقت يقابل بينهم ، فبينهم نسب قريب جداً .

قد استحق النابغة ان يحكم في سوق عكاظ ، فشعره صافٍ نقي واذا حاولنا ان نميز بعض الشعراء الجاهليين من بعض فلا نستطيع ذلك

لانهم لم يخرجوا من حظيرتهم ، واتبعوا خطة رسمت لهم فكانت كالطرق المعبدة في هذه الايام ، واي جديد يجد من يسير في مثل هذه الجادات ؟

بقي – عدا عنترة – شاعر اسمه عبيد بن الابرص . لماذا عدّوه بين هؤلاء الفحول ؟ لست ادري . واية غرابة وجدوها في قوله حتى الفوا اسطورة حول شعره ، فقالوا انه غضب لان رجلاً اتهمه بأخته . وابتهل الى الله ونام فأتاه آتٍ في المنام بكبة من شعر حتى القاها في فيه ، ثم قال له : قم ، فقام وهو يرتجز ببني مالك . ان معلقة عبيد لا تستحق ان تكتب فكيف بها ان تحصى في الشعر الذي يفتخر به العرب .

اما عنترة ، فابقيناه الى الختام لانه جمع في قصيدته الميمية المشهورة مثل العرب العليا في الحياة . فالذين وصفناهم من اصحاب القصائد العشر قد يقصر بعضهم في نواحٍ او ناحية ، اما هذا العبد الاسود فأرانا اخلاقاً يندر وجودها في الاحرار البيض . فحبه عربي قح ، وخلقه عربي صرف ، واسلوبه دان كل الدنو من لغتنا اليوم ، ولهذا سندرسه اكثر من اصحابه ، وفي كل حال لسنا نرسم الا خطوطاً رئيسية ، وعلى من يتعمق ان يفصّلها .

ان ما يرويه الرواة عن عنترة وقعوده عن النجدة ، حرداً وغضباً ، يقرب كثيراً من حكاية الياذة هوميروس ، ولسنا نعني بهذا ان معلقته ملحمة .

اذا آمنّا بما يقوله علم النفس عن مركّب النقص رأينا ان عنترة هالته بشاعته ، التي لا تغري عبلة ، فجعل وكده في قصيدته محاولاً ان يستميلها برجولته ، وللرجولة شأن عظيم في عيني المرأة ، فكان جل همّ عنترة ان يصور لحبيبته عبلة بطولته وما تضمه من اخلاق عربية نبيلة ، فقال قصيدته وما موضوعها الا عنترة ذاته

كأني بعنترة قد ادرك ان السير على نمط واحد في الشعر يملّ ويكره فقال : هل غادر الشعراء من متردم . خلنا انه سيقول غير ما قالوا ، ولكنه عاد حالاً الى الحظيرة فقال : ام هل عرفت الدار بعد توّهم . . . ثم راح يصبّح ويسلّم . وهو لولا يظل في تردده لشجع الشعراء على الخروج من حظيرة التقليد ، ولم يخشوا ذئاب النقاد الذين حبسوهم هناك الى الابد. اني ارى عنترة يصور في قصيدته نموذجاً عربياً ، ولاجل هذه الصورة اكاد اصدّق ما رواه المحدثون عن النبي الكريم .

في القصيدة اضطراب ، وفيها كغيرها ضعف سياق ، وفيها مثل تلك مخالفات لغوية ونحوية ، وفيها الى جانب كل هذا صور طريفة ، كتشبيهه ناقته واقفة في طاول عبلة ، بالقصر . وفيها لوعة حبّية حقيقية لا تتعدى التقاليد العربية في الحب والعشق . قد يتحابّ عاشقان تحت غبار الحرب بين قبيلتيهما . ان عنترة محتار كيف يدرك عبلة وهو بالغيلم ، وهي قد حلّت بارض الزائرين فأصبح طلابها عسراً عليه . اما عبلة فصفتها كصفة غيرها من بنات العرب ، حلوة معطير ، حتى شبّه فمها بالروضة ، واستطرد فوصف الذباب ذلك الوصف الذي اعجب الرواة فشادوا بذكر عنترة ، وتوارث هذا الاعجاب اليوم اساتذة الادب العربي ، كابراً عن كابر . . . ويصف عنترة حياة السيدة العربية وحياة الفارس مثله فهي :

تمسي وتصبح فوق ظهر حشيّة وابيت فوق سراة ادهم ملجم

ويستطرد عنترة الى وصف ناقته ، كما فعل طرفة ، فيصفها مثله بعد ان يتمنى ان تبلغه دار عبلة . ويناجي عبلة بقوله : ان القناع المسدول دونه لا يمنعه من اخذها لأنه طبّ بأخذ الفارس اللابس اللأمة والدرع . وهو وان كان في هذه البطولة فسهل القياد اذا لم يُظلم .

مسكين ، يقول هذا ليهوّن عليها ما يلقي منظره من رعب في نفسها ،

ثم يخفف من اهوال تلك الشخصية بما يصف به نفسه من كرم ، فهو يحب كما يحب كبراء العرب ويحارب خيراً منهم ويشرب مثلهم ايضاً . لا يشربها الا بالدينار الذي اجتلى به الاخطل عذراء ذاك المابج المكار . . . واذ شرب عنترة فهو كريم يبيد المال ، وفي تلك الثورة يبقى محافظاً على عرضه واذا صحا فهو فارس ميدان . ويحدث عنترة عبلة عن كل هذا حديثاً يستفاد منه ان القضية مساومة منها ، لا تحتاج الى برهان ، ولكنه يقول ما يقول للتذكير .

وبعد الحب والشرب ينتقل عنترة الى الحرب ، ولا يزال وسواس عاهته عالقاً بذهنه فيخبر عبلة عن جبروته ، فيصف لها كيف يترك حليل الحسناء الغانية مجدّلاً بضربة عاجلة . ولها ان تسأل الخيل ان كانت جاهلة بما لم تعلم ، فيخبرها من شهد معاركه .

ان عنترة كبعض الفنانين — الفن للفن — يحب الحرب للحرب ، ولذلك يقتل للحفاظ لا للسلب والغنيمة ، واذا عجز القوم عن البطل العنيد الكريم الذي لا يتزحزح من الساحة فهو يجود له بطعنة ويريح البرية من شره .

واخيراً يصف لها بطلاً ثالثاً فيصوره اعلى مثال من كرام العرب ، قيدوم الجماعة ، وبطل السرج ، واسد المجلس ، ومع ذلك فعنترة طعنه بالرمح ثم علاه فحز رأسه بسيفه .

كل هذا ليحوّل بصر عبلة عن الجمال ويستميلها الى الرجولة الرائعة . ولهذا يخبرها كيف لبى نداء مرة حين ايقن ان سيكون ضرب يطير عن الفراخ الجثّم ، وقد كنّى صاحبنا بالفراخ الجثّم عن الجماجم فاجاد .

ثم يشخّص حصانه في هذه المعركة الفاصلة ، حتى كاد يكلمه شاكياً ، ولكن عنترة لا يرحم نفسه في الجلى فكيف يرحم حصانه .

لقد حشر عنترة في قصيدته هذه مكارم الاخلاق العربية كلها

فأصبح هذا العبد خير نموذج للاحرار . فما كان الطفه في التعبير ، وما كان اسلم ذوقه ، وهو البدوي الجاهل العبد ، حين قال :

واغضّ طرفي ان بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وما اسمج ذوق المتنبي ، وما ابشع تعبيره ، حين قال في هذا المعنى ايضاً :

اني على شغفي بما في خمرها لأعف عما في سرابيلاتهـا

ان هذا عبد ، وهذاك حر ألّه ذاته ، فتأمل . لقد احسن عنترة الاستمالة ، وتسامى الى اسمى التسامي ، واستغل « عبديتـه » في فنه الشعري فقال :

انا العبد الذي خبّرت عنـه وقد عـاينتني فدع السماعا

وقال ايضاً :

ان كنتُ في عدد العبيد فهمتي فوق الثريا والسماك الاعزل

اما سواده فاوحى اليه ايضاً صوراً رائعة رددها في شعره الآخر ، منها قوله :

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

ولا يزال « السواد » مغلالاً حتى اليوم . وآخر من استغله محمد امام العبد ، كما اشرنا الى هذا في موضع آخر .

ان عنترة اول شاعر يدرس الفتى العربي ، بعد ابي الطيب المتنبي . لقد تسامى هذا العبد فرفع نفسه ورفع الناس معه .

خصائص الشعر الجاهلي

كان الشاعر الجاهلي مثل « القوّال » اليوم ، يقول الشعر بلغته ولهجته فيستحلى ويستملح لان سامعيه كانوا يتذوقونه تذوقاً غير منقوص . يحسون الاجواء ويدركون الشخوص ويعرفون الامكنة ، وفي هذا ما فيه من الايحاء . اما نحن فبُعدنا عن كل هذا ينقص تذوقنا ويجعلنا دون العربي القح احساساً لهذا الشعر . ان الفاظ الشعر الجاهلي لا تحمل اكثر مما حمّلها اصحابها ، واذا استسمجناها نحن فلأنها لا تدور على ألسنتنا فيصقلها الاستعمال . ناهيك ان لمعرفة المكان اعمق اثر في نفس القارىء ، ولهذا وجدتني اشد رغبة في الشعر الجاهلي بعدما قرأت « ملوك العرب » للريحاني .

كان الشعراء ألسن القبائل يعبّرون عن اغراضهم ومآربهم بلسان تلك القبائل واساليبهم وطرق تعبيرهم وتفكيرهم ، واذا خلوا الى نفوسهم عبّروا عما يجيش فيها من خوالج نفسانية . كان عندهم لكل غرض الفاظ ، فاشتد قريضهم ولان حسب مقتضى الحال ، وهكذا تتنوع الموسيقى في القصيدة الواحدة . وهذا ما ضلل احد المحققين حين ظن ان الابيات اذا كانت هيّنة ليّنة في قصيدة جاهلية فهي دليل واضح على انها منحولة . ان هذا لضلال وقلة بصر بوجوه الشعر . فالشاعر يرق ويشتد في قصيدة واحدة ، تبعاً لاغراضه ، فكيف به في ديوانه .

قال الجاحظ في كتابه البخلاء : كان الاصمعي يقول : قد كان للعرب كلام على معانٍ فاذا ابتدلت تلك المعاني لم تتكلم بذلك الكلام .

واذا لاحظنا ان الشعر العربي ذاتي ، يعنيه « الأنا » قبل كل شيء ، ادركنا السبب في اتخاذه اللهجة الخطابية ، فكأن كل قصيدة معدّة لتلقى على الجماعة ، وهي كذلك .

ليس في الشعر الجاهلي تكلف ولا تقعر ، فهو كالزجل اليوم . كان يقال عفو الطبع ، يعتمد على التشابيه ، والاستعارات ، والصور ، والعاطفة على ضروبها وانواعها ، ولم يصبح فناً او عملاً الا مع زهير . وثنا نموه المعلوم مع راويته الحطيئة حتى سمي عبد الشعر ، ثم مع النابغة فالاخطل . وهذا التعمل لم يبعد الشاعر الجاهلي عن الصدق ، فهو صادق في التعبير عن عاطفته ، عن مآرب قبيلته ، عن وصف محيطه ، صادق ما استطاع في تشابيهه . خذ قول امرىء القيس في وصف الطوفان :

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطماً الا مشيداً بجندل

ومع كل ما في هذا الشعر من صدق لم تبق لنا حاجة ماسة اليه . فهو منبع لغوي فقط ، اما عناصر الفن والتاريخ والاخلاق فضعيفة فيه . ومع ذلك ارانا ندرس هؤلاء الشعراء بشكل يقرب من التقديس . فعنترة كأحد آلهة اليونان ، وزهير فرخ نبي . ندرسهم اليوم كما قرأنا عنهم في كتاب الاغاني ، وغيره من المجموعات الادبية ، فلا نجرؤ ان نقابل هذا الشعر بأقل نقد فكأنه وحي ، وهب ان استاذاً « تمرّد » وخرج على التقاليد الادبية وشايعه تلميذه كان الرسوب في الامتحان جزاءه ... اذن على المدارس التي تهيء تلامذتها للمنهاج ان تعمل بقول غوستاف لبون فتضع فونغرافاً على كراسي الاساتذة فيؤدي مهمتهم المنهجية

وعلى الطالب ان يسمع من معلمه : امرؤ القيس اول من وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وقيّد الاوابد

وابن يقول ، مثلاً ، اذا سئل من اشعر العرب : امرؤ

القيس اذا ركب ، وزهير اذا رغب ، والنابغة اذا رهب ، والاعشى اذا طرب .

وعليه ان ينعت اللغة العربية كلما جرى ذكرها بقوله : لغتنا الشريفة واشرف اللغات .

وعليه الا ينتقد شاعراً من شعراء المنهاج ، وان فعل فمصيره الخذلان والخيبة . ليس له ولا لأستاذه ان يفكرا الا وفقاً للمنهاج ، وان فعلا فالخسار عليهما .

ان قصيدة واحدة من القصائد العشر لتغني عن الشعر الجاهلي كله . ماذا يعنينا اليوم من حياة لا نعيشها ، فلنفتش عما ينفع ابناءنا تربوياً ، فلو كان في اقوال هؤلاء الشعراء خير ما قال عنهم الكتاب الكريم ما قال وسفههم .

ان الاسلام منذ اربعة عشر قرناً غيّر المثل الاعلى الجاهلي ، ونحن في القرن العشرين نحسبه ركناً تعليمياً .

بعد الإسلام

عصر العصبية العربية

وركدت ثورة الجاهلية حين ظهر الاسلام ، وكان للقرآن الكريم اعظم وقع في النفوس فحسبوه شعراً ، وقالوا عن صاحبه شاعر مجنون . وكان للاسلام ، كما يكون لكل دعوة جديدة ، اعداء وانصار . فانشق الشعراء شطرين : فريق يدعو لمحمد وحزبه ، وفريق ينفّر الناس منه ويؤلبهم عليه . على رأس اولئك حسان بن ثابت ، وعلى رأس هؤلاء امية ابن ابي الصلت .

كان أميّة ألد خصوم الرسالة الجديدة ، ولم يكن بالخصم الهيّن ، والذي كان شعره غريب الوجه واللسان . قال فيه ابو عبيدة : اتفقت العرب على ان اشعر اهل المدن اهل يثرب ، ثم عبد القيس ، ثم ثقيف . والذي اشعر ثقيف امية ابن ابي الصلت . وقال فيه الكميت : امية اشعر الناس ، قال كما قلنا ، ولم نقل كما قال .

وقال الزبير عن عمه مصعب عن مصعب بن عثمان : كان امية قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبّداً ، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية ، وحرّم الخمر ، وشك في الاوثان ، وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة لأنه قرأ في الكتب ان نبيـاً يبعث من العرب فكان يرجو ان يكون هو . فلما بعث النبي – صلعم – قيل له : هذا الذي كنت تستريث وتقول فيه ، فحسده عدو الله وقال : انما كنت

أرجو ان اكونه .

فأنزل الله فيه عز وجل : واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها .
قال وهو الذي يقول :

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

حنق امية لهذه الخيبة وشرع يحرّض قريشاً بعد وقعة بدر ، حتى نهى رسول الله عن رواية احدى قصائده .وقد قال الحجاج على المنبر : ذهب قوم يعرفون شعر امية وكذلك اندراس الكلام .

وامية قدم على اهل مكة « باسمك اللهم » فجعلوها مكان بسم الله الرحمن الرحيم في اول كتبهم . وقد وضعت اساطير حول امية ، منها انه خرج في سفر فنزلوا منزلاً ، فأمّ امية وجهاً وصعد في كثيب فرفعت له كنيسة فانتهى اليها ، فاذا شيخ جالس فقال لأمية حين رآه : انك لمتبوع ، فمن اين يأتيك صاحبك ؟

قال : من شقّي الايسر . قال : فأي الثياب احب اليك ان يلقاك فيها ؟ قال : السواد . قال : كدت تكون نبي العرب ولست به . هذا خاطر من الجن وليس بملك ، وان نبي العرب صاحب هذا الامر يأتيه صاحبه من شقّه الأيمن ، واحب الثياب اليه ان يلقاه فيها البياض ...

وهناك اساطير عديدة اغربها انشقاق السقف وظهور طائرين ، وقع احدهما على صدره فشق قلبه ، وكان بين الطائرين وبين امية حديث ، ولم يبخل عليها امية بكلام يشبه الشعر .

الخلاصة ان ظهور الاسلام حوّل الشعر مدة عن مجراه ، فصار نضالا حيناً ، ثم سكنت ريحه فترة ، في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين .
ثم عاد سيرته الاولى ، ينحو نحو الاقدمين في اغراضه واسلوبه .

ودبت اليه عناصر السياسة فكان فريق من الشعراء يؤيد علياً ، وفريق

يناصر معاوية ، ولما سكنت الامصار بين يدي الامويين ساسوها على اساس العصبية العربية ولم يقدّموا غير عربي ، فأوغروا الصدور . وكان لهم خصوم من العرب فحاربوهم حتى اخضعوهم ، ولكن الضمائر ظلت في غليان فانضم هؤلاء الى الأعاجم المغلوبين على أمرهم فقاوموا جميعاً « العصبية العربية » . وهذا الاتحاد العربي الفارسي جعل الدولة العباسية في اضطراب دائم ، وأخيراً أدى ذلك الى اضمحلالها واندثار الملك العربي .

ان العصر الاموي خلق للشعراء سوق عكاظ جديدة — المربد — وفي هذا العصر أيضاً استقلّ الهجاء والغزل ، فهو العصر الذهبي للشعر العربي القديم .

عصر الهجاء

هو العصر الاموي ، واذا تحدثنا عن العصر الاموي فما نعني غير ذلك الثـــالوث الانجس : الأخطل وجرير والفرزدق . لقد مزّق هـــؤلاء الثلاثة الاعراض ، ونبشوا القبور ، وصلبـــوا الموتى ، واكلوا لحوم اخوانهم احياء وأمواتاً . واذا تحدّثنا عن هؤلاء الشعراء فكأننا نتحدث عن شعراء الجاهلية ، فالطور الذي أوحى الى الجاهلي هو الذي استوحاه الاموي واستلهمه العباسي . لقد سدّ شعراؤنا نوافذهم لئلا يبصروا العالم الخارجي ، حتى قـال اعمق العرب ثقافة واثقبهم عقلًا واغزرهم معرفة ، اي الجاحظ : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تـــكلم بلسان العرب .

لا نلوم شعراءنا الاولين ان خاضوا بحر التقليد خوضاً ، فهم أطفال بالقياس الينا ، والطفل اشد تقليداً من البالغ ، وانسان القبيلة والجماعات يدور على نفسه في حلقة محكمة ، بخلاف المفكر الوحيد الذي يرى الناس من علُ ، ويحكم عليهم . ناهيك ان التقليد ناموس طبيعي يسيّرنا في كل زمان . قال احد دارسي الادب الغربي اذ بحث التقليـد في شعر امته : نستطيع ان نضع خلف كل شاعر جديد شاعراً قديماً .

لم يفت ذلك اسلافنا فقال ابو عمرو ابن العلاء : الاخطل كالنابغة ، والفرزدق كزهير ، وجرير كالأعشى . اصاب ابن العلاء بؤرة الهدف اذ

شبّه الاخطل بالنابغة فكأنهما واحد ، امـــا جرير والاعشى فيجتمعان في الرنة الشعرية ويختلفان في تماسك الديباجة ، فليس في شعر صناجة العرب هلهلة شعر ابي حزرة ، وقد طاش سهمه في تشبيه الفرزدق بالنابغة . والذي يبدو لي هو ان خيال هؤلاء ، ما خلا الاخطل ، اضعف من خيال شعراء الجاهلية ، فالفرزدق خاصة ينقصه الخيال والعاطفة وهمـــا ملاك الشعر وقوامه .

الاخطل كحليفه الفرزدق حامض الوجه . كلاهما جافّ . بيد ان الاخطل يبتسم أحياناً نصف ابتسامة ، وله نزوات محبوبة حين يحدثنا عن الاحمرين . وله وثبات في النضال تدل على ان هناك نفساً طرية ، ولكن خمرة ابي نسطوس يبستها فصارت كتلك الافاعي المنقوعة في الكحول تبدو لامعة ولا حياة فيها .

لست اميز هؤلاء الشيوخ من مشايخ الجاهلية ، فالجـــاهليون يؤلهون المادة ولا يهمهم ما وراء القبر :

فذرني اروّي هامتي في حياتها ستعلم ان متنا غداً أيّنا الصدي

وهؤلاء مؤمنون ولكن أي ايمـان ؟ فمسيحية الاخطل مسيحية شمطاء ناصلة : « السكيرون والزناة لا يدخلون ملكوت الله. » والاخطل كان لا يصحو ولا يفيق . اسمعه يتهدد زوجته :

اعاذل الاّ تقصري عن مـلامتي ادعك وأعمد للتي كنت افعـل

واهجرك هجراناً جميلاً وينتحي لنا من ليـالينا العوارم اول

ويا ليته اكتفى بهجرهـــا هجراً جميلاً ولكنه طلقها الثلاث طلاقاً قبيحاً . . . اما الفرزدق فاقوال الرواة وابن عمه تسفهه . هو قرد غير نائم ، يرقى الى جاراته بالسلالم ، يتدلى من ثمانين قامة ليزني ، ويقصر عن باع العلى والمكارم . اما جرير فبذيء اللسان كشّاف عورات . اني حين

أرى الجيف الطافية على بحور شعره احار اين اجد العفة التي وصفوه بها . فالجاهليون وهؤلاء متساوون في التديّن والاخلاق ، لا بــل ارى زهيراً الجاهلي افضل من ذاك النصراني وذلك المسلم .

اما الخلافة وهي اقوى الروابط الاسلامية فما قرّبت الشاعرين المسلمين ن الامام فكان شاعره نصرانياً . مدحه جرير مستميحاً وادلّ بـه على تغلب شعرياً فقط حين قال :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة   لو شئت ساقكم الي قطـينا

ولكن ابن مروان لا يصغي الى ثوثرته ، فهو يسامر الاخطل تاركاً الفرزدق أيضاً يتغنى بنار غالب . ان حمية الجاهلية التي اخمد الاسلام نارها قد دبّ لها هؤلاء بالحطب فكانت جهنم ارضيةً وقودها الناس واعراضهم . ففي هذا العصر قد بلغت العصبية القبلية منتهاها فصار ذو الصليب شاعر الخليفة. هب ان الاخطل كان كما قال لسائله : اشعر الناس ، قبيلة ، بنو قيس ، واشعر الناس ،بيتاً ، بيت ابي سلمى ، واشعر الناس ، رجلاً، رجل في قميصي ، ثم كان وقومه في غير حلف عبد الملك، أكانت تطأ رجلاه بساط هذا الخليفة ؟

اذا فتشنا عن اثر ديني في شعر الاخطل فلا نقع الا على هذا البيت :

لما رأونا والصليب طالعا   ومار سرجيس وسماً ناقعا

ولكننا نجد الى جانب هذا الابن الوحيد جاهلية عارمة كلياليه التي تهدد بها زوجته ، واليك بعض ما قال :

اني حلفت برب الراقصات وما   اضحى بمكة من حجب واستار

وبالهديّ اذا احمرّت مدارعهـا   وما بيثرب من غون وابكار

وقد رووا انه كان يحلف باللات والعزّى . صـدق الله العظيم : قالت الاعراب آمنّا ، قل لم تؤمنوا ، ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمـان في قلوبكم . وكيف يؤمنون وفي قلوبهم الحمية (حمية الجاهلية) وهي التي

انطقتهم بهذا الهجو القذر . ان شمارهم جميعاً كما قال طرفة : ولولا ثلاثة هن من لذة الفتى . . . اي الشرب والحب والحرب .

لا يهم الاخطل الا دواء يردّ الشيب ليرجع شرخاً ويملأ بطنه من خمور قطّار فلسطين ، ويأكل صفيف الشواء والقدير المرعبل ، ويتمتع بما يلي ذلك . . . امـــا جرير والفرزدق فلم يحسبا للملكين حساباً فقال جرير لصاحبه :

ولو متنا لشد عليك قبري بمسموم مضاربـــه حسام

عاشوا جميعاً ليأكلوا ويشربوا فخـــلا شعرهم من الصوفية والنسمات الروحية التي تنعش الشعر وتحييه ، ومن المحبة التي ترققه ، فشعرهم ثلاثتهم مادي لا يستطاب ولا يبقى . وما قول الاخطل :

واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال

الا كقول الدهري : خلق الله السموات والارض ، لأن توبة صاحبنا مريضة بدليل قوله

ولقد اكون لهن صاحب لذة حتى تغيّر حالهن وحـــالي

لما رأت بدل الشباب بكت له والشيب ارذل هذه الابدال

لم يفكر هؤلاء بغير صيغ والفاظ وصور متشابهة فجاء شعرهم متشابهاً متماثلاً تغنيك مطالعة احدهم عنهم جميعاً . ساروا وراء من تقدموهم ولم يفكروا بتغيير شيء من اساليب حياتهم فظل الشعر بدوياً خشناً ، لم يتأثر بشيء من لين القرآن وحنانه . جفاف ويبوسة كطباع الفرزدق والاخطـــل ، فهذان الشاعران لم ينزلا عن عرش ارستقراطية لغة الشعراء بل غرقا في لجج الخشونة والغرابة وخصوصاً الفرزدق . ولا تعجب اذا قلنـــا ان الاخطل اصح لغة واساوباً من الجـاهليين ، فهو صديق عبد الملك الخليفة النقّادة . وعبد الملك وعامله الحجاج ما لحنا قط لا في جدّ ولا في هزل .

اما جرير فقد لان شعره واننا نسميه بحق شاعر عصره الشعبي . ان هذا لم يفت القدماء ، فقد سأل جرير رجلًا من بني طهيّة : اينا اشعر انا ام الفرزدق ؟ فقال له : انت عند العامة ، والفرزدق عند العلماء . فصاح جرير : انا ابو حزرة ، غلبته ، وربّ الكعبة . والله ما في كل مائة رجل عالم واحد .

اما الاخطل والفرزدق فما عبّرا تعبيراً شعبياً بل فتشا بالفتيلة والسراج عن الصيغ الجاهلية وحشراها في منظومها . ان الشعب لا يتذوق الا ما الفه من تعابير ، فصيغه المألوفة تؤدي له المعنى كاملًا غير منقوص ، ولهذا استطاب شعر جرير واستساغــه ورواه ولم يطرب لشعر الاخطلين ولم يروه .

واذا سمينا هذا العصر عصر الهجاء فما نعدو الحق لأن الهجـاء سيطر فيه على جميع اغراض الشعر حتى الرثاء . لم يحفزهم الى ذلك غير الاحداث السياسية وانشقاق العرب حولَ الخلافة . ما افتخرَ الفرزدق ليتعالى على جرير وحده ، بل ليتعالى ، من حيث لا يشعر ، على الجالسين على السرير فيذكرهم بمجد آبائه واجداده . ان السياسة في ذلك العصر هي التي اركبت الشعر ذلك المركب الوعر فطبعته بطابع الهجاء ، وكثيراً مــا تطوّر السياسة اساليب التفكير . كان الشاعر في عصره وزير دعوة ونشر ، فلا نعجب ان رأينا السلطان لا يُسكت هؤلاء الثلاثة ، فالتيار قــد جرف الخلفاء انفسهم فاداروا دفة السفينة وهم لا يعلمون انهم ربابنتها .

لقد ابعد التناطح الشعري هؤلاء الفحول الثلاثة عن منطقــة الفن وحسبك ان تقرأ مناظرة جرير والفرزدق عنــد بشر بن مروان لترى مقدار حظ شعرهم منه . انها لأشبه بمناظرة قوّالي الزجل والعتابا عندنا . لا شك انهم في شعرهم الآخر اكثر فناً منهم في هــذا البراز الشعري ،

ولكنهم اسّفوا في كل حال فابتعدوا عن الشعر اذ جعلوا اغراض شعرهم اعراض قبائلهم . حسبنا نقيضة الفرزدق اللامية شاهداً على ما نزعم ، ففيها جيش عرمرم من الاعلام لم تقذف بمثله روسيا الحمراء . وهكذا استحال الشعر الهجائي المعروف بالنقائض فهرساً شاملاً لمثالب العرب ، ويا ليته لم يكن .

حلو الكلام ومره لجرير

قوام شخصية جرير شرّة وحمية . يستفزه الغضب فيشرئب ويتهيأ للنطاح والمساورة ذياداً عن حياض شعره . يستجيب لكل دعوة ويصول يمين وشمال وخلف وقدام وفوق وتحت . ينبش القبور ولا زياد يدفنه فيها حياً . نموذج اعرابي اصيل ، من طبعه الهرج والمرج ، تدلنا على خواصه جميعها كلمة الحجاج : قاتله الله اعرابياً ، انه لجرو هراش . وهل هجاء هؤلاء الفحول ثلاثتهم غير عرارة ونبوح ؟

واذا قرأنا تلك الاسطورة التي رواها ابو الفرج عن ابي عبيدة اتضحت لنا شكاسة خلق جرير . قال : رأت ام جرير وهي حامل به كأنها ولدت حبلًا من شعر اسود ، فلما سقط منها جعل ينزو فيقع في عنق هذا فيخنقه حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت مذعورة ، فأولت الرؤيا فقيل لها : تلدين غلاماً شاعراً ذا شر وشدة شكيمة ، وبلاء على الناس . فلما ولدته سمته جريراً باسم الحبل الذي رأت انه خرج منها . قال : والجرير الحبل . لا يعنينا اكاذبة هذه الرواية ام صادقة ما دامت تنم عن طبع جرير الذي اخرج من رأسه ذلك الكلام الحلو المر . وفي حكاية جرير مع راعي الابل وابنه جندل دليل آخر على شرّة جرير وحميته . قالوا انه لم ينم ليلة طرحت قلنسوته تلك الطرحة المشؤومة . شرب باطية نبيذ وحبا على فراشه عرياناً لما هو فيه . وما زال كذلك حتى كان السحر فكبّر ثم قال :

اخزيته ، ورب الكعبة . تلك حكايتهم حول قصيدته المسماة « الدامغة » التي قالها ثمانين بيتاً في هجو بني نمير ، وهي تثبت لنا ان الحمية — الهيجان في علم النفس — هي منبع الشعر الجريري . فهو اذا اهتـــاج اصبح كالبركان يقذف الحمم ولا يدرك ما يقول ، فيزج في شعره ألفاظاً وصوراً لا يتلفظ بها الرعاع ، وحسبك ان تعلم كيف تصور عنفقة الفرزدق حين شاب . . . ان غضب جرير واستقتاله في الدفاع عن شعره يذكرني بشعر هيغو الهجائي ، فكلاهما واحد يجري لغاية واحدة في هذا المضمار . حدة تشبه ثورة المجانين في رؤوس الاهلّة ، ولا فرق بينهما الا ان لشاعر الغرب خيالاً عظيماً جداً ، وشاعرنا بعيد عن الخيـــال ، هذاك يفكر بالصور التي يخلقها ، وشاعرنا يعدّد المثالب ويعيّر فيكشف العورات ويمزّق الاعراض ، ووكده الملحة والنكتة .

ان شعر جرير بخلاف شعر صاحبيه . شعر خفيف تغلب فيه لبـاقة التعبير على قوة التفكير . قريحة لدنة ليّنة يثيرها أقل تهويش ، ولا مانع ان نضم الى السجعات الاربع المشهورة سجعة خامسة فنقول : وجرير اذا غضب . لم يحـاول جرير السموّ الى لغة الشعراء المتقدمين فدار شعره على كل لسان ، وقد ادرك ذلك الاخطل فقال : قلت انا بيتاً ما أعلم ان احداً قال اهجى منه :

قوم اذا استنبح الضيفان كلبهم   قالوا لأمهم بولي على النـار

فلم يروِه الا حكماء الشعر . وقال هو :

لتغلبيّ اذا تنحنح للقرى   حكّ استه وتمثّل الأمثالا

فلم تبق سقاة ولا امثالها الا رووه .

السبب عندي هو ان الاخطل تعمّل وتخيل — وهو اقواهم خيالاً — فأخرج صورة غير مألوفة فركد بيته وجاء كحمّى الدقّ . امـــا بيت

جرير فيشبه البوداء الـــتي تنفض الاجسام نفضاً فهبّت ريحه وركد بيت خصمه .

في شعر جرير نشاط ومرح ، فهو اشبه بخبب المسوّمة العراب بينــا شعر الاخطل يمشي ويهدر كالجمل الاورق .

خطى متزنة رصينة ترضي اهل السمت ، اما جرير فاتبع في الهجـــاء خطة بوالو استاذ الشعر الفرنجي فجاء شعره كما قال : تأتي كلماتي بلا عناء لتحل محلها . انه لا يتعكز في اخراج صوره على علم البلاغـــة . انظر الى بيته الذي مرّ وقف عنده قليلاً . ليتك رسّام او مثّال لتخرج لنا لوحة رائعة او تمثالاً لتغلبي جرير المتنحنح للقرى . أليس هذا التخيّل البسيط المركّب صورة تضحك وتطرب معاً ؟ ان جريراً يحسن الهزل والتهكم والسخر فتستحلي هزله وسخره وتهكمه وان كان مبنياً عـــلى جُرف هار .

ان ضربة جرير خاطفة كأنها سيف طرفة ، وهي غالباً كمبضع النطاسي . كان اقدر من صاحبيه على نقض الكلام . ولو كان ابو حزرة من علماء الكلام لأتى ببراهين ذات حدّين . خاطب الفرزدق ناقته اجمل خطـــاب وخلص الى ممدوحه بلباقة ، وسأله بكياسة انستنا سماجته اذ تحدث مـــع زوجته الطيبة على الفراش ، ذلك الحديث الثقيل ليخلص الى ابن ليـــلى — عمر بن عبد العزيز — قال الفرزدق يخاطب ناقته :

الامَ تلفّتـــين وانت تحتي وخير النـــاس كلهم امامي
متى تَرِدي الرصافة تستريحي من التهجير والدبر الدوامي

فانتفض جرير انتفاضة الصقر فاذا بصورة الفرزدق تسقط كأسوار اريحا حين سَمعت صوت ابواق يشوع . . .

تلفّتُ انهـــا تحت ابن قين حليف الكير والفأس الكهام

متى تردِ الرصافة تخزَ فيها كخزيك في المواسم كل عام

هذا هو الكلام الحلو المر الذي لم يخرج مثله الا رأس ابي نواس ، ولكن كلام ابن هاني اكثر فناً واقل ايلاماً واشد اضحاكاً .

ليس لجرير خيال الاخطل ولا ثروة الفرزدق اللغوية . ولست اجد تحديداً لشعر جرير اصدق من قول الجاحظ لصاحبه المربّع المدوّر : يحب المعنى حياً يلوح وظاهراً يصيح . ان هذه الخاصة ابرز ما تكون في هجائه ، اما غزله الذي قال فيه الفرزدق : ولو تركوه لأبكى العجوز على صباها ، فلست ارى فيه ما رأوا وليس ابداع جرير الأسمى هناك . لا شك ان هناك نوعاً لطيفاً من الغزل ولكن جريراً لم يفق سواه فيه ، بل بذ اقرانه بتلك السهولة وذاك الظرف الذي لا يدعه في ارصن الساعات اي حين يمدح الخلفاء .

لا يموت جرير في سبيل اللحم ولا يتحرق تحرّق الاخطل ويخرج صوراً جافية مثل هذه :

اعرضن لما حنى قوسي موتّرها وابيضّ بعد سواد اللمة الشعر

ان هذه الخشونة تقلب الاعراض فزعاً فيهربن منه ، وهو لو كان ألين وأرق لارعوين لحاجته ورأى ان عندهن لذي الشيبة بعض الوطر . . . اما جرير فأجمل منه مخاطبة لهن فينادي صاحبته :

يا ام عمرو جزاك الله مكرمة ردّي علي فؤادي مثلما كانا

لا شك انها وقفت وسارت الهوينا مصغية الى تلك الموسيقى ، كما انها تنفر نفور البقرة الجافلة حين تسمع الاخطل يندب وينوح

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واستحقبت لبّه فالقلب معمود

انها تنفر وتمضي بتلك الحقيبة ولا ترد عليه . . . عجباً لغياث ، الم يجد مستودعاً لقلبه أنعم من ذلك الخرج وآمن من ذلك الموقع ؟ . .قد عرف

الاخطل فعل الكلام فقال : والقول ينفذ ما لا تنفذ الابر ، افما علم ايضاً انه يلين القلوب القاسية ؟ انه الطبع ، فكلام صاحبنا على بلاغته وصحته ومتانته خشن كعباء الموصل .

لا نظلم جريراً اذا قلنا ان شعره الهجائي هرير وعواء ، ولكن في هذا الهرير والعواء ايقاعاً يستلذه السمع والذوق فتنسى بذاءته . اما ماذا وبماذا يهجو فأعداء جرير كأعداء هيغو ايضاً ، عبيد وتيوس وخنازير وكلاب ، وعقيدهم الفرزدق قريد اصلع وقين ، ماعونه علاب وكير وعلاة وقدوم ومبرد وكلبتان وعدل من الحمم الاسود . وكذلك آباؤهم وامهاتهم جميعاً .

فرقّع لجدّك اكياره واصلح متاعك لا تفسد

واذا طفح الكيل زج في شعره هنات واشياء يستهجنها اشد الناس حباً للاحماض . فكل ما هجا به الاخطل والفرزدق ينحصر في بضع كلمات ، ولكن براعة سردها تنسيك قبح تكرارها فلا تحتجّ ولا تعترض .

كان لجرير الكيماوي مرتع خصيب في تلك الفرزدقة ، وهو ادرى الناس بفحص الدمن وتحليلها واكتشاف مضامينها ووصف ما بها من غرائب وعجائب ، كما ان دين صاحبه الآخر — اي الاخطل — اوحى اليه كلاماً مستطاباً :

قال الاخيطل اذ رأى راياتهم يا مار سرجس لا اريد قتالا

فهذا الكلام على بساطته استهوى الناس في امس ويستهويننا اليوم فنقول مع الفرزدق : قاتله الله ! فما احسن ناحيته ، واشرد قافيته .

اجل هو شاعر طلي محبوب ، ذو قريحة فياضة ، حاضر البديهة لرد الجواب ، يعينه على ترسيخ كلامه في الاذهان اسلوب رائق . ان شرّة جرير لا تنطفي ، لا رحمة عنده ولا غفران ، يضرب بألم وحقد وضغن ، فلا هوادة ولا هدنة :

الرؤوس

ولو متنا لشد عليك قبري بسموم مضاربه حسام

اما كلمتي المجملة في هؤلاء الثلاثة فهي : الاخطل اوفرهم فناً واسماهم خيالاً ، وجرير اشدهم فتنة واقلهم صنعاً للمتوجات البيانية ، فكلامه طوعي اختياري لا فن فيه ، والفرزدق لا فتنة عنده ولا فن الا متى وصف نار غالب ، وقدور دارم ، وصفوف المعتفين حولها في السنة الحمراء .

عصر الغزل

كان عبد الملك بن مروان ابصر اهل عصره بوجوه الكلام ، وادرى جيله بالشعر الجيّد ، وابلغهم كلمة ، واملحهم نكتة ممضّة . واذا كان الناس على دين ملوكهم فعصر عبد الملك عصر نهضة استقل فيها الهجاء والغزل ، وكانت الخطابة ، وبلغ الشعر الخمري الأوج . فابو نواس صهر صور الاخطل والاعشى والوليد وغيرهم ممن تقدموه في بوتقة فنه فخرجت ابهج واملح ، وانبثقت له صور خمرية طريفة اعانه على اخراجها دينه الذي حرّم الخمرة ، وظرفه ، وخفة روحه ، ولسانه ، وسهولة بيانه .

فاذا راعينا مدنية العرب والفرنسيس كان شعراء عصر عبد الملك كشعراء عصر الملك الشمس . فالمدح والغزل والهجاء اجتمع اشدها في عصر ابن مروان ، عصر نهضة الشعر الرصين ، والكلام العربي المبين . فالغزلان الاباحي والعذري استقلا في هذا العصر حتى اذا ما انقضى امسى الغزل كالمقبّلات التي تتقدم المآدب . فعمر وجميل هما شاعرا الغزل ، اما بقية الشعراء فبدد . واحسبك توافقني على كنية جديدة نطلقها على ابن ابي ربيعة . قد وسخ عمر كنية ابي الخطاب في غاراته التي شنها على الحريم ، فأبو جوان تليق به وتدنيه من زميله دونجوان الاوروبي . ان دونجوان شخص اسطوري اما ابو جوان فكنية حقيقية ، لأن جوان بن عمر كان رجلاً صالحاً كما روى الاصبهاني . فليهنىء العرب دونجوانهم ، وماذا

ينقصنا بعد ؟ . .

قال الجاحظ في حجج النبوة : والناس اشبه بازمانهم منهم بآبائهم . والحجاز كانت في زمن عمر مترفة . ثروة يضخمها الفيء الذي ينصبّ فيها انصباب وفود الماء في بركة المتوكل . . . وماذا يعمل شاب قرشي سد عليه الامويون وعلى اضرابه مطالع السياسة ، واغرقوهم في الأعطيات لئلا يتطاولوا على الخلافة ؟

احس عمر انه شاعر ، وهبّت في صدره الاهواء فغنّى لها فحملته على اجنحتها الى عبقر . قد يكون ركب رأسه بعد موت ابيه ففتنته مجالس الغناء والشراب والجواري والقيان والمواسم التي تتجدد كل عام عندهم . فمكة مشتى الاكابر ، ومصيفهم الطائف ، وعمر منهم . يسيل العقيق فتسيل معه عواطفهم ، ناهيك بالقصور والجنات التي قامت على آثار الطاول كما انبأنا عمر بقوله :

هيّج القلبَ مغان وصِيَر دارسات قد علاهن الشجر

وكما قال جرير يخاطب هشام بن عبد الملك :

شققت من الفراتِ مباركاتٍ جواري ، قد بلغن كما تريد
وسخّرت الجبال وكنّ خرساً يقّطع في مناكبها الحديد
بها الزيتون في غلل ، ومالت عناقيد الكروم فهن سود
يمضون الأنامل ان رأوها بساتيناً ، يؤازرها الحصيد

في مثل هذا المحيط الفتان نشأ ابو جوان . لست احدثك عنه وعن عصره ومحيطه وحياته ، فقد كفانا ذلك الاستاذ الكبير جبرائيل جبور . فان شئت ان تختص فدونك الكتاب النفيس الذي الفه . انه كتاب جامع رصين فيه اناقة عمر في شبابه ، وترتيب هندامه في زمانه . فشاعرنا ابو جوان كبير الحظ ، حيّاً وميتاً ، وحسبه ان يكتب عنه هذا الكتاب الغني شكلاً ومادة .

كان عمر غنياً جداً فاستغنى عن الخلفاء ومدح النساء . ولم يجد له نداً بين شعراء عصره فيهاجيه فاختص بالغزل . وهل في الدنيا اختصاص اجمل من ان يوكل رجل بالجمال فيتبعه اين وجده ؟ لم ينبغ عمر في الشعر منذ طلع ، ولكنه مرّ في ثلاثة اطوار تتمثل في اقوال زملائه المعاصرين . فرزم عمر فقال جرير اذ سمع قوله : شعر حجازي لو اتخذ في تموز لوجد البرد فيه . ولما دانت له القوافي قال فيه : ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر . ولما شقّ طريقه الى خدورِ النساء ومشى اليها مشية الحباب ، فوصف حديثهن في خلواتهن ، قال الفرزدق : هـذا الذي اراده الشعراء فاخطأوه وبكوا على الطلول .

ظل عمر ينحت ويعمل ، استوحى عاطفته ومحيطه ، وانقاد للهوى فلم يخرج من تلك الدائرة . ومن يستطيع الخروج من دائرة الهوى ، فهو عند علماء النفس : حصر الحياة السيكولوجية في نطاق واحد ، واتجـاه القوى الفاعلة نحو النهاية المشتهاة ، وتكييف كل وجودنا كما يقتضي ميلنا . وهذا ما وجّه عمر في فنه هذا التوجيه . وقف عمر على الاطـلال كما وقف المتقدمون فقال وقصر عنهم :

ألم تسـأل الاطـلال فالمتربعا ببطن حليات دوارس بلقعا

وليس هو اول من وصف لنا حالته عند الحبيبة وما أتى من ضروب الشهامة . . . فقد سبقه الى ذلك امرؤ القيس ، ويكاد يقع الحـافر على الحافر اذ دخل هذا دار نعم وذاك خدر عنيزة . . . ويتشابهان ايضاً في قصيدة ذات البعل الذي يغط غطيط البكر شد خناقه . . . ويتفق ايضاً مع الفرزدق واللتين دّلتاه من ثمـانين قامة . . . ولكنه كان اقرب الى الواقـــع منهـــما ، لانــه اترف واخنث وأشبّ . وفي الغزل الذي جـــاءه من اليمن — كما قالوا — لم يفق عمر سواه ولم يبتدع شيئاً ، فأين

ابداعه اذن ؟

ان ابداع ابي جوان في « ليت هنداً » وفي « هيّج القلبَ » وقصائد اخرى من طرازهما ولكنها دونهما روعةً وفناً . جعل عمر نفسه المحبوب وروى لنا احاديثهن في خلواتهن فأرانا انهن مثلنا من لحم ودم . . . هـذا الذي سبق فيه عمر . كان شعره متصلاً بنفسه كل الاتصال بل هو صورة حياته اليومية ، اخرجها قلم أوتي براعة القصص ففتن الناس . لم يتكلم بلغة امرىء القيس وتلاميذه بل باللغة التي تفهمها المرأة كل الفهم ، وكان شعره غير مهتاج ولا مضطرم ولا متألم لأنه محظوظ يشكو اليسر لا العسر ، ففتح قلبـه نصف فتحة ، لا يترك شعره الغزلي اثراً عميقاً في انفسنا لانه لم يتألمْ ولم يحرم .

لا يعبّر عن خوالج النفس الا الكبت وعمر متنقل من زهرة الى زهرة كالفراشة ، فهو كما يقول المثل عندنا : « شَمّام هوا قطّاف ورد » . مهنته الحب ، وآلاتها الشعر والمال والفراغ متيسرة له : خيول مطهمة ، وخدم وحشم ، وعبيد وجوارٍ ، واصدقـاء يعاونونه على حاجاته ، يبثهم هنا وهنـالك ككلاب الصيد ، وهل يصيد الظباء غير الكلاب كما قال ابن الرومي ؟ . .

كان يجب ان يكون لعمر مكتب استخبـارات وسفارة لا تنقضي شؤونها وشجونها ، فهو دائماً يتصل بهذه وتلك وهاتيك . رسل تروح وتجيء . جنّاد وزير دفاع ، وعتيق ذو الوزارتين ، الخارجية والداخلية ، وعبد الله بن جعفر وزير مواصلات ، وابن سريج والغريض وزيرا الدعوة والنشر . جوارٍ سود وبيض تقضي حاجات رجل لم تشغل باله السياسة ، فمهام دولة الحب تكفيه . اللهم غفرانك .

تستلذ شعر عمر كحكاية حال لا كعاطفة حادة تشاركه فيها ، ففي اشد تحرّقه احس ذلك البرد الذي عناه جرير . ليس هناك حب صحيح ، انما هنالك تمثيل فصول ملذات وشهوات بطلها ابو جوان — كلاه بحفظ ربه المتكبر

— فابو جوان في قصصه ممثل اكثر منه شاعراً محباً محبوباً . لا يغلي ولا يثور بل يمثل مشاهده على حقها ، وهي تكاد تكون واحدة . يتلهى بالمرأة تلهي الطفلة بدميتها ، ويقول في ذلك شعراً فيجيء قصة صغيرة سهلة ذات اهتزازات اشبه بالتي تحدثها قصة غرامية ، او احدى حكايات الف ليلة وليلة . ليس هذا لأن نفس عمر في ذلك الشعر بل لانه يمثل لك مشهداً يوقظ فيك ناراً كامنة . .

ليس في ذاك الديوان ابتسامة ، ولا ما يبتسم له المرء ، بل هناك وصف حالات نفسانية سطحية . كلام بسيط سهل تفهمه النساء ، ويتمنين ان يقال مثله فيهن . لا الوان ولا صور الا تلك الاحوال التي تحدث ، ويأتي الشاعر على وصفها وتكاد تكون هي هي دائماً . شعر مرسل عفو الخاطر ، وهو — احياناً — لولا القافية يشبه الرسائل المنثورة . لا يتورع من ان يفتتحها باسم الاله ويضمّنها معاني من قوله تعالى ، ومن حديث رسوله ، ويحوّلها عن القصد . نفسٌ قصير وعملٌ فيه بعض العناية ، لا ينظر الا لما يقول ولا يهمه كيف أدّاه . يعمل ويصف ما عمل ، ولا حاجة الى كد الخيال واعمال الروية.

لم يمر عمر في ازمة لنرى ما يخرج من رأسه ، فلم يقل الا اشياء سطحية يعرفها اقل الناس اختباراً ، ولكنه اجاد وصف هذه المظاهر اجادة فنية كاملة ، فاذا امكننا تقسيم علم النفس الى داخلي وخارجي كان شاعرنا من وصّافي الخارج ادق وصف ، بذلك الحوار الذي لا يفوته منه شيء . وكأني به يصغي باذني فرس لينقل الحديث كما هو ، ويمعن النظر ليصور الحركات الخارجية :

فقالت ، وعضّت بالبنان ، فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك اعسر

ليس في قصصه عمل فني ، ولكن شخوصها حية تتحرك ، والحوار لا غبار عليه ، اذ ليس هناك لفظة يستحى منها كما سترى .

عمر والمرأة

لسنا نحـــاول درس نفسية المرأة في عهد عمر ، فالمراة في عهد عمر وعهدنا كما كانت في عهد آدم . . . وابو جوان لم يعنه منها الا هذه الناحية. انه مرزوق ، لا يموت من الغم ، كالبحتري ، اذا افلت منه طيف . . .

قال احد مؤرخي عصر عمر : هذا عصر انتهى فيه سمن العرب وفاضت الدنيا عليهم . فلا بدع اذن ان رأينا حبيبات عمر مترفات ، غنيـــات ، شريفات ، قارئات ، كاتبات . لم يعرّفنا عمر على شخوصهن معرفة لا تخلط بين واحدة واخرى ، فكلهن دمى الرهبان ، وعين البقر ، غزالات عليهن ذهب . مسك وعنبر ، ما فيهن تفِلاتٌ ، العطر يفوح من أبرادهن وخيامهن ، كما قال في نعم :

فدلّ عليها القلبَ ريّا عرفتها   لها ، وهوى القلب الذي كاد يظهر

فلا ترى في شعره اذ يصفهن الا العطر والزعفران ، والزبرجد والجمان والمرجان ، والياقوت والقرنفل واليلنجوج ، والرند والكافور والزنجبيل . فطعم كل واحدة كالراح ، وريقها راح ، وسلافة الراح والتفاح ، والعذق الرطيب والعسل :

ولو تفَلت في البحر ، والبحر مالح ،   لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

اما الملامح فعينا جؤذر وجيد ريم ، وحسن كالهلال والدينار في ثيـــاب العصب . كل اسنانهن وانيابهن — لا ادري لماذا انفر من كلمة انياب — مفلّجة

مؤثّرة ، وهي دائماً تشبه البرد والاقحوان ، او كسنا البرق. وهذا الجمال يزينه خز وقزّ ، ووشي ودرحليّ ، وسوار وبريم وخلخال . اما الجلود فطريئة ناعمة :

لو دبّ ذرّ فوق ضاحي جلدها   لأبانَ في آثارهنّ حدور

افلا تظن ان الذرّ يعمل ايضاً في جلدي وجلدك الناعمين مثلما عمل في جلدها ؟ واغرب من هذا كله ان احدى صاحباته تراءت له كالشمس ، اما كيف فاسمع :

هي الشمس تسري على بغلة   وما خلت شمساً بليل تسير

اليست هذه الشمس على البغلة مضحكة جداً ؟ ولا غرو ان تتداعى الافكار عند ذكر البغلة فتحضر الى ذهن عمر صورة البيطار ، فيقول في سمساره ابي عتيق :

ودعاني ما قال فيها عتيق   فهو بالحسن عالم بيطار

ان عمر قرِمٌ دائماً الى اللحم ، انه يريد لحماً كثيراً ، حتى يسأل القضاة ان يجيزوا شهادة العجزاء ، اي التي لها الية كالخروف :

يا قضاة العباد ان عليكم   في تقى ربكم وعدل القضاء
ان تجيزوا او تشهدوا لنساء   وتردوا شهادة لنساء
فانظروا كل ذات بوص رداح   فأجيزوا شهادة العجزاء
وارفضوا الرسح في الشهادة رفضاً   لا تجيزوا شهادة الرسحاء

ثم يكشف صدره وينبش شعره ليدعو على الرسح دعاء ارملة مقطوعة فيسأل الله قصف اعمارهن :

عجّل الله قطّهن وأبقى   كل خود خريدة قبّاء
تعقد المرط فوق دعص من الرمل   عريض قد حفّ بالانقاء

ألا ترى ان لو تجمعت رملية بيروت وكانت كفلاً لاحداهن لوجد فيها عمر اقصى امانيه كقوله :

مرتجــــة الردفين بهكنة رؤد الشباب كأنهـــا قمر
يا بارك الله ! انها تذكرنا بناقة عنترة . . .

بهذه العين ينظر اليهن ابو جوان وينتقيهن كالقصّاب من بين القطيع . واعجب من هذا انه يشبههن باللحاف .

ويرى عمر الحسن مخلوطاً بالطيب فلا يصبر عنه ، وكيف يصطبر من ينصح فتيين في المسجد تلك النصيحة الثمينة ؟ . . اما الخلق الكريم فما ذكره عمر الا مرة ، واظنه اضطر اليه فقال :

سيفانة أوتيت من حسن صورتها عقلا وخلقاً كريماً كاملا عجبا

بل هو بالعكس يصفهن بما يسفلهن فيجعلهن كريمات حتى على ابن السبيل :

غريب أتى ربعنـــا زائراً واكرهُ رجعته خائبـــا

اما صلاته بهن فأشبه بصلات كل محترفي هـــذه الحرفة . يترصد هنا وهناك ترصد الهر للعصافير . كان موسم الحج لعمر كالاعياد عندنا اليوم ، وكما يفعل كثير من شباننا كان يفعـل ، وكما يلقون في آذان المارات كان يلقي ، فمن شاء ان يتخيل صورة عمر كاملة فليتأمل احد هؤلاء عند ابواب المعابد والمنتديات ساعة الانصراف . كان عمر فويسقـــاً عياراً فاسداً مفسداً :

قالت لترب لهـــا ملاطفة لنفسدنّ الطـــواف في عمر

فالحج عند ابي جوان معرض جمال ينهال فيه عليه الرزق فيرزح تحت اعباء الواجبات المتراكمة . . . وهو ملحف ملحاح ، ووسائل الاغراء عنده كثيرة ، فكثيراً ما كان يتوسل اليهن بالعمومة والخؤولة ووحدة الخال . ولا يتورع عن ان يتخذ من الدين اسباباً يمدها بينه وبين حبيباته ، فيقول: لا يحل لك قتل مسلم ، وهلم جراً . وبهمة ونشاط تلك « المنظمة » التي كانت حواليه ، قلما افلتت منه حمـامة . . . ولا تنس الغناء . كان عمر

يجعل مجالسه على مفرق الطرق والمعابر ، ومغنيه ابن سريج والغريض ، وكثيراً ما كان يوفدهما ليغنيا بشعره عند من تعصى عليه فتلين وتحن . . .

ان امثال عمر كثيرون في الحياة ، فصاحب مدام بوفاري انتظر (الكوميس) Comices فاصطادها . اما نساء ذلك العصر فما فاتهن ان ابا جوان شركة مساهمة كما يتضح من قوله :

هذا الذي منح النساء فؤاده فشركنه في حبّه والأعظم

وهو مشهور عندهن بالخداع ، وقد اعترف بذلك بلسان احداهن :

غرّ غيري فقد عرفت لغيري عهدك الخائن القليل الثبات

كما يقول في مكان آخر : ما سمّي القلب الا من تقلّبه . . .

وابو جوان يملأ شعره بالأيمان المغلظة ، والقسم من مظاهر الأدب العربي عموماً ، ولا سيما القديم منه ، بل من مظاهر حديثنا ، ولذلك اجاز النحاة الفصل بالقسم في كل موضع حتى بين قد والفعل الماضي . اما الميزة العجائزية التي اراها في شعر عمر فهي انه يدعو مثلهن ، ويحب مثلهن عدد الرمل والتراب والنجوم والحصى وورق الشجر ، ومن يكن كذلك فلا بد من ان يقتحم البيوت ويغامر ولكن ليس في شرف مروم . . .

بالله ربِّ محمد خبّرنني حقاً اما تعجبن من هذا الفتى

الداخل البيت الشديدحجابه من غير ميعاد اما يخشى الردى

وهو تبّع الى اقصى حد حتى قالت فيه احداهن :

خذنْ عني الظل لا يتبعني ومضت تسعى الى قبّتها

ولعمر تائية تدل على هذا الخلق الكريم اذكر لك منها شيئاً اعجبني ، وفيه الدليل الاعظم على انه كذاب لا عهد له :

من كلام تهذّه وبحلف فلعمري فربما قد حلفتا

ثم لم توفِ اذ حلفت بعهد بئس ذو موضع الامانة انتا

قلت مهلا عفواً جميلا فقالت   لا وعيشي ولو رأيتك متّا

ويعبّر عن هذا الغدر في موضع آخر حيث يقول :

ثم قـالت لأختها ولأخرى   جزعاً ليتـه تزوج عشرا

كان عمر بلاء على الحواجّ وعلى اهلهن ، وقـــد اعيا العمّال والخلفاء وذوي النساء كما حدثونا عن عبد الملك وابي الاسود ، ولكن النساء كن راغبات فيه ، وله معهن قصص تشبه حكايات الف ليلة وليلة . كن يردن شعره ويطلبنه حتى ان احداهن سألت عمن يخلفه حين بلغهـا خبر موته . ما شبهت عمر مع النساء الا بولد مدلل يظل يطلب اصناف الاكل ، تارة بالتمرد ، وطوراً بالملاطفة والمداهنـة ، وحيناً بالشكوى فيزعج اهل البيت فيرضى بالتافه ستراً على اهله .

ان الحياة البوهيمية التي عاشها ابو جوان قـــد استحال معها الهوى عادة ، وكان الخير فاضلاً عنه ، فهو لاحق بهـذه الى العراق ، وبتلك الى الشام . يصور لنا حيلهن لتصّيده ، فتلك تنصح له ان يأتي على بغلة لا على بعير يسدّ الفضاء :

فان جئت فأتِ على بغلة   فليس يواتي الخفاء البعير

ولا على مهر ايضاً فالمهر يفضح :

وليـأت ان جاء على بغلة   اني اخاف المهر ان يصهلا

اخبرتك ان ابا جوان كان عند احداهن ثقيل الظل ، اما عند الثريا فهو يجعل نفسه كيوسف من امرأة العزيز :

فالتقينا ، فرحبت ، ثم قالت :   عمرك الله ، ائتنا في المقيل

في خلاء كيما يرينـك عندي   فيصدقني ، فـداك قبيلي

لم يرعهن عند ذاك وقد جئـــت لميعـــادهن الا دخولي

قلن هذا الذي نلومك فيه   لا تحجّي من قولنا بفتيل

فصليه فلست فيه « تلامي » فهو اهل الصفاء والتنويل

هذا عمر والمرأة ، فلننتقل الى شعره الذي كاد يكون وقفاً عليها ، كما قال لابن عمه عبد الملك : انا لا امدح الا النساء .

شعر عمر وشاعريته

لقد شبع شعراؤنا تقديساً فلنشبعهم نقداً .

اذا صنفنا الشعراء كالنبات — على مذهب برينتيير — وجدنا ابا جوان وابا حزرة من صنف واحد . كلا الشعرين من النوع الخفيف ، وبينهما فنّياً اقرب النسب ، ولا فرق بين الشاعرين الا في الاستيحاء فقط . فعمر يستوحي الجمال والحب ويقول فيه احسن ما عنده ، وجرير يستوحي البغض والقبح والمعايب فيأتي بالبدع . ان عمر حبيب قلب الشباب ومعامهم ، غنّى الجمال غناء حلواً عذباً اذ استشعر الحسن . قد كان في الامكان ابدع مما كان ، ولكن عمر لم يحس الا الظواهر فكان تأثيره عابراً وليس فيه عمق . اتكأ على القدماء في معظم صوره ، وشن الغارة على اكثرهم فأخذ صوراً وتعابير من امرىء القيس والاعشى والاخطل وعنترة فأدخلها في شعره ، حيث دعت الحاجة اليها ، فكادت تكون من نوع النسخ .

نخرج مع عمر من قيود القدماء قليلاً ، فهو لا يحطمها كل التحطيم ولا يغل نفسه بها غلاً . هو صوت جديد نسمعه فنصغي اليه مرغمين لأنه لا يحدثنا الا عن الحب — حديث الابد — لا تشم في شعره رائحة القطران والقار ، فناقته لا تحضر مجالسنا ، يتركها في العراء ، لطارق ليل او لمن جاء معور . كان عمر أقرأ شعراء زمانه للقرآن الكريم وادراهم بالحديث الشريف فتأثر بذلك . لا نعني اللهجة الخاصة فهذه مكتسبة من المحيط ،

ولا الاسلوب فهو حجازي مكي قرشي ، ولكننـــا نعني ان في شعره عبارات بعينها اخذت من الكتاب العزيز . فأبو جوان عارف لدينه يستثمره - كما قلنا - حين يضطر ، وقد يتفقه « لهن » اذا اقتضى الصيد فقهاً . . .

ولا غرو ان كان فصيحاً لسنـــاً فهو احد ابناء العصر الذي وصفه الجاحظ بقوله : كان اغلب الامور عليهم ، واحسنهـــا عندهم ، واجلّها في صدورهم ، حسن البيان ونظم ضروب الكلام مع علمهم له وانفرادهم به . ان ابا جوان رابع ثلاثة شعراء افسدهم اليتم : طرفـــة والاخطل وابي نواس ، فسار كل منهم في الطريق التي وجهه اليها طبعه ومحيطه . كان الغزل محبوباً في الحجاز ومن طبيعة اهله ، فانفرد بـــه عمر واختص ، ومن احرى بذلك من عمر :

ان الشباب والفراغ والجده مفسـدة للمرء ايّ مفسده

كل هذا طوع يد عمر فصـــار الحب والشعر مهنته وعمله . تفرّد الحجازيون في عهد بني امية باللهو وأورثوه العباسيين فاستحال معهم مجوناً وعبثـــاً وتهتكاً ، كانت له مدرسة بشار فأنمى تلك المدرسة الاباحية التي اخرجت ابا نواس وغيره من النبهاء ، فكلهم يمتّون بنسب فنّي الى جدهم الأعلى امرىء القيس .

ليس لعمر حساسية بشـــار الفنية ، ولا نفس ابي نواس المرحة ، ولا موسيقى جرير . هو وسط الخيال ، وسط الحســـاسية ، منفرد في سهولة الشعر ، لا يحسن الا بث شكواه وتحرقه احياناً . كل ديوانه تكرار ممل للحوادث والتعابير يكاد ، لولا القليل ، ان يكون موضوعه واحداً . لم يصف تلك المجالس ولا ما كان في الحجاز على عهـده ، ولم يذكر العقيق الا كما ذكره جرير . فهو في الشعراء من اصحاب « الفكرة الثابتة » ان جاز لي هذا التعبير . لا يعنيه الا جسد المرأة . افتخر مرة ، وما هجا قط

رثى قتلى صفين بأبيات بليدة ، ورثى امرأة جميلة قتلها مصعب ، بثلاثة بيوت ، وهي لو كانت حية لتبعها الى حجرها . فاذا كان لسجع الحمام شبيه فهو شعر عمر . وليس عمر مفكراً فيعنيه ما وراء القبر ، وان ذكر ذلك مرة فليقول :

وليت سليمى في الممات ضجيعتي هنالك ام في جنة ام جهنم

وليس متفنناً فيبالي بالصور ، بل يهمه ان تفهم عنه من يوجه اليها رسالة شعرية ، وان تعجب تلك الرسالة غيرها من النساء فتتمنى مثلها وان طلبت احداهن شعراً قرزم لها . كان عمر فبركة شعر مثل فبارك اميركا في اخراج المنتوج الحربي . واكثر هذا الشعر يصدره المعمل كيفما اتفق له : قصص ووصف حيل ، وصف سهرات حتى الصبح ، والصبح ، دائماً ، مفتوق اشقر . كأن صبح الجزيرة لا يتغير كصبح لبنان . مواعيد فملتقى وكلها على نمط واحد . ناشد ينشد ، او عمر يتلصص ليهجم ، رسائل ومعاتبات ، والعتاب صابون القلوب . لا يحسن دعابة ولا هزلاً ، ولا يذكر بعد الاجتماع الا ما ذاق وشم . . . يستغفر الله على الشبع ، ويوصي بالكظة بخلاف ابي عبد الرحمن . كليّ الفلسفة يحس ما يراه : والشوق يحدثه للعاشق النظر ، كما يقول . لا يفكر الا بعينيه ولسانه . حساسية تقليدية فاذا حضرت الحبيبة قال لها : بل قادني الشوق والهوى . لا يتعدى في شعره العامّ منطقة الاقليم المعتدل . لم يبدع في الغزل بل في وصف الواقع . بذ الشعراء اجمعين في بضع قصائد قصصية ، ومن هذه الروائع اتته الشهرة التي استحقها .

يكرر عمر ليقرر ويثبت ، فكأنه درس علم الايحاء على فرويد . يقول : رب لا صبر لي على هجر هند . رب ، رب ، رب ، كأنه من رجال حلقات الذكر . رأيت عمر يتضاءل امام هذه « الهند » بينا هو يرى نفسه عند

غيرها فوق الجميع كما يقول :

ما وافق النفس من شيء تسرّ به   واعجب العين الا فوقه عمر

كان عمر من المبتهرين ومثله كثير بيننا . ففي كل عصر أناس كثيرون يقولون كما قال ، ويكونون قد استقبلوا بالنعال .

يكثر عمر من الجمل الدعائية بلسانهن فتخالهن ذائبات . قد ألهت عمر المرأة عن فنه فهو لو فكر اكثر ، كما كان يفعل بشار ، لجاء بما هو اعجب . ولكنه قليل الصبر اذا أدّى الفكرة نظماً عدّ ما قاله شعراً . لا يتسع المجال فادلك على الكثير ، ولكن واحدة تريك تلك الخصلة فيه :

يا ربة البغلة الشهباء هل « لكم »   ان ترحمي عمراً لا ترهقي حرجا

فكيف رأيت « لكم » في هذا الموضع ؟ ان اخواتها كثيرات في ديوانه . فما اكثر ما انس لا انس ، وبينا ، وبينما ، وملأشياء واضرابها مثل : ملحب ، وملكاشحين ، ملسماحة حتى ملغميم . . . وما اكثر التليين الكريه كقوله : او تدابان حقبة مثل دابي ، ومثل : عند قراتك القرانا ، او مثل : اقول لواش سالني وهو شامت .

ويدهشني قول ابي عمرو ابن العلاء : ان عمر حجة في اللغة العربية ، وما تعلق عليه الا بحرف واحد وهو قوله :

ثم قالوا تحبها قلت بهراً   عدد الرمل والحصى والتراب

وكان ينبغي ان يقول : أتحبها ، لأنه استفهام . وله وجه ان كان اراد الخبر ولم يرد الاستفهام .

قلت واي وجه يجده لنا ابو عمرو في قول صاحبه عمر : فهلا تسالي افناء سعد . وكقوله : ما انس لا انسى غداة لقيتها . وكقوله : من ذا يلومني ان بكيت صبابة . وقوله : من طيب نشر التي نامتك اذ طرقت . وقوله : اذا انا لم القاكم سوف ادمر . وقوله : وفيم بلا ذنب اتيتيه اهجر .

وقوله : رأين الغواني الشيب لاح بعارضي . وقوله :

مـا احسن الود والصفاء وما اقبح منهـا الهجران والعدر

بضم العذر والهجران ، والقـافية مبنية على النصب . وكقوله : آه بل ليتني بخدك خالا . وقوله : لكلفتني قلبي اتابعك انني . وقوله :

رجعنا ولم ينشر علينا حديثنا عدو ولم تنطق بـه شفتانُ

بضم المثنى ، لان قصيدته مضمومة . وكقوله : فصليه فلست فيه تلامي .

والى جانب هذا الاهمال مصنوعات فنية رائعة جاء بها فدلت على ان هناك شاعرية لم يتعهدها صاحبها . ولا عجب فالهوى يحتل ساحـة الشعور ويطرد منها كل شيء ، ويبقى وحده . ومع هذا تجد لعمر تعابير فنيـة جميلة جداً ادركها المتقدمون وافاض في سردها صاحب الاغاني . وفي هذا الشعر المدني تلمح شيئاً من البداوة كقوله :

فلما توافقنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

لا نطالب الحجاج بقوله لاهل الشام : انتم العدة والحذاء ، ولكننـا ننعى على عمر قوله : حذوك النعل بالنعل ، وهو من عرفنا .

ولا يغفل عمر عن بعض الخرافات ايضاً فيذكرها مثل : خدر الرجل ، واختلاج العين ، ونحن ما زلنا في هذا العصر نجرّ خلفنا امثال هذه ونقطر الى القافلة ابعرة جديدة .

لا يلين شعر عمر ويواتيه الكلام الا عندما يحسّ حقاً كقوله ، ومـا كان اقدره على الاستوضاء :

اليس كثيراً ان نكون ببلدة كلانا بهـا ثاوٍ ولا نتكلم

بمثل هذا ، وبمثل هذين البيتين فتن عمر العقول :

أومت بعينيهـا من الهودج لولاك في ذا العام لم احجج

انت الى مكة اخرجتني ولو تركت الحج لم اخرج

البيتان جميلان ويصيران اجمل منها متى ارسلها ابن سريج والغريض في البطحاء . فقد كانا من شعر عمر كما كان عبد الوهاب من شعر شوقي . اما نحن الآن فبعيـدون عن الطلسم الغريضي والسريجي نرى الشعر كما هو ، وكما يوحي الينا . ان عمر لم يتفوق فنياً الا في قصصه ، وفي اربع قصائد لا غير . ولأجلها قال الفرزدق : هذا الذي اراده الشعراء فأخطأوه وبكوا على الاطلال .

وسننظر في ثلاث منهن خاتمين كلامنا عن ابي جوان الذي شغل رجال عصره حتى العلماء . انه ليستحق . جلّ من لا عيب فيه وعلا .

خوالد عمر

ان اسلوب عمر ببسيط وحلاوته في بساطته تلك ، فالنثر العربي يكنّي عن الهيفاء بقوله : غرثى الوشاح ، فيقول عمر شعراً :

انها كالمهاة مشبعة الخلخال صفر الحشا تجيع الوشاحا

وقد دنا عمر من لغة دهره في قصصه كل الدنو فأجاد الحوار اجادة قصر عنها شعراؤنا جميعاً . لم يدنُ منه الا ابو نواس في وصف مجالس الخمرة والندامى .

ان قصص ابي جوان كثيرة ، بل في اكثر شعره قصص : في الطواف قصص ، وفي الحج قصص ، وفي المضارب والخيام قصص ، وفي الغرف وفي الجبّانات قصص قذرة . . . الرجل اباحي تيّاه ، معجب بنفسه ، لا سر عنده ، تارة يبوح به ابتياراً وطوراً ابتهاراً . اذا درسنا كل قصيدة فيها حكاية حال ابتذل كلامنا ، كما ابتذل شعر عمر لهذا السبب . فخير قصائده القصصية ثلاث : أمن آل نعم ، وهيّج القلب ، وليت هنداً . وتدنو منها قصيدتان اخريان هما على الراء ايضاً ، ولكنهما ليستا من الشعر في السطح كما عبّر الجاحظ عن مقام معاوية من قريش .

ليس لشخوص خالدات عمر علامة فارقة ، فبطلاته ، في نظر الفنان ، نساء ليس غير . فنعم وهند والثريا وزينب وكلثم وفلانة وفلانة كلهن مثال واحد . كأنهن عمل فبركة لا صنع يد . فلست تميز احداهن من

الأخرى . كلهن بياض واحمرار ، وشحم ولحم ، وحسن وجمال . . . اما كيف اتصورهن فهكذا : لو جمعن في مجلس استطيع ان اضع الاسم الذي اشاء على كل واحدة منهن ولا حرج عليّ .

قد قرأت ديوان عمر الجامع بيتاً بيتاً . اقول « الجامع » لأنني وجدت اسمي فيه حيث يقول :

سحرتني الزرقاء من مارون   انما السحر عند زرق العيون

فهل من يدريني ما هذه او هذا المارون وله الأجر ؟ قرأته كله فما وجدت علامة فارقة الا مرة واحدة حيث قال :

ربعة أو فويق ذاك قليلًا   ونؤوم الضحى وحقّ كسول

فهذه الشخوص مجهولة ، كما ترى ، ناهيك ان القصص كلها على نمط واحد : اذكر الذيب وهيء القضيب :

بينما يذكرنني أبصرنني   دون قيد الميل يعدو بي الأغرّ
بينا كذلك اذ عجاجة موكب   رفعوا ذميل العيس بالصحراء
قالت لجارتها انظري ، فمن الألى   وتأملي مَنْ راكب الوجناء
قالت ابو الخطّاب اعرف زيّه   ولباسه لا شك غير خفاء

ويغلب التثليث على بطلاته ، فبطلات « أمن آل نعم » ثلاث وبطلات « هيّج القلب » ثلاث . وهكذا دواليك . فهل قال هذه القصائد في موضوع واحد ؟ لم يصف عمر في شعره الا اللون الأزلي ، فهذه المهازل بل المآسي التي يمثلها تصلح لكل مكان وكل زمان ، فشعره المقول في هند ونعم وغيرهما يصح قوله في كل انثى ، فعبثاً نفتش فيه عن اللون المحلي . فليلة ذي دوران اشبه بمسرح متنقل ينصب حيث تشاء وتمثل عليه كل رواية . لا زينة مختصة بكل مشهد ، فكأنه ذلك المسرح الذي حطّمه دون كيشوت . بلى عمل عمر اطاراً واحداً لقصة واحدة وهي :

هيّج القلب مغان ٍ وصِيَر ... دارسات قد علاهن الشجر

ففي هذا البيت اصاب عمر عصفورين بحجر واحد . بكى على الطلول كالقدماء وذكر لنا العمران العربي الحديث ، وسأل المنزل هل فيه خبر ، ولكنه سؤال يعقبه الفرج لا يأس الجاهلية ، ناهيك ان اطلال عمر ليس فيها آرام وبعر وأثافي بل استحالت « فيلاّ » كما نعبّر اليوم . ثم يتجاوز عمر هذا النطاق الضيق فيوضح المكان والزمان بعض الشيء فيقول :

اذ تمشّين بجوّ ٍ مونق ... نيّر النبت تغشّاه الزهر

بدمات سهلة زيّنهـــا ... يوم غيم لم يخالطه قتر

ثم يفلت الخيط الفني لينتقل الى بطلات قصته فلا تعرف الا انهن من الجنس اللطيف الناعم المدلل ، يتمشين في ذلك الجو الذي هيأه لهن ، حرصاً على وجوههن من الحر ، وعلى اقدامهن من الكلالة . وما اكتفى عمر بالوصف الخارجي الذي اعده لتحريك النفس فقال يصف بعض ما انطوت عليه نفوسهن :

قد خلونا فتمنّين بنا ... اذ خلونا اليوم نبدي ما نسرّ

فعرفن الشوق في مقلتهـــا ... وحباب الشوق يبديه النظر

قلن يسترضينها : منيتنـــا ... لو اتانا اليوم في سرّ ٍ عمـــر

تلك هي الخطة الشعرية التي ابتدعها ابو جوان وسبق اليها ، فلم يعالجها احد قبله ، ولا بعده . ثم ينتقـــل الى شيء يؤيده علم النفس الحديث والواقع فيقول :

بينـــما يذكرنني ابصرنني ... دون قيد الميل يعدو بي الأغر

قالت الكبرى أتعرفن الفـــتى ... قالت الوسطى نعم هذا عمـــر

قالت الصغرى وقد تيّمتهـــا ... قد عرفناه وهل يخفى القمـــر

لا شك انك قد لاحظت مثلي من اختصّ عمر بحبـــه . ولا بد من

« وهل يخفى القمر » ، فعمر تارة هو المشهر ، وحيناً ميسور امره اعسر ، كما تقرأ في « أمن آل نعم » . فهو يعلم انه جرس على بغل .

وهناك صغرى ثانية هي احدى الخالدات لا تقلّ فنّاً عن هذه ومطلعها طائر الصيت :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد   وشفت انفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة   انما العاجز من لا يستبد

يقول البعض ان هذين البيتين قتلا البرامكة ، واقول انهما قتلا محصنات كثيرات ، وعمر يستأهل على قصائده هذه جلد القاذف الحرة . ولكن ما لنا ولهذا فما يعنينا الا فن عمر . ففي هذه القصيدة يدخل عمر قدس اقداس المرأة فيسمعنا حديثها مع ضراتها اذ تقول لهن ، حين تعرّت تبترد :

اكما ينعتني تبصرنني ،   عمركن الله ، ام لا يتئد
أمّا هنّ : فتضاحكن وقد قلن لها   حسن في كل عين من تود
حسد حمّلنه من اجلها   وقديماً كان في الناس الحسد

ان كل حرف من هذا البيت يقطر حسداً امرّ من الحنظل الذي نقفه امرؤ القيس . فهذا التضاحك ، وهذا القول المر ، المبطن : حسن في كل عين من تودّ ، يصور لنا الحسد فاضلاً عن الكمال . بيد ان صاحبنا يسفّ حين يصف أشنب هند ، وعينيها وجيدها ، وبرودتها وسخونتها . . . ثم لا يلبث الفن ان يستيقظ فيسألها : من انت ؟ فتجيب :

نحن اهل الخيف من آل منى   ما لمقتول قتلناه قود
قلت اهلاً انتم بغيتنا   فتسمّينَ ، فقالت : انا هند

فاجابها السيد عمر جواب استاذ في هذا الفن :

انما اهلك جيران لنا   انما نحن وهم شيء أحد

ارأيت هذا الحديث الطلق ، وكيف تلقى الشباك بجنة دونهـــا خفة ادهش المشعوذين ؟ ولكن سلّة عمر عادت فارغة كما انبأنا في ختام القصيدة – وهو اروع ختام عمله لأنه لم يحسن ختاماً قط – فهذه الآدمية خيّبته بظرف وكياسة وهزء ، ولم تقع في فخه ، واليك البيت :

كلما قلت متى ميعــــادنا ضحكت هند وقالت بعد غد

الا تذكر تهكمنا اذ نقول « بعد بكره » ؟ انها هي .

قد رأيت ان شعر عمر مادي خفيف ، وأشدّ قصائده أسراً هي « امن آل نعم » ، وهي التي احلّته اسمى مقام في الشعر العربي حتى حفظها ابن عباس التقي الزميت . فماذا احدثك عنها وسياق قصص عمر واحد وشخوصه هن هن ؟ اراد عمر في هذه القصيدة ان يقول كل شيء فاضطرب حبـــل الفن . وصف حبّه لنعم ، وما يعترضه من عقبات ، وذكر الجهـاد الذي غيّر لونه ، فامسى قليلًا على ظهر المطية ظله ، ثم تخلص الى القصة التي ابتدأت في موضع اسمه ذو دوران . لا نعرف الا انه « ذو دوران » ، وان عمر يتلصص هناك يراقب الناس ، ويفكر اين خباء نعم . فهو نهب مقسم . يفكر بالخروج بعد الدخول ، وماذا يعمل بناقته ، واخيراً سقط القمر فانساب كالثعبان وابتدأت المعركة :

فحيّيت اذ فاجأتهـا فتولّهت وكادت بمخفوض التحية تجهر

وقالت وعضّت بالبنان فضحتني وانت امرؤ ميسور امرك اعسر

ارأيت ما ابرع هذا الوصف وما اسرعه ؟ فأبو جوان لا يقصر – في محاورة النساء فقط – عن لافونتين . واحب ان تقـدّر معي هذا الوصف الموفق اذ جعل نعم تسأل بدهاء ولباقة عجيبين :

فوالله ما أدري أتعجيل حاجة سرت بك ام قد نام من كنت تحذر

فاجابها اللعين وهو داهية العاشقين :

فقلت لها بل قادني الشوق والهوى   اليك ، وما عين من الناس تنظر

فاطمأنت وارتاح بالها فجأرت بالدعاء الذي يبذره عمر بسخاء كلما تحدث عن مقامه عندهن . . . ثم عقب ذلك الدعاء سلام واطمئنان حتى مطلع الفجر . . .

فلما رأت من قـــد تنبّه منهم   وأيقاظهم قالت اشر كيف تأمر

وكانت حيرة عقبتها بطولة دونكيشوتية :

فقلت اباديهم فامـــا افوتهم   واما ينال السيف ثأراً فيثأر

واخيراً انجلت الغمرة وكان مؤتمر ثلاثي اسفر عن استحالة عمر امرأة تمشي بين ثلاث ، بعدما شاء ان يكون مكرهاً لا بطلاً .

ولما اجزنا ساحة الحي قلن لي   اما تستحي او ترعوي او تفكر

وفي الختام كان هذا الدرس الخبيث :

اذا جئت فامنح طرف عينك غيرنا   لكي يحسبوا ان الهوى حيث تنظر

اما ما يجيء بعد هذا البيت فثرثرة . غفر الله لعمر كل زلة فنيـــة من اجل خالداته هذه ، فقد جعلته في الذروة حتى الساعة .

وهناك اخت رابعة للخالدات الثلاث قلما ذكروهـــا بخير ، هي على الراء ايضاً ، ومطلعها : قل للمليحة قد ابلتني الذكر .

عرف عمر هذه الفتاة بالمروتين ، وسمعها تقول لفتاة :

أرائـــح ممسياً ام باكر عمر

الله جار له امّا اقـــام بنا   وفي الرحيل اذا مـــا ضمه السفر

لقد هزّت هذه الكلمات قلب عمر ، فانتظر الليل وجـــاء راجلاً كما يعترف :

فجئت امشي ولم يغفـ الألى سمروا   وصاحبي هنـــدوانيّ بـــه أثر

فلم يرعها وقد نضّت مجاسدها   الا سواد وراء البيت يستتر

فلطّمت وجهها واستنبهت معها بيضاء آنسة من شأنها الخفر
ما باله حين يأتي ، اخت ، منزلنا وقد رأى كثرة الاعداء اذ حضروا
لشقوة من شقائي ، اخت ، غفلتنا وشؤم جدّي ، وحينٌ ساقه القدر
قالت اردتَ بذا عمداً فضيحتنا وصرم حبلي وتحقيق الذي ذكروا
هلاّ دسست رسولا منك يعلمني ولم تعجّل الى ان يسقط القمر
فقلت داعٍ دعا قلبي فأرّقه ولا يتابعني فيكم فينزجر

وهنا يفيض عتيق الخمر والشهد والمسك الخالص والعنبر والكافور والقرنفل ، ويظل عمر سادراً حتى يقال : قوما بعيشكما قد نوّر السحر . . .

وبعد ، فلا تظنن ، ايها القارىء العزيز ، ان عمر لم يسلك الجادة التي عبّدها الزعيم امرؤ القيس ، فقد وقف في قصائد على الديار فقال كما قالوا:

قف بالديار عفا من اهلها الأثر عّفى معالمها الارواح والمطر
بالعرصتين فمجرى السيل بينهما الى القرين الى ما دونه البسر
منازل الحي اقوت بعد ساكنها امست ترود بها الغزلان والبقر

وهو هنا لا يتعفف عن السرقة الشعرية فيقول :

وقفت فيها طويلًا كي اسائلها والدار ليس لها علم ولا خبر

ثم يصف صاحبة تلك الدار فيغير على القدماء اذ يقول :

هيفاء لفّاء مصقول عوارضها تكاد من ثقل الارداف تنبتر

ويقول ايضاً :

لمن دمن بخيف منى قفور كأن عراص مغناها الزبور

وفي شعره من هذا غير هذا ، فارجع الى ديوانه كاملًا اذا شئت . والى الاغاني ايضاً اذا شئت معرفة رأي القدماء فيه ، اما انا فحسبي ما قلت

العبّاسيّون

عصر الترف

العصر العباسي عصر ترف ، فالحب ظل حباً وزاد . ملأت الجواري اسواق بغداد فكانت تباع بالمزاد . وهذا الرشيد يردّ جارية على الموصلي ، بعد ان جرّبها ، ويقول له : هذه ليست من بابتنا .

والى جانب الجواري غلمان وولدان ومن يستطع فليقتنِ ما شاء .

اما الشرب فاحتالوا له مجتهدين ، ففرّقوا بين الخمر والنبيذ ، وبين بنت النخل وابنة العنب ، وبين المطبوخة على النار والمعمولة في الشمس ، وكان بين الايمة خلاف فقال في هذا ابن الرومي :

أحلّ العراقيّ النبيذ وشربه وقال الحرامان المدامة والسكر
وقال الحجازيّ الشرابان واحد فحلّت لنا بين اختلافهما الخمر

قصور ودور وحانات وخمارات لم يرها العرب في باديتهم فتأثروا بها ، وكان لها في شعر الموالي ، ورثة هذه المدنيات ، اثر بيّن ، فتطوّر الشعر بمقدار . كان منه لونان : لون حضري ولون بدوي ، فالحضري من عمل الموالي ، اما البدويّ فيقوله الوافدون على الخلفاء فينفق عندهم .

والغناء بعد ان كان رجزاً وحداء اصبح فارسياً موقّعاً ، وأقبل عليه حتى ابناء ملوك العرب ، اما الحرب فظلت حرباً ولكنها سمّيت جهاداً ، وهكذا في كل زمان تتغير الاسماء وتبقى الجواهر .

اما العلوم والآداب فازدهرت في هذا العصر ، كان المنصور ممعوداً

فتُرجمتْ له كتب الطب ، وكان الرشيد اديباً شاعراً فكثر الشعر في زمانه واعتز الشعراء . وكان المأمون ابن فارسية فكثرت الفلسفة في زمانه ، وانتشرت حرية الفكر ، فقال دعبل الخزاعي فيه وفي خلفاء بني العباس هجاء لو قيل في احد السوقة لما صبر ، ومع ذلك سلم دعبل وظل حاملًا خشبته اربعين سنة ولم يجد من يصلبه عليها كما قال .

فتح عصر المأمون للعرب باب التفكير الحر فورثت بغداد اثينا . لقد فاز العرب في اللغة والدين ولكنهم تقهقروا في السياسة ، وآفة ذلك تلك العناصر الاجنبية التي صهرها الاسلام ليجعل منها امة واحدة ولكنها لم تتحد وظل السوس كامناً في الجذع ، فما انفك ينخره حتى هوى .

لم يكن يجسر شاعر او غير شاعر من الموالي ، في العصر الاموي ، ان يتطاول الى مقام عربي ، او ان يحلم بالمساواة ، اما في هذا العصر فيرتفع صوت بشّار وابي نواس هازئين بالعرب ، وبكل ما عند العرب الا الدين ، وما ردهما عن الدين الا خوفهما على رأسيهما

وقصارى الكلام كان العصر الاموي عصر عصبية عربية وشعر ، وجاء العصر العباسي فكان عصر فلسفة وعلم وجَوارٍ ، وشعر وخمر . هو العصر الذي خلق شهرزاد واخوان الصفاء . واذا شئنا كلمة شاملة قلنا الامويّون جمّعوا ، والعباسيون بدّدوا .

بشار زعيم الخلعاء

فانك ماءُ الورد ان ذهب الورد . ما اصدق هذا القول على الأدب ، فالأدب خلاصة عقل الأمة يدلّ الأواخر على السبل التي اختطتها اوائلهم ، وما مروا به من شعاب . يبدو الهرم ويستولي الفناء على آثار الأمة وبقاياها ما خلا الاصيل من ادبها فهو لا تفارقه نضارة الشباب لأنه ابن الحياة الحي .

ان هذه الثورات التي تضطرم في كل حقبة لدليل على ان الأدب كائن حي ، فهو ابداً في تفاعل كعناصر الحياة الأخرى . اذا واءمته الأنواء برعمت غصونه الهاجعة وازهرت واثمرت ما يموت وما يعيش ، سنّة الحياة الخالدة التي تحارب أبناءها فلا يثبت في جبهة النضال الا الأشدّ الاشد .

يتأثر الأدب بالحياة لأنه وليدها ، ويصعب الاختراع فيه لأنه صورة عنها وهي لا تتغير الا بمقدار ، ولهذا تقلّ الاكتشافات فيه ، ويظل قديمه متصلاً بحديثه ، يتمشى تمشّي السلالات والانواع ، وينمو نمواً حسابياً لا هندسياً . فالأديب الحق هو المصور الحاذق تلتقط ريشته المشاهد الرائعة فتمسي في محبس الفن لتتمتع بجمالها الحواس دائماً وأبداً . فانك ماء الورد ان ذهب الورد.

مضى ذكر الملوك بكل عصر   وذكر السوقة العلماء باق

هكذا قال شاعرنا ، وان آثرنا الصدق ولم نذهب مع الشعراء في

كل واد قلنا : اخلد الملوك وأسيرهم ذكراً من نفقت عنده بضاعة الأدب . وليست الدول العظمى احرص على ذكر ملوكها منها على ذكر ادبائها ، فهم سجل مجدها الباقي ومؤثلو ملكها ، فحيث تلقى بذور آداب امة ينبت النفوذ والسيطرة ، فما تأثر بعض الأمم ببعضها تجارياً وصناعياً بأقل منه عقلياً ، ففي الحياة مجار خفية كالمناجاة لا يلتقطها الا ذهن الأديب لأنه اشد احساساً من زجاجة المصور الشمسي .

تقع الثورة في الأدب فتظنها طوفاناً عرمرماً وتحسب ان الساعة قد دنت ، حتى اذا لفظت العاصفة آخر انفاسها وطلعت الشمس ضاحكة بدا لك غير ما كنت تتوهم أنه كائن . فهذا الثبات يدلك على خلود الأدب فلا تأخذ منه الثورات الا كما تأخذ السيول من الجبال الصلعاء . فالأدب الرفيع ، وهو نزر جداً ، هو آخر صفحة تمحوها العوادي من تواريخ الأمم والشعوب . وهي أشدّ آثارها الأخرى صبراً عليها .

قد يقول القارىء : هنيئاً له ما افضى باله ، يحدثنا عن الادب وثوراته في هذه المعامع . الدنيا قائمة قاعدة وهو غارق في هذره وسخفه . فليحدثنا عن المفاجآت الحربية ، عن الخبز والملح ، عن الرزّ والسكر . . .

اما الجواب فهو اني لا اصلح لهذه ولا لتلك ولا يعنيني غير الثورات الادبية ، فاصحابها هم الذين وضعوا المثل العليا التي تناضل عنها الدنيا قاطبة ، وتقوم الحروب في كل عصر تحت ألويتها .

كل اديب ثائر ، والاديب الهادىء لا يهدم ولا يبني بل هو من الذين تجرفهم شبكة الصياد فتخرجهم من بحر الحياة العجاج الى المقلى او الى الفرن ليتغذّى بهم الحيتان الصالحون للبقاء .

ان أول ثورة أدبية عربية أوقد نارها اديب أعمى مستعرب . وكأنه نظر بعين الغيب الى أثره في الأدب فقال بيته الذي نتمثل به الآن :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم ، قد ضلّ من كانت العميان تهديه

لا يا بشار ، مـــا ضلّ من يقوده أعمى مثلك ، وكم من أعمى قبلك وبعدك رأى ما لم نره نحن البصراء ، فانعم بالا .

أسمع الكثيرين يقولون : لماذا زعّم القدماء بشاراً ، وماذا رأوا فيـه حتى أقرّوا له بزعامة لا خلاف فيها ؟ فالذين لا يدركون ما غمض ودقّ يقولون : كان لبشار لســان كالسوط فألقى الرعب في نفوس العلماء والرواة — والرواة هم نقّاد ذاك العصر — فاعترفوا له بالسبق خوفـــاً ورهبة . وكما يصير الباطل حقاً ويصبح الكذب صدقاً ، في رأس قائله ، متى تقادم عهده ، هكذا ثبتت زعامة بشار كما ثبتت زعامة الحريري بعده .

ان هنالك لشيئاً غير ذلك ، ان هنالك لفناً ليس رمية من غير رام ، فبشار زعيم أدبي رغماً عن وطـــأته الثقيلة . ففي ذلـــك الجسم الجاموسي نفس فنية ما رأى الأدب العربي مثلها . نفس ادركت عفواً ان الادب ابن البيئة فتحسست بيئتها تحسساً فـكان لهـا من كل اصبـع الف عين . رأى بشار بأنفه وأذنيه ولسانه ما لم تره ملايين الناس بأعينهم ، وهو من العباقرة الذين سبقوا دهرهم دهوراً .

اراد بشار ان يكون لعصره أدبٌ غير أدب الجـــاهليين والأمويين فتعمّد ذلـــك ووضع معالم فنه صامتـــاً . لم تكن له نفس ابي نواس المرحة ولا حريته الواسعة ، ضيـق عليه عماه فانطوى على نفسه متأمـلًا فأخرج فناً شايعه عليه ابو نواس وغيره فـكان أدب المولدين ، وهـذه الحكاية تؤيد ما نزعم .

قال الاصمعي : كنت أشهد خلفاً ابن ابي عمرو بن العلاء وخلفاً الأحمر يأتيان بشاراً ويسلمان عليه بغاية التعظيم ، ثم يقولان : يا ابا معاذ ، مـا أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما . ويسألانه ويكتبان عنه . فأتياه يوماً فقـالا

له : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قـال : هي التي بلغتكما . قالا : بلغنا انك اكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، بلغني أن سلماً يتباصر بالغريب فأحببت ان أورد عليه ما لا يعرفه . ثم انشدهما القصيدة ومطلعها :

بكّرا صاحبيّ قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

فقال له خلف الاحمر : لو قلت يا ابا معاذ ، مكان « ان ذاك النجاح » « بكّرا فالنجاح » كان احسن .

فقال بشار : اني بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون . ولو قلت « بكّرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولّدين ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة .

فقام خلف وقبّله بين عينيه . وشاء خلف الآخر ابن ابي عمرو بن العلاء ممازحة بشار فقال له : لو كان علاثة والدك يا ابا معاذ — أي لو كان عربياً — لفعلت كما فعل أخي ، ولكنك مولى . فمدّ بشار يده فضرب بها فخذ عمرو بن العلاء وقال :

ارفق بعمرو اذا حرّكت نسبته فـانه عربيّ في قوارير
ما زال في كير حدّاد يردّده حتى بـدا عربياً مظلم النورِ
ان جاز آباؤه الأنذال في مضر جازت فلوس بخارى في الدنانيرِ

ارأيت مثلي أنّ بشاراً كان في فنه متعمداً وانـه زعيم مدرسة حقاً ؟ انه لا ينظر أبداً الى موادّ الجـاهليين في هجوهم ، فكل مواده مأخوذة من بيئته ومما تتناوله يده من محيطه . انظر كيف تناول صوره من زمانه واخرج منها هجاء مراً . فلبشار مدرسة زاهرة لا بأس علينا ان سميناها « مدرسة الخلعاء » ، فللأدب العربي كغيره من الآداب الأخرى شعراء ملعونون ، وقد ذكرهم ابو الأدب العربي فقال :

كان والبة بن الحباب ، ومطيع بن أياس ، وابن المقفع ، وحماد عجرد ، وبشار المرعث ، وأبان اللاحقي الخ ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر لا يكادون يفترقون ، يهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً وكلهم متّهم في دينه .

فهؤلاء ، أضف اليهم أبا نواس وأترابه ، هم رجال الثورة الاولى في الأدب العربي ، اما موقد نارها فبشار . وسنريك في قابل أثر بشار وزعامته فيها ، ثم كيف خمدت نارها قروناً حتى اتقدت في هذا العصر .

اخلاق بشار

لا متسع لدرس عصر بشار ومحيطه اللذين يعرفهما كل متأدّب ، ناهيك ان بشاراً ابن الغريزة العمياء الموروثة . فما رأينا له ضريباً الا نفراً تتلمذوا له فأعداهم . ليست الاوبئة النفسانية بأقل عـدوى من الأمراض السارية ، وليس بشار اول المتهتكين ولا آخرهم ولكنه تفوّق على كل من تقدموه بثورته الشاملة كلّ ما تواضع الناس على تقديسه ، فكان يزدري تقليدهم ، وعرفهم ، وعاداتهم ، ونواميسهم ، ولولا فنه الاصيـل لأحصي مع السفلة الرعاع . ولكن فن هذا الاعمى الوقح ، ونظراته البعيدة المدى تستهويني فاغلو في تقديره . يدهشني قوله : عدم النظر يقوّي ذكاء القلب ويقطع عنه الشغل بما ينظر اليه من الأشياء فيتوفّر حسه وتذكو قريحته . وأزداد دهشة اذ أقابل قوله هذا بقول بول فاليري زعيم الشعر المحكك في فرنسا . ففاليري يدعو الشاعر والكاتب الى الخلوة في الغرفة السوداء لتأمّل ما تصوّر وكتب .

اما بشار فكان في غرفة أبدية الظلام ، لم يعشْ قطّ الى ضوء النار التي قدّسها وقدّمها على الطين . . . فقضى عمره بين نارين : شهواته وفنه . فلننظر اذن في سجاياه قبل فنه لان هذا ابن تلك ، وان كانت جميعها لا ترضي . فما رأيت فناناً خلا من كريمة مثل الشيخ بشار .

كان بشار خائفاً على شعره فقال : أزرى بشعري الأذان . فجاء الجاحظ

بعد قليل وقـــال : ومن خطباء الامصار وشعرائهم والمولّدين منهم بشار الأعمى ، كان شاعراً راجزاً سجّاعاً خطيباً صاحب منثور ومزدوج ، وله رسائل معروفة ، وهو اطبع شعراء زمانه كلهم . ثم جاء ابو الفرج فاقتفى أثر يوحنا الانجيلي في تدوين سلسلة نسب بشار فبلغ بـه الى أدريوس بن يشتاسب بن يهراسب الملك . وقال آخرون بشار مولى وأبوه طيان . وسواء عندي أكان ابن طيان أم صنو كسرى انو شروان ، فقد كان هوراس ابن مولى ، وفرجيل ابن حطاب .

لا يعنينا مما ذكره ابو الفرج الا هذه الكلمة التي ختم بها تلك السلسلة الملكية : « ويكنّى بشار أبا معاذ ، ومحله في الشعر وتقدمـه في طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك . »

فكيف أتته الرئاسة منقادة ، وما هي الخصال التي جعلت منه زعيماً لا خلاف فيه ؟ قال تين : الشاعر ابن العرق والزمان والبيئة ، وبشار هو حقاً ابن عرقه وزمانه ومحيطه . قد نظلم عصر بشار اذا جعلنا هـذا الفاجر الفاسق مثالاً له . قد كان في ذلك الزمان اناس فضلاء يقولون : اما لهذا الاعمى من يبعج بطنه !

وقد نكون – اذا اتخذنا بشاراً وعصابته نموذجاً لعصره – كمن يزور مواخير بيروت وملاهيها ، ولا يلمّ بكنائسها ومساجدها ، ومدارسهـــا وجامعاتها ، وديورتها ونواديها الادبية ، ثم يقول : بيروت مدينة لهو ودعارة . لسنا نطهر ذاك المحيط فخطبة زياد تكذّبنا . وهذه النواة – أي بشار – لو لم تصادف تربة ذات حرارة ورطوبة ملائمتين لاحتضانها لمـــا انفلقت وجنّت جنوناً ورأينا لها أخوات .

لا يعنينا ان يكون بشار خفيف الظل او ثقيله ، وسواء عندنا أحبّه الناس ام ابغضوه ، ولا يهمنا صدقه او كذبه ، فالفن كذب كله .

ولست اتطلب ديواناً ضخماً لأحكم على فنّ بشار ، فحسبي ما وصلني من شعره . وربّ كتاب صغير يضمّ بين دفتيه نفساً كاملة تامة الخطوط صادقة الالوان .

يرينا شعر بشار شيئين في وقت معاً : اباحية بشار وانحطاطه ، وسمو قريحته وفنه . فبشار بن برد أنانيّ من الطراز الاول كأنه انسان لاروشفوكو الذي لا يهدأ ابداً ، فلا يقف عند الآخرين الا كما يقف النحل على الزهر ليمتصّ منه ما هو بحاجة اليه . فبشار معجب بنفسه معتدّ بها ، وحسبك بابن طيّان يصبح نداً لكسرى انو شروان فيقول وهو من عرفنا :

نبّئت بائع عرضه يغتـــابني عند الامير ، وهل عليّ امير
ناري محرّقـــة وبيتي واسع للمعتفـــين ، ومجلسي معمور

أدعر فاسق ، شموس حرون ، غضوب جسر كناقة عنترة . لا تردعه النصيحة ولا يتأثر باحد . عدو الجميع ، ثائر على النظم جميعهـــا تمهيداً لشهواته المتأجّجة . فاتك جسور لا يثنيه عن غيه لجام ولا تكبحه الحزامة :

أمـــامة قد وصفت لنا بحسن وانّـــا لا نراك فألمسينـــا

فكان من امرها معه مـــا كان ، واذا شئت الخبر كاملاً غير منقوص فارجع الى كتاب الأغاني .

ولكن بشاراً خليّ من حساســـات الحياء ، والحيـــاء بالنظر . يتبهر بالمعائب وكره النـــاس . مـــا أحبّ الا بنيه . متقلب كأبي براقش . يخفر ذمة بني عقيل كما يزدري الدين والمعتقد . يهجو الخليفة كما يهجو الخيّـــاط والقصّـــار . يذرّي كيفما طابت له الريح ، ولا كبير عنده الا الجمل . هو على حدّ قول رابله : يبكي كالبقرة ويضحك كالعجل . يبذل كل شيء حتى فنّه ارضاءً لوبابة ربّة البيت وطمعاً بأكل البيض طازجاً . فلسفته دُرْ مع الزمان كيفما دار :

وما أنا الا كالزمان اذا صحا صحوت ، وان ماق الزمان اموق .

ماديّ ممتلىء شبقاً ، زنديق اذا خاف ، ملحد حتى الهذيان اذا اطمأن . ليس الدين عنده شيئاً ولا الفروض ولا الصلاة ، فأجاب حين لاموه على تركها : من يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة . الحياة عنده في اللحم والعظم . ولا يردعه عن الفجور الا الخوف على جلده :

انا والله اشتهي سحر عينيك واخشى مصارع العشـاق

شاب وما تاب . ظلت نفسه خضراء في السبعين . أذن في الضحى وهو سكران ، فكأنّ المتنبي يعنيه بقوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحلّ دم الحجاج في الحرَم ِ

الحياة عنده هوى عاصف ، وشهوات كالتنور المسحور . وهكذا كان له مدرستان ، واحدة علمت الجسارة والفتك ، وأخرى علمت الفن . لم يحثّ الا على مكرمة واحدة وهي رعاية الصديق ، ولكنها كقول الدهري : خلق الله السموات والارض ، لأنه لم يكن له صديق ولم يرع عهداً لأحد .

يصوّب مدفع فنه الى حصنين : المرأة والصندوق :

عسر النساء الى ميـاسرة والصعب يمكن بعدما جمحا

تعطي الغزيرة درّها فاذا أبت كانت ملامتها على الحـلاّب

هو لا يمدح ريحانة قبل شم ، هائج كالبركان . الحياة عنده مأدبة يجب ان تتنوع ألوانها لتقوّي شهـوة النهم . وقد قـال لبعضهم : لا تصيّروا مجلسنا هذا شعراً كله ، ولا حديثاً كله ، ولا غناء كله ، فان العيش فرص . ولكن غنّوا وتحدثوا وتناشدوا وتعالوا نتناهب العيش نهباً . قويّ الميل حتى الغضب والبهيمية :

ألصقَ بي لحيـة خشنت ذات سواد كأنه الابَرْ

يتّبع هذه الغريزة كما يتبع الملاّح نجمة القطب ، شعاره الوقاحة والفتك :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيّبات الفاتكُ اللهجُ

واذا كان الانسان أضغاث ميول كما يعلّم علم النفس فميول بشار نطّاحة . يقولون ان الميل قوةٌ عظمى اذا وجّهته الارادة ، واداره العقل ، ولكنّ ميل بشار عنيف خلق منه لصّ اعراض ومجرماً خطراً على المجتمع . ناهيك ان ميل بشار لم يعرف الشيخوخة فكان في السبعين ، طور السأم والهرم ، كأنّه ابن عشرين . كل شيء عنده محلّل ، وصاحبنا جوعان دائماً ، ينطح الزاد كلما رآه : زودينا يا عبدَ قبل الفراق . وقد عرف بشار اعوجاجه هذا فاعتصم « بالجبريّة » فقال مبرئاً نفسه :

طبعت على ما فيّ غير مخيّر هواي ولو خيّرت كنت المهذبا

لم يقعد ولم يتوانَ عن طلب المال ، فلم يحل عماه دون الاسفار والزيارات المثمرة :

يسقط الطير حيث ينتثر الحبّ وتُغشى منازل الكرماء

وقد اعترف بهذا اذ قال : دخلت على الهيثم بن معاوية ، وهو امير البصرة ، فأنشدته :

ان السلام ايها الأميرُ عليك والرحمة والسرور

فسمعته يقول : انّ هذا الاعمى لا يدعنا او يأخذ من دراهمنا شيئاً . فطمعت فيه فما برحت حتى انصرفت بجائزة .

ان حمية بشار تعمل دائماً لاتمام رغائبه ، فما هجا الا ليستدرّ ، وما نظم شعراً لنائحةٍ او مغنّية الا ليفوز منها بشيء . وما تغزل الا ليستهوي ويغوي ، وما مدح الا ليجاز . كان فنه أحبولة صيد ، والفنّ مكّار . قد يكون للتقاليد والعرق يد عظمى في توجيهِ ، فما عصمه اسلام ، ولا

حجبه شرع او حدّ . أما أجاب جواري المهديّ : ونحن على دين كسرى ، حين قلن له : أنت ابونا . . .

ان بشاراً عبد اللحم والعظم ، لقد كان مصاباً بحمّى الحيــــاة ولم يفارقه الدور حتى ضربه المهديّ ضرب التلف وألقي في البطيحة .

وقد يدلنا خَلقه على خُلقه ان كان كما وصفه حماد عجرد :

واعمى يشبه القرد   اذا ما عمي القردْ

او كما قال فيه آخر :

ان بشار بن بردٍ   تيس اعمى في سفينه

اما فنه فموعده قريب .

الطاقة البشارية

روى الاصفهاني عن بشار ، قال : لما دخلت على المهدي قال لي : فيمن تعتدّ يا بشار ؟ فقلت : اما اللسان والزي فعربيان ، واما الاصل فعجميّ كما قلت يا امير المؤمنين :

نمت في الكرام بني عامر   فروعي وأصلي قريش العجم
واني لأغني مقام الفتى   وأصبي الفتاة فلا تعتصم

وكان ابو دلامة حاضراً فقال : كلا ، لوجهك اقبح من ذلك ووجهي مع وجهك . فقلت : والله ، ما رأيت رجلًا اصدق على نفسه واكذب على جليسه منك . والله ، اني لطويل القامة عظيم الهامة ، تام الألواح اسجح الخدين . ولرب مسترخي المزورين ، للعين فيه مراد ، قد جلس من الفتاة حجزة ، وجلست منها حيث اريد . فانت مثلي يا مرقعان .

لم يكذب ابو دلامة ، وقد رحم الله بشاراً فاعماه لئلا يفجعه برؤية قبحه .

وان قيل : من كان هذا شكله وتلك سجاياه فاي فن سام يخرج منه ؟ قلت : الوردة والتفاحة والبيضة من بنيّات المزابل . ومن هذه الدمنة التي سميت بشاراً بسقت فروع الشعر مخضلة ، فلنبحث عن الطاقة Energie البشارية .

لا يفرّق علم النفس بين جهد وجهد . فسيان عنده جريح يتجلد في سبيل المجد والوطن ، ولص يصبر على جرحه خوفاً من الفضيحة والسجن .

فأنّى توجهت ركائب طاقة بشار فهي طاقة ولدها الاولية بين خصاله . فلولا جهده العنيف المستمر لظل لعبة الصبيان وكرة يتلقفهـا من لا يرحمون ذا عاهة بل يقولون : اضرب الاعمى واكسر عصاه ، ما انت خير من ربه الذي أعماه . ان هذه الطاقة المتقدة قد سيرت بشاراً نحو الابداع المستمر ، والدليل قوله : لم ازل منذ سمعت قول امرىء القيس في تشبيهه شيئين حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

حتى قلت :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

لا يعني هذا انه سرق امرأ القيس كما ظن احدهم ، فالتخيل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور الى بعض ، فيحلل ويركّب ويصغّر ويكبّر كما عمل بشار . ان ارادة بشار مسلحة بقريحة عجيبة وقوة بادرة ، وشدة عارضة يخفرها العقل الذي ألزمه عمود الفكر فيما نظم . اضف الى هذا كله ذوقاً مرهفاً مكّنه من نقد شعره ادق نقد فجاء كلامه نقيّاً كأنه الفضة المسبوكة ، فقصرت قصائده ولم تتشعب اغراضها ، وقد قال بشار في هذا : « لم اقبل كل ما تورده عليّ قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . نظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية فأحكمت سبرها وانتقيت حرّها ، واحترزت من متكلّفها . »

لا بد للشاعر الكبير من مخيلة قوية ، ومخيلة بشار اشبه بطائر عجيب يطير بجناحي الحساسة Sensibilité والانتباه . وان قيل مـاذا يدرك الأعمى المسكين اجبنا مع علماء النفس ان الانسان مدرك بغير عينيه . وقد دلّنا بشار على هذا قبل علم النفس الحديث فقال :

ان سليمى ، والله يكلؤها ، كالسكر تزداده على السكر
بلّغت عنها شكلا فأعجبني والسمع يكفيك غيبة البصر

ثم قوله لعبدة :

فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى ولا تسمع الأذنانِ الا من القلب

أفلا يؤكد هذا القول كل ما جاء في علم النفس عن الهوى والهيجان والتخيل والاحساس وغير ذلك من فصول ؟ وما علينا لو اقحمنا شيخنا المعظم بين جيمس وريبو وبرغسن وغيرهم ، فقد خلق بذكائه وانتباهه الشديدين ما لم يخلقه الملايين من البصراء .

الانتباه خاصّية اولى في العميان يدلك عليها تقلّص عضلات جباههم وارتفاع حواجبهم والاخاديد الافقية . ولكن ليس كل اعمى قويّ المخيلة فيّاض الذهن والقريحة كبشار ليخلق مثله . وما يضر فقد البصر فالسمع والشم والذوق وغيرها من الحواس الاخرى صور تالية Image consécutive كما للنظر . والصور التالية بنت الاحساس الذي هو من اصدق صفات بشار التي أنمت مخيلته . روى ابو الفرج قال : مرّ ابن أخ لبشار ببشار ومعه قوم ، فقال بشار لرجل معه : من هذا ؟ قال : هذا ابن اخيك . فقال بشار : اشهد ان اصحابه سفلة . قال : وكيف علمت ؟ قال : ليس عليهم نعال .

ليس هنا موضع القاء درس في الانتباه واثره في الفن ، ولكننا نقول ما لا بد منه لموضوعنا ، اي انه يجمع ملكات العقل حول نقطة واحدة . وانتباه بشار تجمّع كله حول مخيلته فصح في بشار ما زعموه عن العبقرية ، اي انها القدرة على جمع الفكر حول موضوع واحد مدة طويلة .

ومن مميزات بشار الحس البديعي Sentiment esthétique ، فالهيكل

البشاري « دينمو » احساسات مختلفة تخلق طاقته قوى وانواراً مدهشة . وهذا الحس البديعي الذي تتعب في مراده الاجسام حمل بشاراً فسمى بعض غرف بيته « الرقيق » و « البردان » ، وكلّف المصور رسم طير في جامه . وهو الذي وجّهه صوب السخر اللاذع واستطابة النوادر وابداعها .

هذه عناصر بشار الغريزية ، اما عناصره الاكتسابية فهي ثقافته الشاملة ، ان صح التعبير ، والا قلنا اطلاعه الواسع على معارف عصره ومقدرته الجدلية ، فقد كان شيخنا من ابطال هذا العراك وله فيه حجج وبراهين شعراً ونثراً . اما الادب فعرف منه الغالي والرخيص ونقده نقداً عجيباً . قال مروان ابن ابي حفصة : قدمت البصرة فأنشدت بشاراً قصيدة لي واستنصحته فيها ، فقال لي : تقدم بغداد فتعطى عليها عشرة آلاف درهم . فجزعت من ذلك وقلت : قتلتني . فقال : هو ما اقول لك . ثم قدمت عليه فأنشدته : « طرقتك زائرة فحيّ خيالها » فقال : تعطى عليها مئة الف درهم . ثم عدت الى البصرة فأخبرته بحالي في المرتين وقلت له : ما رأيت اعجب من حديثك . فقال : يا بني ، اما علمت انه لم يبق احد أعلم بالغيب من عمك ؟

اما بصره بالغريب فأمكنه من فهم سر كل لفظة فحمّلها ما تستطيع تأديته ، وأحلّها محلها بين اخواتها لتؤدي فكرته التي بدت كالبحر الهادىء ، تُبصر قعره بعينيك وهو عنك بعيد .

فاذا كان لمركّب النقص عمل في الانسان كما زعموا فعمى بشار وقبح منظره حملاه على التسامي Sublimation في فنه ، فشأنه في قبح منظره وعماه شأن عنترة . هذاك استغل سواده فنياً وهذا اندفع ليبذّ الكاملين . اما تهالكه على الملذات فقد اذكاه الكبت Refoulement . فملذات بشار بقيت منقوصة ، ولم يروِ غلّته كل ما ارتكب من

الموبقات . لقد بقيت طاقته فتيّة في الهرم فهجا الخليفة وسبّ الوزير كان سلاح هذا الرجل لسانه ، في كل أطواره ، وبه رد الثقلاء عنه وانفتحت له ابواب القصور .

خبرونا انه كان يعطي ابا الشمقمق مئتي درهم في كل سنة . وبلغ ابا الشمقمق ان بشاراً اعطي عشرة آلاف درهم فوافاه فقال له : يا ابا معاذ ، اني مررت بصبيان فسمعتهم ينشدون :

هاللينه ، هاللينه طعن قثّاة لتينه
ان بشار بن برد تيس اعمى في سفينه

فأخرج اليه بشار مئتي درهم فقال : خذ هذه ولا تكن راوية الصبيان ابا الشمقمق . . .

لا نعجب ان رأينا الشاعر الكبير المهوب يخاف هرّاجاً كهذا ، فمن يسقط من علٍ في صغره لا يجرؤ فيما بعد على تسوّر حائط عالٍ . وشاعرنا ذاق طعم عبث الصبيان صغيراً فآثر ارضاء من يهوّشهم .

واذا صحّ قول ابيقور في ان السعادة في الجمود وفقدان الشهوات فبشار لم يسعد يوماً في حياته ، ولا شك ان تنفسه لم ينقص عن سبع عشرة مرة في الدقيقة ، ولم يكن نبضه قط عادياً . . . فهو رجل ملاذ ومسرات . ظل من فنه في جهد جهيد ينفق من طاقة لا تنضب . فكان كالدجاجة المرّخمة لا تبرد ولو طمرتها بالثلج بل تنتفض وتعود الى بيضها تحضُنه .

فن بشار

عاش الشعراء الجاهليون على الانعـــام فاحتلت صورها ساحة مخيلتهم واستأثرت بشعورهم . فكأنّ الله لم يخلق الفرات ليسقي الفردوس الارضي كما جاء في كتـــابه المقدس ، بل ليشبّه به النابغة ابا قابوسه ربيع الناس ، والاخطلُ سيده عبد الملك ، خليفة الله الذي يستسقى به المطر . لم يهمس بردى في أذن التغلبي حرفاً ، ولم تومىء اليه « الغوطة » باصبـع . فلولا ذلك « الخبر » الذي أتى ابن مروان ما ذكر اسمهـا شاعر « خفّ القطين » . فالزهور عند قدمائنا مخمل وارجوان ، والشقيق اعـلام ياقوت نشرن على رماح من زبرجد ، والورد والتفاح خدّ لوناً وطعماً ورائحة ، وقطر الندى لآلىء ، والنجوم درر منثورة على بساط ازرق ، والاعشاب بساط زمرديّ ، وبعض الثمار كرات ذهبية والبعض الآخر كهرمان ، والحليب كوثر ، والمياه فضة سائلة الخ ما هنالك من صور جافة . ولا عجب في هذا ، فخيال الجاهلي خيال طفل كبير .

لم يعجب هذا النحو بشار بن برد فثار عليه وقـــال مستهزئاً بزعيمهم امرىء القيس : لم يطل ليلي ولكن لم انم . ثم أنحى بسوطه على قفـــا زهير ، مخوّف الاعراب بيوم الحساب ، فقال

كيف يبـكي لمحبس في طلول   من سيفضي لحبس يوم طويـل
ان في البعث والحساب لشغلاً   عن وقوف برسم دار محيـل

فلا يظنّن من ظنّ من دارسي بشار ان بشاراً مؤمن هنا ، فبشار شيخ الزنادقة وفاتح باب السخرية بالاقدمين . راز بشار شعر القدماء فاستخفه وجرؤ عليه ، وقعد يخلق صوراً جديدة من عمل وطن الف ليلة وليلة ، فهز نفوس الرواة والسامعين بشعر ينطق بصور حياتهم المتحركة ، فأعجب به الاصمعي وفضّله على ابن حفصة المحبوس في قفص التقليد البايزيديّ .

جارى بشار الاقدمين وسأل الطلل مثلهم ولكنه حدثه بروح بشارية ولغة مولدة فقال :

أبى طلل بالجزع ان يتكلما   وماذا عليه لو أجاب متيما

فهو لا يدع ابداً اسلوبه ومنطقه ، يطعّم شجرة الجاهلية بالبراعم العباسية المشْرئبة ، ويلقّح ذلك الهيكل الهرم بدم جديد ، يقوده في ذلك المعترك الفني ذوق نقدي مرهف يحسن به الانتقاء والاختيار ، فلا يضع حجراً في بنيانه ما لم يقلّبه على جميع وجوهه عارضاً اياه على بركاره وزاويته . انشد بشار مروان ابن ابي حفصة هذا البيت :

واذا قلت لها جودي لنا   خرجت بالصمت عن لا ونعم

فقال مروان : جعلني الله فداك ، يا ابا معاذ ، هلاّ قلت : خرست بالصمت . فأجابه بشار : اذاً انا في عقلك ، فض الله فاك . أأتطيّر على من احب بالخرس ؟ انظر الى اي افق من آفاق الفن يذهب ببشار ذوقه ونقده .

شعر بشار مديح وهجو وغزل . اما مديحه فنصائح وحض على الجود ، وايماء الى الجائزة ، وتهديد ان أبطأ الممدوح . واما الهجو فيمد الالهام فيه فن بشار أيما مدد ، ويغلي مرجل سخطه ، وتبلغ حساسته حد الفوران اذا حرم . واما غزله فمشوقٌ مُغرٍ بالفسق والفجور ، اقضّ على

العلماء الصالحين مضاجعهم فحملوا الخليفة على نهي بشار عنه ففعل .

ادرك بشار الجمال بعين الغريزة العمياء ، فتخيل المرأة مادة غذائية لا غنى عن استهلاكها ، كالسكّر والرز مثلاً ، فقال مستعطفاً عبدة :

نفّسي يا عبد عني واعلمي انني يا عبد من لحم ودم

صورة رائعة نادرة خلقتها مخيلة بشار من اتفه المواد واخسها . رأى نفسه محقونة في زق الجسد ، وخشي ان ينشقّ ذاك الزق البشاري ان لم ينفس عنه ، فأنطق كل حرف من بيته باستعطاف صارخ بلغ به ذروة الفن الرفيع . تعالى عن العوام وظل بينهم ، وهذا سر فنه وموضع التعجب منه . فحلاوة فن بشار هي في استعارة هذه الصور التي لم يحلم بها القدماء ، وكسوتها بألفاظ مألوفة وضعت في مكانها الملائم ، يحوطها الشاعر بهالة فنية شفافة فتبدو كوجه الحسناء من خلال البرقع . وهكذا يجمع شعره صفاء مع قوة ، وموسيقى مع شدة ، فيغذي الذوق والعاطفة معاً . انظر الى هذه الصور التي اخرجها في مدحه خالد بن برمك :

لعمري لقد أجدى علي ابن برمك ، وما كل من كان الغنى عنده يجدي
حلبت بشعري راحتيه ، فدرّتا سماحاً ، كما در السحاب مع الرعد
اذا جئته للحمد أشرق وجهه سماحاً ، واعطاك الكرامة بالحمد
له نعم في القوم ، لا يستثيبها جزاء ، وكيل التاجر المد بالمد
مفيد ومتلاف ، سبيل تراثه ، اذا ما غدا او راح ، كالجزر والمدّ
لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ، ولم ادرِ ان الجود من كفه يعدي
فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت ، وأعداني فأتلفتُ ما عندي

وكقوله لآخر

أورق بخير ترّجى للنوال ، فما تُرجى الثمار اذا لم يورق العود

فهذه الصور وهذا الاسلوب يغلبان على شعر بشار الذي خاطب

الناس بلغتهم ففتنهم ، وارانا انه اقدر الشعراء على تأليف الكلام حقيقة ومجازاً . والقرآن الذي جعله العرب ملاك الشعر تتناوله يـد بشار متى شاء . تأمّل كيف اخرج هذه الفكرة باسلوبه الحي الناصع :

خذي من يدي ما قلّ ، ان زمانانا شموس ، ومعروف الرجال رقيق

ففي كل مجال يمدّه هذا النفَسُ الفني فيبعد شعره عن اليبوسة والجمود اذ يحفل بالكلمات التي تهيج أعمق لجج الشعور . قال بشار يهجو باهلة :

قـد هجـاني معشر كلهـم حمق ، دام لهم ذاك الحمـق

ليس من شيء ، ولكن غاظهم شرفي « العارض » قـد سدّ الافق

فانظر كم حمّل كلمة « العارض » من أثقال ، ثم دعمها بقد سـد الافق فنهضت بفكرته نهوضاً عجيباً مروّعاً قوّل الاصمعي : ويلي على هذا العبـد القنّ ابن القنّ . لا شك ان بشاراً قنّ ابن قنّ ولكنـه في فنه ابو الاحرار ، وشرفه الفني قد طبّق الآفاق .

فهذه الثورة الفنية الجامحة تلهب نفس بشار في كل غرض من اغراض شعره وخصوصاً متى هجـا ، واين لا يهجو بشار ؟ فهو يتفلسف هاجياً ، ويتمنطق هاجياً ، ويتمذهب هاجياً ، ويأكل ويشرب هاجياً . لا يطيب له عيش الا اذا سبّ واخرج شعره مفزعاً . ان رقة بشار في ألفاظـه تلك لا في صوره التي يضخمها ، ففي مخزنـه مصنوعات لدنة شفافة ، واخرى قاسية جافة كقوله : والشمس في خدر امها ، وبنو الموت ، وام المنايا ، وقناديل ابواب السموات تزهر . ولكل منها موضع وأبرعها واشدها يأتيه متى اهتاج . واذا رأيته وهو الاعمى ، يتحدث عن النور ، ويشبّه بالسراج ، ويشق العمى بالسيوف فاذكر أنـه مجوسي النبعة ، وعرق الاصل نوّاز .

قال لامرتين حين قرأ مجموعة هيغو « العقاب » : ثلاثـة آلاف بيت في

البغض ، هذا شيء كثير ! فما تراه كان يقول لو سمع ابن برد يذكر ان له اثني عشر الف قصيدة ، ابتدأها بهجو آدم ، وختمها بهجو الخليفة الذي يلعب بالدبّوق والصولجان وأشياء أخرى . . .

ولشعر بشار خواصّ اخرى منها حرارة متقدة تنتشر في كل مقطع ، وسرعة كأنها البرق . اقرأ ارجوزته العجيبة التي مطلعها :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خبّر كيف صرت بعدي
أوحشت من دعد وترب دعد سقيا لاسماء ابنة الاشدّ
قامت تراءى اذ رأتني وحدي كالشمس تحت الزبرج المنقدّ
صدّت بخد وجلت عن خد ثم انثنت كالنفس المرتدّ

اسلم وحييت . ابا الملدّ مفتاح باب الحدث المنسدّ

كل امرىء رهن بما يؤدي وربّ ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد فصلته عن ماله والولد

فتخال ان صخوراً تتدهور ورعوداً تقصف ، ومدافع رشاشة تنصبّ قذائفها على الهدف . فشعره يجري كأنهار لبنان ، فيه جمال وموسيقى يخرجها الشاعر من تزاوج الفاظ ذات مخارج ملائمة ، وحروف شديدة غير متنافرة . وفي كل غرض تحس هذه السرعة . اقرأ قصيدته : قد لامني في خليلتي عمر ، ترَ انه لا يقتفي اثر امرىء القيس كابن ابي ربيعة ، بل ترى على قصيدته الطابع البشاري الذي لا يقلد . وحسب بشار تعبيره الناصع واتّباع قصيدته خطة مثلى لا دوران فيها ولا لفّ ، كعنترة وزهير ، ولا تلهّي بالالفاظ كالبحتري ، ولا يقلق قارئه بشروحه الباردة كابن الرومي ، ولا يستغيث مثله بالله ورسوله من مهجوّه بل يضربه ضربة تقوض اللحم وتكسر العظم . له في هذه الوغى سلاحان : أما تصوير مضحك كما

في قصيدة الشاة ، واما نكتة موجعة كقوله :

كيف لا تحمل الامانة ارض حملت فوقها ابا سفيان

يعضده في هذا العمل الشاق دقة تفكير ، وحدّة شعور ، وحسن اداء ، كما يطلب بيفون . زد على ذلك ذكاء عجيباً ، وبديهة وثابة ، وارادة نهّاضة لا تقنع بما دون التام .

غارات بشار الفنية

لبشار غارات فنية تصدّق قول الاخطل : الشعراء اسرق من الصاغة . فرغم كل دفاع سلبي تصيب قنابل بشار اهدافها ويعود ، كالشنفرى ، والليل أليل . انظر ما فعلت يده ببيت النابغة المشهور :

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعث ، أيّ الرجال المهذّب

فقد طرّق هذا الصائغ الحاذق تلك السبيكة الذهبية ومدّدها وصيّرها اشكالاً وانماطاً طريقة تقرّ له بالاستاذية . قال :

اذا كنت في كل الامور معاتباً صديقك لا تلقى الذي لا تعاتبه
فعش واحداً ، او صل اخاك فانه مقارف ذنب تارة ومجانبه
وان انت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأيّ الناس تصفو مشاربه
ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً ان تعدّ معايبه

لسنا نستدل بهذين النمطين الادبيين على عقلية شاعرين كبيرين بل على عقلية أمّتين مختلفتين . فعروبة بشار لم تجرّده من آريته فيفكر تفكيراً عربياً خالصاً . العربي يوجز ، اما بشار فابن عرق منطيقي مطبوع على التبسط والاسهاب . ولكن منطق بشار منطق مجنّح ، يفر في المأزق فلا يعرقل سير الفن ، ولا يسفّ اسفاف ابن الرومي في بسط الصور وعرضها . والغريب العجيب ان الكلام المنتقى يركّ حين يرصفه ابن الرومي ، واللفظة المبتذلة تزهو وتسمو في شعر بشار . فكم من عبارة تلوكها

الالسن كلّ ساعة أدخلها بشار في شعره الرصين فما نبت ولا اشتكت غربة . فهو يقول : دار البلى ، ومن لحم ودم ، ومحسن ومجمل ، وكم نسمع حتى الساعة من يقول : يا محسن يا مجمل . فكأنّ لدى هذا الرجل اكسيراً فنياً عجيباً يلامس الحجر فيجعله كالذهب الابريز . انظر كيف امسى بيت الفرزدق الأعجر ليّناً ناضراً كالغصن الرطيب :

وكنّا اذا الجبار صعّر خده مشينا اليه بالسيوف نعاتبه

انها سرقة صيّرها ذوق بشار الرفيع حلالاً زلالاً . اما من يأخذون عن بشار فيقصّرون عنه تقصيراً فاضحاً . قال بشار في جارية اسمها رحمة الله :

يا اطيب الناس ريقاً ، غير مختبر الا شهادة اطراف المساويك

قد زرتنا مرة في العمر واحدة ثنّي ولا تجعليها بيضة الديك

يا رحمة الله حلّي في منازلنا حسبي برائحة الفردوس من فيك

فاخذ البيت ابو نواس ليقول في رحمة بن نجاح :

يا رحمة الله حلّي في منازلنا وجاورينا ، فدتك النفس من جار

فشتان والف شتان بين « رائحة الفردوس » وبين « جاورينا » في ملاءمتها لرحمة الله . ناهيك ان فدتك النفس من جار ، من سقط المتاع . ولست محتاجاً بعد الى دلّك على استدراك بشار الدقيق بقوله : غير مختبر ، ولا على « بيضة الديك » وهي بضاعة بشارية ذات « ماركة مسجلة » . ولا تعجب ان رأيت بشاراً مولعاً بالرائحة ، فسلاحه من الحواس سمع ولمس وذوق وشمّ .

فالحديث العذب عنده ثمر الجنان ، او قطع الرياض كسين زهراً ، وهو يرى باذنيه واصابعه كقوله مخاطباً سهيلاً :

ثمركم يا سهيل درّ وهل يطمع بالدرّ من يديّ متعتّ

فاحبني يا سهيل من ذلك التمـــر نواة تكون قرطـــاً لبنتي

فزاده سهيل تمراً على ان لا يزيده بشار هجاء .

وبشار فنان في كل موقف حتى الحديث ، وله في هـذا الباب آيات تثير الضحك وتستدعي التفكير . وكأن غريزة بشـــار الفنية ، واطلاعه الواسع ، وبصره باللغة اوحت اليه فأقلّ من التشـــابيه ولم يخرج الصور في قوالبها المعهودة ، فاستغنى عن كأنّ والـكاف ومـا اشبههما . والشيـخ بشار من كبار علماء الكلام ، يظهر ذلك من اخذه بيت لبيد القائل :

وما المال والاهلون الا ودائع ولا بدّ يوماً ان تردّ الودائع

فطبعه على غراره المعهود مخاطباً خالد بن برمك :

أخالد ، ان الحمد يبقى لاهله جمالاً ، ولا تبقى الكنوزعلى الكد

فأطعم وكُلْ من عارة مستردّة ولا تبقها ، ان العواري للرد

لم يقل وديعة لعلمه ان الودائع لا تمس شرعاً بل تعاد عيناً ، اما العـارية فلهـا دواء اذا هلكت . . . وزاد بشـار « اطعم وكل » موافقة لفنه المولّد ، وتحريضاً على الجائزة التي يحلم بها شيخنا دائماً ، ويدور معهـا كعبّاد الشمس . تنبئنا عن ذلك صوره التي اصطفاها وآثرها في مديحه

يعقوب ، قد ورد العفـاة عشية متعرضـين لسيبـك المنتـاب

فسقيتهم وحسبتني كمّونـــة نبتت لزارعهـــا بغير شراب

تعطي الغزيرة درّها واذا ابت كانت ملامتهـــا على الحـلاّب

وكقوله :

دعــــاني الى عمر جوده وقول العشيرة بحر خضمّ

ولولا الذي ذكروا لم اكن لأمدح ريحـــانة قبل شمّ

واخيراً :

كأنمـــا جئته ابشره ولم اجيء راغباً ومحتلبا

وهذا البيت الاخير من غنائم بشار في احدى غـــاراته على زهير ، وكلمة « محتلبا » هي الطابع البشاري الذي لا يقلد . ولم يسلم الاخطل من غزوات ابي معاذ ولكنه لم يوفق فأسفّ في خمريته التي مطلعها : يا ابن موسى ماذا يقول الامام . ثم قصر عن التغلبي في تشبيه الزقّ يسحب على الارض . فما ابعد قول بشار : وكأن الزقّ زنجيّ سرق ، من قول شاعر تغلب :

اناخوا فجرّوا شاصيات كأنها رجال من السودان لم يتسربلوا

واذا طلبنا لبشار مثـــلًا بين شعراء الفرنجة فما نجد غير بودلير . الشاعران يتفقان في الصناعة الفنية ، والاخلاق الصاخبة المعربدة ، والزعامة الادبية ، وفي الثورة على ما يقدسه الناس ، وصداقـة ابليس ، وحب العبدة السوداء ، واسخاط الرأي العام ، واغضاب الحكومة والمجتمع .

واذا كان لا بد من خلاصة لكل بحث فاقول ما يأتي :

١ — يقوم فن بشار على خلق صور حضرية لا صلة لهـــا بالجاهلية ، يخيط لها من فصيح المولّدين ثياباً مغرية ، مفصلة على قدّها .

٢ — على السرعة والموسيقى المطردة ، يتوسل الى ذلك بانتقاء الالفاظ الملائمة وتجنب التقديم والتأخير والجمـــل الاعتراضية ، وتقسيم اجزاء شعره تقسيماً دقيقاً كما ترى في هذا البيت :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى وبالشوك والخطيّ حمر ثعالبه

فالبلاغة العربية لا تعتمد عـلى الحروف الصوتية ، كما توهم المتمشرق بلاشير ، بل لها موسيقى تجدها في الحروف الساكنة ، والفنان الاصيل يأخذ منها غير متعمد ما يلائم غرضه ، كما فعل بشار في البيت السابق . فللغرض الواحد احرف متعددة في لغتنا ، تتفاوت ضخامة وصوتاً كالطاء والتاء ، والصاد والسين والثاء وهلم جراً .

٣ — يضخم شعر بشار ويشتد حين يحاكي المتقدمين ، ويظل سهلًا لانه

يجتنب الفاظهم الوحشية وطرق تعبيرهم .

٤ — لم يخطىء الجاحظ حين أحصى ابن برد بين مشاهير خطباء عصره، فشعره كله مصوغ صياغة خطابية ، وقصائده مهيأة تهيئة منطقية لا تطفىء من حدة العاطفة ولا تمحو شيئاً من سمات الفن .

وبعد ، فثورة بشار التي افضنا في الحديث عنها لم تتناول كل ما نطلبه نحن اليوم ، ولكنه فك اغلالاً ، وحطم قيوداً تحلّى بها بعده البحتري وابو تمام ، فعاد الشعر العربي سيرته الاولى .

اما ابو نواس ، وله من يفضله ، فما أراه الا تلميذ بشـــار النجيب ، وحسبي البرهان على زعمي قول الجاحظ : بشار وابو نواس معناهما واحد ، والعدّة اثنان . قد يكون ابو نواس أخف ظـــلًا ، واظرف نكتة وأرشق ، اما بشار ففنان لا يضاهى ، والكلمة العـــامية « شيخ كار » لا تنطبق الا على الشيخ بشار .

شعراء الخمرة

لا نستطيع ان نعدّد شعراء الخمرة ، فهواتها كثيرون ، وكأني بها قد كانت من مقومات السيادة العربية فادّعوها جميعاً حتى صعاليك العرب واغربتهم ، فافتخر عنترة انه شربها بالمشوف المعلم . ليس وكدنا كل من شرب كأس خمر ببعلبك او دمشق وقاصرين ، فلا يهمنا في هذا الباب الا الاختصاصيون ، والاخصائيون في الخمرة من شعراء العرب ثلاثة : الأعشى والاخطل وابو نواس .

كان اول عمل اتاه ابن آدم ، بعد خروجه من سفينة نوح ، زراعة الكرمة . . . وعلماء الزراعة يؤكدون ان اقدم خمرة عرفت هي خمرة هذا القطر . واذا أحصينا ورود ذكر الخمر في الكتاب المقدس وجدنا انه نحو مئة وثلاث مرات ، كما اننا نرى الكتاب المقدس يختص خمرة لبنان ، وحدها ، بالثناء العاطر ، فيقول هوشع : ويكون ذكرهم كخمر لبنان .

الاعشى اول شعراء الخمرة ويقال انها حالت دون اسلامه ، لانه لا يستطيع هجرانها . وصف الأعشى الخمرة واجاد ، ثم جاء الاخطل فأتى على جميع ما قاله الأعشى وزاد عليه ، فوصف لنا منشأ هذه الاسرة الكريمة ، التي اهدت الى الآداب العالمية عروساً فريدة قال فيها برانجه الشاعر الفرنسي : ان خمرة قبرس خلقت جميع الآلهة . قال الاخطل

يصف مسقط رأسها :

ربت وربا في حجرها ابن مدينة   يظلّ على مسحاتــه يتركّل
اذا خاف من نجم عليها ظماءة   أدبّ اليها جدولاً يتسلسل

ثم ذكر عتقها ، والعناية بها في خدرها ، وكيف هي ملثمة ، وعليها أردية شتى من نسيج العنكبوت ومن ليف ، ومن قار . وكيف كالف لون هذه العروس لطول مكثها في الخباء . وظلت هناك محبوسة محجوبة حتى اجتلاها عباديّ بدينار — الاخطل .

ثم يصف تقلّب صاحبها ، رغماً عن فقره ، فكأنه ممن عرفوا السوق السوداء :

اذا اقول تراضينا على ثمن   ضنّت بها نفس خبّ البيع مكار

واخيراً تمت الصفقة وفاح المسك مما تضوع من ناجودها الجاري .

وانتقل الاخطل الى وصف السكران فأجاد وأبدع . جسّد الخمرة ووهبها الحياة ، ولما جاء دور شاربها أماته موتاً موقتاً فهو :

صريع مدام يرفع الشرب رأسه   ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

وحين أقرأ هذه القصيدة الرائعة اخالني اشاهد الاخطل ملاقياً القافلة الفلسطينية ، واقفاً على الطريق ينتظر حتى اطل عليه الموكب العظيم :

عليه من المعزى مسوك روية   مملأة ، يعلى بها وتعدّل
فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم   وما وضعوا الاثقال الا ليفعلوا
اناخوا فجرّوا شاصيات كأنها   رجال من السودان لم يتسربلوا
تمرّ بها الايدي سنيحاً وبارحاً   وتوضع باللهمّ حيّ ، وتحمل

ثم يصف فعلها فيقول :

تدب دبيباً في العظام كأنّه   دبيب نمال في نقا يتهيّل

ثم يعود الى تجسيدها ، وان سبقه الى مثل هذا حسان بن ثابت

قبل اسلامه ، فيقول :

فقلت اقتلوهـــا عنكم بمزاجها فحبّ بهـا مقتولة حين تقتل

وقد اغرب الاخطل في حب الخمرة حتى هجا جريراً وقومـه وعيّرهم بالسكر القبيح فقال :

بئس الصحاة وبئس الشرب شربهمُ اذا جرى فيهم المزّاء والسكر

واخيراً يتحدث الى امير المؤمنين عبد الملك عن بلاء قومه فيقول :

فأسرينَ خمساً ثم اصبحن غدوة يخبّرن اخبـاراً الذّ من الخمر

ويظل لواء شعراء الخمرة معقوداً للاخطل حتى يظهر ابو نواس فيستولي على الامد .

خمرة ابي نواس

كأنها وجدت منذ قبل الدنيا كوني فكانت ، فهي أشبه بقول ابن الفارض : فلا قبلها قبلٌ ولا بعد بعدها . يخبرنا ابو نواس عن سن عجوزه فيقول :

شمطاء تذكر آدماً مع شيثه وتخبّر الاخبار عن حوّاء

صفراء تمزج فيبدو الزبرجد المتألق ببدائع الاضواء ، او لؤلؤات شبيهات بواوات ، او حصباء درّ على ارض من الذهب . وهي تارة بدر ، وحيناً شمس ، لا يحتاج ، إذا وجدت ، الى مصباح . اذا مست الحجر يسرّ ، ويكاد يغفو من ينظر اليها .

اما الساقي الذي يدور بها في مجلس ابي نواس واصحابه ، فهو من سلالة العم يافث ، اي ناصع البياض احور ، قدّه قضيب بان فوق كثيب . ان ابا نواس ، كابن ابي ربيعة ، لا يعجبه الرسح . ولذلك قال في ذلك الغلام حين قام للصلاة :

ما شئت من دنيا ، ولكنه منافق ليس له آخِرَه

ويتخيل ويتفنن في التخيل فيرى حبب الخمرة حدقاً ترنو الى الشاربين ، ثم لا يقف عند حد فيسلك اودية ما سلكها احد ، كما قيل فيه ، فيخال ان مازجها طوّقها سلخ ثعبان او افعى . وابو نواس المدمن اصبحت لا تؤثر به الخمرة الخفيفة ، فهو يريدها سميكة ، من عصير الارجل لا اليدين ،

تلذع كأنها مفلفلة. وخمرتـه الاثيرة ، وهو شيـخ كار ، هي المجوسية التي فارقت اهل دينها لبغضها النار. يعني بقوله الخمرة التي قال فيها الاخطل، زميله : ولم تعذّب بادناء من النار.

وخمرة النواسي « دينمو » رائع :

رقّت عن الماء حتى ما يلائمهـا لطافةً وجفـا عن شكلها الماء
ولو مزجت بهـا نوراً لمازجهـا حتى تولّدُ انوار واضـــواء

فلو كانت هذه الآية النواسية في عصرنا فكم كانت تغني عن شلالات ومعامل وامتيـــازات . . . بل كانت « عين كفاع » مدينة النور الدائم والضياء الابدي .

لدْس يعني ابا نواس غير الخمرة ومـــا تؤدي اليه من ملاذ، فاذا حصلتْ فليمت من شاء ، شرط ان تسلم للشاعر كأسه ، وقـــد اوضح هذا بقوله :

كذاك اني اذا رزئت اخـاً فليس بيني وبينه سبب
قطربّلٌ مربـعي ، ولي بقرى الكرخ مصيـف ، وامي َالعنب
ترضعنـي درّهـــا وتلحفني بظلهـــا ، والهجير يلتهب

ووصف مشهداً كنسياً وافق ذوقه فقال :

ملس وامثالهـــا مجّفرة صوّر فيها القسوس والصلب
يتلون انجيلهم وفوقهم سمـاء خمر نجومهـا الحبب

والخمر عند ابي نواس تكون احسن منهـــا اذا تمت في شربهـــا شروط معلومة :

يا حسنهـا من بنان ذي خنث تـدعوك اجفـانه الى الرِيَبِ
فاذكر صباح العقار واسمُ به لا بصبـاح الحروب والعطب
احسن من موقف بمعترك وركض خيل الى هلا وهَب

صبحة ساقٍ يحابس قدحاً وصبر مستكره لمتحسب

حلّ على وجهه الكمال كما حلّ يزيد معالي الرتب

وللسقاة من الجنسين منزلة رفيعة عند الشاعر ، يستحيل طعم الخمرة في أيديهن فيلذّ ويطيب ، وخصوصاً حين يمشين في قمص مزررات .

وللندمان احترام وكرامة عند ابي نواس ، وللشراب آداب تجب مراعاتها ، فلا تحلّ الخمرة لأي كان :

والخمر قد يشربها معشر ليسوا اذا عدّوا باكفائها

اما آداب ابي نواس التي يراعيها – مع الشارب لا مع الساقي – فوصفها اولاً فقال :

فاذا خلوت بشربها في مجلس فاكفف لسانك عن عيوب الناس
في الكأس مشغلة وفي لذّاتها فاجعل حديثك كله في الكاس
صفو التعاشر في مجانبة الأذى وعلى اللبيب تخيّر الجلاّس

وقال يعظ الثقلاء من الشاربين :

ولست بقائل لنديم صدق وقد أخذ الشراب بمقلتيهِ
تناولْها والا لم اذقها فيأخذها وقد ثقلت عليه
ولكنّي أدير الكأس عنه واصرفها بغمزة حاجبيه
وانْ مدّ الوساد لنوم سكر دفعت وسادتي ايضاً اليه
فذلك ما حييتُ له وانّي ابرّ بمثلهِ من والديه

عاش المربي الكبير . . . وكأنّ ابا نواس عرف اخيراً قدره الخمريّ ، ومقامه الاسمى ، وان له في هذا المقام حق الاشتراع واصدار المراسيم ، فقال :

حقوق الكأس والندمان خمس　　فأوّلها التزين بالوقار
وثانيها مسامحة الندامى　　وكم حمت السماحة من ذمار
وثالثها وان كنت ابن خير　　البرية محتداً ترك الفخار
ورابعها فللندمان حقّ　　سوى حق القرابة والجوار
اذا حدّثته فاكسُ الحديث　　الذي حدّثته ثوب اختصار
وخامسها يدلّ به اخوه　　على كرم الطبيعة والنجار
كلام الليل ينساهُ نهاراً　　فانّ الذنب فيه للعقار

هذه نصائح « الاستاذ الاعظم » للذرية ، فعلى من لا يقلع عن السكر يعمل بها على الاقل ، فتستريح الشرطة . . .

ويتأمل ابو نواس حبيبته — الخمرة — حين تمزج بالماء فيراها تتألم وتتوجع . . . فيخلق صوراً عديدة ، ويولّد تشابيه كالانوار والاضواء التي ولّدتها خمرته ، اكتفي منها بذكر هذا التشبيه الغريب :

تخال فيها ألسن الحيات　　او وقد نيران على الحافات

ويدفع ابا نواس طيشه فيخلع على الخمرة كثيراً من الصفات الربّانية فيقول :

أثنِ على الخمر بآلائها　　وسمّها أحسنَ اسمائها
فجاء بها زيتية ذهبية　　فلم نستطع دون السجود لها صبرا

وابو نواس يعلم ان الخمرة محرّمة وان شاربها هالك ، ولكنه يشربها في كل حال ، متّكلاً على عفو ربه ، ويجادل في ذلك النّظام فيقول له :

لا تحظر العفو ان كنت امرأ حرجاً　　فان حظركه بالدين ازراء

ثم ينظر الى قضية « العفو » وقد شبّت « الفرَق » حولها حرب الكلام فيقول :

اترك التقصير في الشرب　　وخذها بنشاط

من كميت كسنا البرق   اضاءت في البواطي
لم وعفو الله مبذول   لنا عند الصراط
خلق الغفران الا   لامرىء في الناس خاطي

ثم يقول في توبته قول مجتهد عالم مخاطباً ربه :

ان كان لا يرجوك الا محسن   فبمن يلوذ ويستجير المجرم
ما لي اليك وسيلة الا الرجا   وجميل عفوك ، ثم اني مسلم

وتارة يهزأ ويسخر فيقول :

بكيت وما ابكي على دمن قفر   وما بي من عشق فأبكي على الهجر
ولكن حديثاً جاءنا عن نبينا   فذاك الذي اجرى دموعي على النحر
بتحريم شرب الخمر والنهي جاءنا   فلما نهى عنها بكيت على الخمر
سأشربها صرفاً وأعلم انني   اعزّر فيها بالثمانين في ظهري

ثم يعطف على الخليفة فيلذعه هذا اللذع المؤلم فيقول :

أأرفضها والله لم يرفض اسمها   وهذا امير المؤمنين صديقها

ويرى ان لذته تكون منقوصة اذا ظلت وراء الستار فيقول :

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر   ولا تسقني سراً اذا امكن الجهر
ولا خير في فتك بدون مجانة   ولا في مجون ليس يتبعه كفر

وينادي صديقه احمد ليستفيق ويعصيا معاً جبّار السموات . ويهيب باللاحي هاتفاً :

قل لمن يبغي صلاحي   بعت رشدي بصلاحي
أطيب اللذات ما كان   جهاراً بافتضاح

ويقول لساقيه الغرير :

اسقني واسق يوسفا   مزّة الطعم قرقفا
اسقنيها ملأً وفا   لا اريد المنصفا

وضع الزقّ جانباً ووضع الزقّ مصحفا
واحس من ذا ثلاثة واتل من ذاك احرفا
خير هذا بشرّ ذا واذا الله قد عفا

ويجيء الصوم فيضيق به ابو نواس صدراً فيقول :

منع الصوم العقارا وزوى اللهو فغارا
غير أنّا سنداري فيه من ليس يداري
نشرب الليل الى الصبح صغاراً وكبارا
اسقني حتى تراني احسب الديك حمارا

واخيراً يلجأ الى العلم لعله يجد عنده باب فرج يدخل منه الى خدر هذه الحبيبة فيقول :

سألت اخي ابا عيسى وجبريل له عقل
فقلت الراح تعجبني فقال كثيرها قتل
رأيت طبائع الانسان اربعة هي الاصل
فاربعة لأربعة لكل طبيعة رطل

ثم يعتصم بالاجتهاد ، فيتوسل الى تحليلها بمنطقه المعكوس فيقول :

ما قال ربك ويل للألى سكروا " بل قال ربك ويل للمصلينا

ويرى لنفسه رأياً جديداً فيقول :

حجّ مثلي زيارة الخمّار واقتنائي العقارَ شربُ العقار
ما ابالي اذا المدامة دامت قول تاهٍ ولا شناعة جار

وينتهي به الطواف فيوصي اين يقبر فيقول :

خليليّ بالله لا تحفرا لي القبر الا بقطربّل
خلال المعاصير بين الكروم ولا تدنياني من السنبل
لعلّي اسمع في حفرتي اذا عفرت ضجة الارجل

اما وقد اتينا على ذكر القبر فيجدر بنا ان نقسم الميراث ، فلأبي نواس تقسيم طريف احب ان تسمعه :

جنان حصّلت قلبي فما ان فيه من باق
لها الثلثان من قلبي وثلثا ثلثه الباقي
وثلثا ثلث ما يبقى وثلث الثلث للساقي

ولا يدعنا ابو نواس في حيرة من امر دينه ، فيكشف الغطاء ، وما دعاه الى ذلك غير النكتة التي كان يؤثرها في كل موقف فقال :

عتقت في الدنّ حتى هي في رقة ديني

وللكأس حظ كبير من وصف ابي نواس ، والابيات السينية التي أطراها الجاحظ في غنى عن الذكر . وابو نواس مولع ، كعنترة ، بالكؤوس الفارسية ذات التصاوير ، وله في ذلك بيتان مشهوران اعجب بها الرواة القدماء :

بنينا على كسرى سماء مدامة مكلّلة حافاتها بنجوم
فلو ردّ في كسرى بن ساسان روحه اذاً لاصطفاني دون كل نديم

ثم يصفها ايضاً فيبدع :

كأنهم ، والخمر من فوقهم ، كتائب في لجة تغرق

وابو نواس الشرّيب المهذب لم ينس احداً من شركائه في المأدبة حتى قال فيه شيئاً ، فهو لا يهمل الدنّ المسكين :

ما زلت استلّ روح الدنّ في لطف وأستقي دمه من جوف مجروح
حتى انثنيت ولي روحان في جسد والدنّ منطرح جسماً بلا روح

وينظر الى الدنّ فيراه ميتاً ، أي فارغاً ، فيكتب الى احد السادة :

قل لأبي مالك فتى مضر مقالَ لا مفحم ولا حصر
جئناك في ميّت نكفنه ليس من الجن ولا البشر

لكنّ ميتاً عظامه خزف ... واللحم قار، والروح من عكر
ليس لنا ما به نكفّنـه ... فكفّن الميت يا اخا مضر
واعجل فقدمات فاعلمن ضحى ... ونحن في موته على حذر
يا لك ميتاً صلاة شيعتـه ... عزف عليه ، والنقر بالوتر

ويجرّ حب الخمرة ابا نواس الى الهزء بالشعر العربي القديم فيحمل على نادبي الطلول حملات غاشمة ، ويدعو عليهم دعاء العجائز :

ايا باكي الاطلال غيّرها البلى ... بكيت بعين لا يجف لها غرب

ويقول في قصيدة اخرى :

ذر الالبان يشربها اناس ... رقيق العيش عندهم غريب
بأرض نبتها عشر وطلح ... واكثر صيدها ضبع وذيب
اذا راب الحليب فبُل عليه ... ولا تحرج فما في ذاك حوب
فأين البدو من ايوان كسرى ... واين من الميادين الزروب

ثم يقول :

أحسن من منزل بذي قارِ ... منزل خمّارة بأنبـار
وشمّ ريحـانة ونرجسة ... احسن من اينقٍ باكوار
ونقر عود اذا ترجّعـه ... بنان رود الشباب معطار
احسن عندي من أم ناجية ... وام عمرو وام عمّـار

ويقول :

لقد جنّ من يبكي على رسم منزل ... ويندب اطلالاً عفون بجرول
ولكنني أبكي على الراح انها ... حرام علينا في الكتاب المنزّل
سأشربها صرفاً وان هي حرّمت ... فقد طال ما واقعتُ غير محلل
وبتّ على أوراك طرف محجّل ... سبوح الى خلف بسميٍ مهرول

ولأبي نواس غزل نسائي يضاهي خمرته جودة ، وخصوصاً المقطع الذي قاله على الباء :

حامل الهوى تعب يستخفّه الطرب
ان بكى فحقّ له ليس ما به لعب
كلما انقضى سبب منك عاد لي سبب
تعجبين من سقمي صحتي هي العجب
تضحكين لاهية والمحب ينتحب

ان هذه الابيات لتنمّ عن وصف عشق صحيح ، كما ينمّ هذا البيت عن براعة فنية :

خلّيتْ والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب

وكم في هذا البيت من مطابقة لما يقوله علم النفس الحديث عن « الهوى » :

صار جدّاً ما مزحت به ربّ جدٍ جرّه اللعب

ولكي يتنصل أبو نواس من التبعات الغرامية قال :

انا ابتدعت الهوى وحدي فتظلمني هذا نبي الهدى داود قد عشقا

مقدرة ابي نواس

ان مقدرة ابي نواس التي تميزه من اصحـــابه لا ترتكز على تشابيهه واستعاراته وان دلتنا على خياله القويّ ، ولكنها تتجلى في هذا الخلق القصصي الذي تشيع فيه روحـه ، ويحيـا بظرفه فيكشف عن عبقرية شعرية نادرة ، مسلّحة بتعبير سهل تنعشه موسيقى شديدة ، وجو فني تخلقه لفظة بسيطة . انظر كيف يصف قدم الخمرة :

يا شقيق النفس من حكم　　　نمتَ عن ليـــلي ولم انم
فاسقني البكر التي اختمرت　　　بخمار الشيب في الوحم

فلو كنت مزارعاً مثلي ، تزور الكروم حين تـبرعم ، لرأيت بعينـك هذا الخمار الابيض ، وعلمت كيف تتخمر بنت الكرمة في الوحم . فنحن، الفلاحين ، نقول في تلك الساعة : قطّن الكرم . وهذا ما عناه ابو نواس . ثم لي في هذا المعنى وجه آخر : اذا رافقنا الخمرة الى الخابية رأيناها ، وهي مسطار ، حين تغلي ، تلبس خماراً حقـاً ، خمـاراً من نوع « الكريشة » التي كانت تلبسها ستي رحمها الله . الخ . ويقول ابو نواس :

تمّت انصـات الشباب لها　　　بعدمـا جازت مدى الهرم
فهي لليوم الذي بـزلت　　　وهي ترب الدهر في القدم

فهذه الخمرة تشبّ كلما تقدمت بها السن . واليـك التجسيد الاخير ، او المفاجأة المسرحية ، ان صحّت التسمية ، فقد عوّدنا ابو نواس هـذا « الزخم »

في قصصه :

عتقت حتى لو اتصلت بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم ماثلة ثم قصّت قصة الامم

انني لأتخيل الخمرة عجوزاً دهرية مقرفصة قرب الموقد في ليالي كانون تقص علينا قصة ثمود وعاد . . . ولا ينسى ابو نواس « مهنته » فيقول في البيت الذي يلي :

« فرعتها » بالمزاج يد خلقت للسيف والقلم

قد مرت بك شروط ابي نواس على النديم ، فاسمع وصفه الآن :

في ندامى سادة زهر اخذوا اللذات من أمَمِ
فتمشّت في مفاصلهم كتمشّي البرء في السقم

ان هذا البيت ينظر الى بيت الاخطل : تدب دبيباً في العظام . . . ولكن فلنوجز : ان منتوجات الاخطل والاعشى وشعراء الخمرة كلهم تجدها كلها عند النواسيّ . فلندع هذا اذن ولنشغل بما هو اجدى وانفع .

قلنا انه يقصّ في وصف الخمرة . ولنقل انه يقص ايضاً في المديح ، فاسمع قوله الطريف :

الحمد لله ليس لي نشب فخفّ ظهري وقلّ زوّاري
واصفت نفسي التعزي عن شيء تولّى ، ومتّ اوطاري
فلست اخشى نفسي على طمع اخاف منه دريكة العار
من نظرت عينه اليّ فقد احاط علماً بما حوت داري
خيري من البيت كامن ، وعلى مدرجة الشانئين اسراري
ان انتجعت العباس ممتدحاً وسيلتي جوده واشعاري

وفي مدح الخصيب قصّ ايضاً . ان قصة اقحام المرأة في القصيدة للتخلص الى الممدوح لغريبة في ادبنا .

قال الاخطل ولم يعدُ الواقع :

واني غداة استعبرت ام مالك   لراضٍ من السلطان ان يتهددا

فقال الفرزدق بكل وقاحة :

تقول لما رأتني وهي طيبة   على الفراش ومنها الدلّ والخفر

وقال جرير :

تعزّت ام حزرة ثم قالت   رأيت الواردين ذوي امتياح

ثم قال بشار :

وقائلة لي حين جدّ رحيلنا   وأجفان عينيها تجود وتسكب

وكذلك قال ابو نواس حين قصد الخصيب :

تقول التي عن بيتها خف مركبي   عزيز علينا ان نراك تسير

فقل انت معي : الشعراء كالغنم . . . والمعاني عندهم كلعبة الكرة الصغيرة . . . ثم عد لترى تجسيد ابي نواس في الهجو . انه يجعل لرغيف محمد بن اسمعيل قرطاً وشنفاً وخلخالين ، ويجعل رغيف سعيد بن مسلم ولداً مدللاً يقبّل ويلاعب ويداعب ويخاطب . ويقول في هجو الرقاشي وهو احد ابطاله :

رأيت الفضل مكتئبا   يناغي الخبز والسمكا

فأسبل دمعه لما   رآني قادماً وبكى

فلما ان حلفت له   بأني صائم ضحكا

ويقول في قِدْرِهِ :

قِدْرُ الرقاشيّ مضروبٌ بها المثل   في كل شيء، خلا النيرانَ ، تبتذل

تشكو الى قدر جارات اذا التقتا   اليوم لي سنة ما مسّني بلل

ويقول واصفاً « أيوب » كما روى الجاحظ في كتاب « الحيوان »

من ينأ عنه مصاده   فمصاد أيوب ثيابه

تكفيه فيها نظرة　　فتعلّ من علق حرابه

يا رب محتوز بجيب　　الردن تكنفه صؤابه

فاشي النكاية غير معلوم　　اذا دبّ انسيابه

او طامريّ واثبٌ　　لم ينجهِ عنه وثابه

أهوى له بمزلّق　　ما بين اصبعه نصابه

لله درّك من ابي　　قنص اصابعه كلابه

في وصف مجالس الشرب فقصصه كثيرة ، حسبي ذكر اثنتين منها وتقصّ انت الباقي . الاولى مع امرأة اسمها حذّون :

فقلت لها : ما الاسم والسعر بيّني　　لنا سعرها ، كيما نزورك ما عشنا

فقالت لنا : حذّون اسمي ، وسعرها　　ثلاث بتسع ، هكذا غيركم بعنا

ولما تولّى الليل او كاد أقبلت　　الينا بميزان لتنقدنا الوزنا

فقلنا لها : جئنا وفي المال قلة　　فهل لك في ان تقبلي بعضنا رهنا

فقالت لنا : انت الرهينة في يدي　　متى لم يفوا بالمال خلّدتك السجنا

وله قصة كهذه مع خمّار :

فلما حكى الزنار ان ليس مسلماً　　ظننا به خيراً فظنّ بنا شرا

فقلنا على دين المسيح بن مريم　　فأعرض مزورّاً وقال لنا هجرا

فقلت له : ما الاسم ؟ قال : سموأل　　ولكنني اكنى بعمرو ولا عمرا

فقلنا له عجباً بظرف لسانه :　　أجدت أبا عمرو ، فجوّد لنا الخمرا

وللدلالة على اقتداره في التخيّل اذكر هذا ، وان جاء متأخراً ، قال يمدح فأجاد في البيت الاول وأغرب في الثاني :

انما انت عطايا　　ابداً لا تستريح

بحّ صوت المال مما　　منك يشكو ويصيح

وله في قصص الخمرة ايضاً شيء لا يجوز تركه ، قال يصف الساقي

اولاً والخمرة ثانياً :

فقرّب من نحو الأباريق خدّه | وقهقه مسروراً من القرقف الخمر
فصبّ فأبدت ثم شجّت فكُتِّبت | ثمانٍ من الواوات يضحكن في سطر
فقلت لها : يا خمر ، كم لك حجةً | فقالت : سكنت الدنّ دهراً من الدهر
فقلت لها : كسرى حواك ، فعبّست | وقالت : لقد قصّرت في قلة الصبر
سمعت بذي القرنين قبل خروجه | وأدركت موسى قبل صاحبه الخضر
ولو انني خلّدت فيه سكنته | الى ان ينادي داعي الله بالحشر

وقال ناحياً هذا النحو :

فجاء بها قد انهك العمر جسمها | وأوجعها في الصيف حر الهواجر
فقلت لها لما أضاء سناؤها | على صحن كأس قدعلا الكف زاهر
ابيني لنا يا خمر ، كم لك حجة | فقالت : لحاك الله لست بذاكر
شهدت ثموداً حين حلّ بها البلى | وأدركت أياماً لعمرو بن عامر
فقلنا : أنسقاها على وجه أهيف | له تيه معشوق وشخرة شاطر
فما زال هذا دأبنا وغذاءنا | ثلاثين شهراً مع ليالٍ غوابر
ترى عندنا ما يكره الله كفه | سوى الشرك بالرحمن رب المشاعر

وينحصر همّ النواسيّ في اربعة اشياء :

اربعة يحيا بها | قلب وروح وبدن
المـاء والبستان | والخمرة والوجه الحسن

مما اوردناه يتضح لك ان أبا نواس يعتمد في قصيدته على الاخراج كأنه أدرك ان مواضيعه واحدة فلجأ الى الفن الذي يقصي عنه الملل ان أقصى همّ ابي نواس هو ان يختم قصيدته ختاماً جيداً ، فاذا لم يوفق بشيء من عنده عمد الى بيت قديم يختم به القصيدة ، كقوله :

فغنّى وما دارت له الكأس ثالثاً | تعزى بصبر بعد فاطمة القلب

وهذا « التضمين » شائع جداً في ديوانه

الشاعر الشاذ

اتخيّل أبا نواس تائهاً بين قطربّل وطيرناباذ ، يتبع آثار المخنّثين ، مخموراً ، هازئاً ضاحكاً ، يجمش هذا ، ويغمز بعينيه ذاك . لا يصحو حتى يسأل عن الكأس . يهزأ في كل مكان ، وفي كل شيء ، في المسجد وفي القصر ، في الطريق وفي الخمارة .

له عين لا يفلت منها شيء ، فتقدمه الى مخيلة قوية تخرج منه صورة جميلة .

حياة بوهيمية ، ابتدأت منذ الصغر ، نشأ على يد استاذ فاسق فبذّ استاذه في كل ما أخذه عنه وتعلّمه منه . . . قال الشعر بعد ان حفظ عشرات الألوف من القصائد ، كما يروون ، ثم نسيها كما امره خلف الأحمر الذي ألحقه بأقيال اليمن زوراً وبهتاناً .

برز في الشعر ، وان أغار على القدماء . أطاعته اللغة فأوضح عاطفته وفكرته امّا بصورة تتجلّى فيها شخصيته ، وامّا باسلوب قصصي يظهر فيه روحه وشخصيته .

السخر المضحك المبكي ، دعامة الادب النواسي ، اما مصادر وحيه في الخمرة فهي من شعر الذين تقدموه ، فقد نهبهم ولم يدع لهم شيئاً . ومن حوادث عصره ، فهو يصوّر حياة الفئة التي لابسها ، ويصف حياة عاشها .

يخطىء من يظن أبا نواس شيئاً من الاشياء او ذا لون اجتماعي او

سياسي . فأبو نواس لا يعنيه من الحياة غير لذتين . واذا قال

اذا راب الحليب فبُلْ عليه ولا تحرج فما في ذاك حوب

فهذا لا يعني انه شعوبي ، فأبو نواس خمري لوطي . لا يعنيه شيء من المذاهب السياسية والاجتماعية ، الا بمقدار ما تتصل بمهنتيه . وان قال

قل لمن يبكي على رسم درس واقفاً ، ما ضرّ لو كان جلس

فهذا ما توحيه اليه شخصيته من هزء بعيش الذين بكوا على الاطلال . اما تجديد الشعر فما خطر له ببال .

لم يكن ابو نواس مولعاً بالمطالعة كالجاحظ ، بل كان مولعاً بالسماع ، حاضر الذهن ، سريع البديهة . وُهب خاطراً مولّداً يكاد ينتفع بكل ما يسمع ويرى ، ومهما تأزّم المضيق فله منه منفذ ومخرج .

خاصة التصوير قوية في شعره ، وهي تدلنا دلالة صارخة على انه ليس من حاء وليس من حكم . شعره اسهل من شعر بشار ولكنه أشد أسراً من شعر عمر ، وليس فيه شيء من رائحة بداوة شعر جرير ، وان كان فيه من سهولته .

عاش ابو نواس كولد ، وظلّ كولد حتى انتهى . وفي هذا يتفق مع بشار ، ولكن شتّان بين مراح الرجلين ، فمراح بشار مراح رصين ، ومراح ابي نواس مراح هازىء مستهتر ، مراح مخنّث

يقولون في الشيب الوقار لأهله وشيبي بحمد الله ، غير وقار

قلنا : والحمد لمن لا يحمد على مكروه سواه . . . وهذا التخنث اورثه اياه اليتم ، ونشأته في حجر امه ، ثم التحاقه بوالبة الفاسق

لم يربّ تربية جدّية ليقدّر المسؤولية ويقوم بأعبائها . فتى رؤي عند عطّار وحمل الى بؤرة فاسدة . كان جميلاً ، وسوق الجمال رائجة ، وخصوصاً في ذلك العصر ، فآلت اليه زعامة عصابة الخلعاء حين شبّ

تجري الاحداث السياسية الجسام حوله وكأنه غريب عن اورشليم ، ولا بدع ، فقد لا يكون صحا ليفتكر

وما الغبن الا ان تراني صاحياً وما الغنم الا ان يتعتعني السكر

ان بين ابي نواس وبين غيره من شعراء الخمرة فروقاً ، فالأعشى يشرب مفتشاً عن رزقه والاخطل يشرب ويأكل

ونوقف احياناً ويفصل بيننا غناء مغنّ او شواء مرعبل

وابو نواس يشرب وعيناه على النديم والساقي .

قضى العمر بين الخمّارة والسجن وقلما رؤي صاحيا ، فهو اما نائم ، واما متمتع ، فمن اين له الساعة التي يفكر فيها بالعواقب :

وقائل هل تريد الحج ، قلت له نعم اذا فنيت لذّات بغداذ
اما وقطربّل منها بحيث أرى فقنة الفرك من اكناف كلواذ
فالصالحية ، فالكرخ التي جمعت شذاذ بغداد ، ما هم لي بشذاذ
فكيف بالحج لي ما دمت منغمساً في بيت قوّادة او بيت نبّاذ
وهبك من قصف بغداد تخلّصني كيف التخلص لي من طيرناباذ

ألا تذكرك هذه الاعلام تلك الاسماء التي ذكرها الجاهليون حين وقفوا على الاطلال ؟ هناك تحسر على الخيام وهنا تحسر على الحانات والخمارات ، والشاعر يحيا بذكرياته .

والغريب في ابي نواس انه لم يأسف على ما فات لعلمه انه لم يضع الفرص ، ولا شك عندي أنه اغتنم ما سنح له في سجنه ، ولذلك لم يذكر السجن بشرّ كما اعتاد ان يذكره المسجونون

اما الطبيعة فهي عنده كزينة للمأدبة تستثار بها القابلية ، ثم تنسى عند نشوب المعارك النواسية ، ولا يذكرها الا لتشويق نديم او ساق ليتبعه

ولا يصوّر ابو نواس غير حالة نفسية شاملة ، وهو يصور ولا يوحي ولوحاته تثير ضحكاً يمازجه الاعجاب .

واذا كان الفن ، كما عرفه بعض الفرنسيس ، هو ان يضع الانسان نفسه كلها فيه ، فابو نواس اعترف اصدق اعتراف للذرية . لم تهم الحكمة ابا نواس ، فحكمته كلها في اللذات ليس غير . انه لم يقل شعراً على هامش حياته ، بل صوّرها لنا كما هي ولم يخفِ خطاً واحداً من خطوطها فكأنه يفتخر بدعارته وشبقه . ادخلنا بيته وأرانا ما في زواياه من خبايا وما في صناديقه من طرف ، ولبراءة الذمة ، قلب امام اعيننا جيوبه ونفض اجربته . . . ومع كل هذا « الاخلاص » ارى شعر ابي نواس كجرس ينقطع رنينه عند التوقف عن قرعه ؟ بخلاف الاجراس التي ترسل نغماً اثر نغم ، ورنيناً اثر رنين فتسترعي سمعك الى ما لا يدرك .

اما اوزانه فتجري تبعاً للموضوع ، فاذا كان مديحاً او قصصاً اختار له البحور الواسعة الرصينة ، وان كان لهواً اثر الضيّقة السريعة . وفي الحالين تأتي قافية ابي نواس منقادة طائعة ، كندمانه وغلمانه . . . وروح ابي نواس تطفو دائماً فوق بحوره ، فهي تعمل عملها المرح في شعره فيطيب ويحلو .

شعره مرنان ، والفاظه مختارة ، وعبارته ليّنة سهلة لا تعقيد فيها ، تغلب مرونتها على شدتها . موسيقى كمناجاة ينابيع لبنان لا كهدير انهاره . والخطة مرعية عنده لانه لم يركب المركب الخشن الذي ركبه شعراؤنا في تعدد اغراضهم .

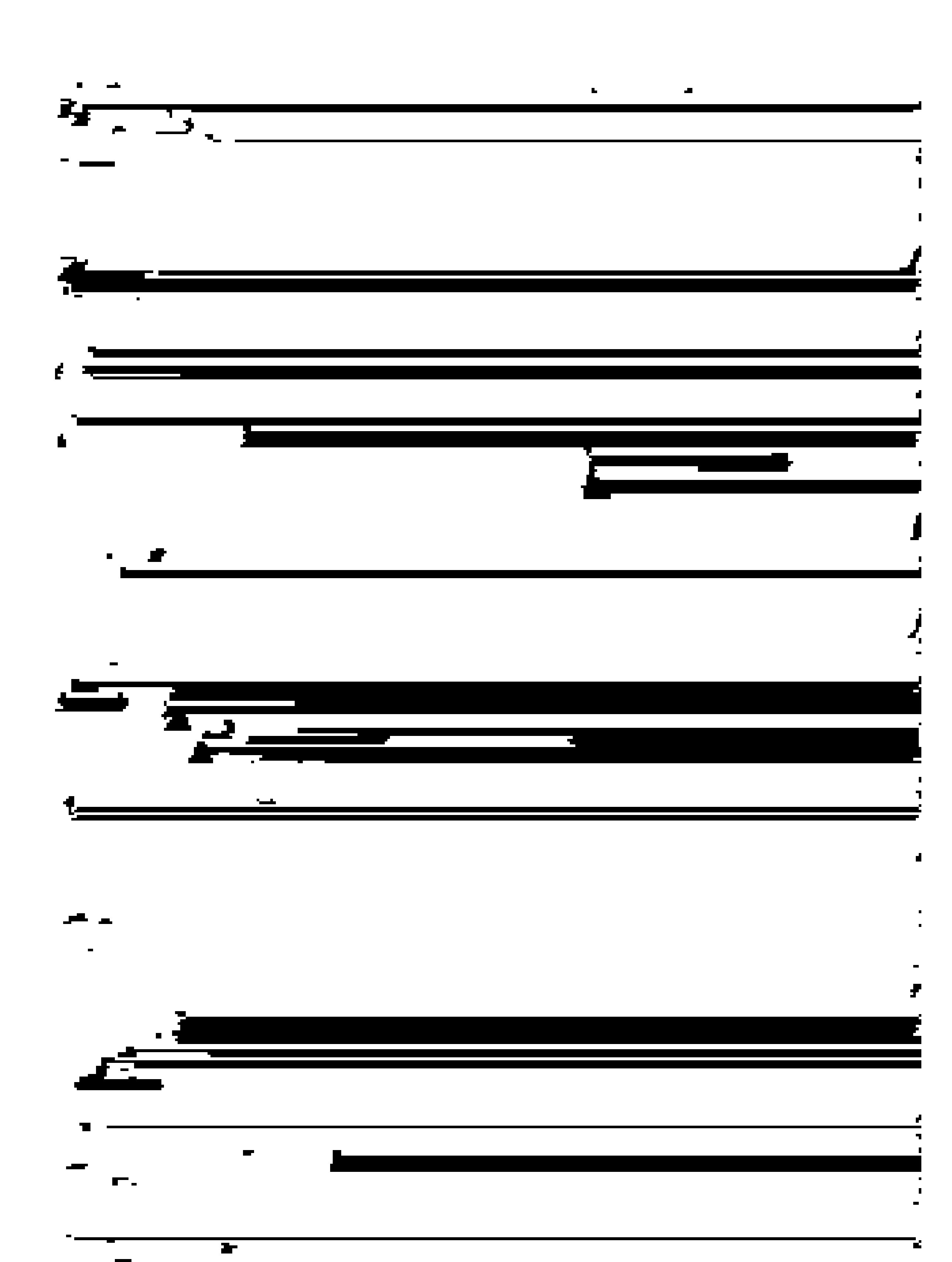
شعر ابي نواس واضح جداً ، وقد يكون هذا الوضوح مقللاً من ايحائه ، وحائلاً دون بقائه في النفس . فلذة شعر ابي نواس عابرة كأنها لذة النكتة ، انه يحاول ان يريك لا ان يحملك على ان تحلم .

وابو نواس يتراءى لي كأنه مركّب من جسد فقط ، جسد بلا نفس او نفس لا قيمة لها فيما بعد ، فهي آلة في يد اللهو والطرب . لا يذكرها بخير ، فكأنه لا يدرك الا بحواسه فقط . وان نظم في « التلبية » والزهد فاكراماً لعيني جنان ، ومعارضة لأبي العتاهية . ان ابا نواس آلة شعر ، يقول لك ما تريد شعراً ولا تدري مدى تأثره بما يقول . هو عارف — سطحياً — بعلوم دهره وقد ينتفع بها في شعره حين الحاجة .

لقد اقلّ ابو نواس من استعمال التعابير المعدّة ، فلا تجد بعضها في غير طردياته ، اما مواضيعه فواحدة تقريباً : خمرة وساق جميل مقرطق ، او ساقية غلامية . يشبه عمر في اعاداته ، واذا لم يدركها ما ادرك شعر عمر من ملل فلأن نفسية ابي نواس واخلاقه مرحة هازلة . ان عمر كرّر مواضيعه وقصصه متبعاً نسقاً واحداً ، اما ابو نواس فمسلّح بخيال أقوى ، وتعبير فيه كثير من الحلاوة والاغراء .

لقد ساعد تحريم الخمرة الديني قريحة ابي نواس فخلقت كثيراً من الصور والنكت الطريفة ، ولأجل هذا التفرّد نجعله فوق الاخطل في خمرياته . فهو شاعر الخمرة بلا منازع ، كما كان عمر شاعر المرأة ، وكلاهما قليل الحياء والمروءة .

ان صور ابي نواس لا تحصى ، وهي مستمدة من ملاحظاته ومطالعاته ومن نفسه الهازئة كما قلنا . يُضحك اذا هجا ، بضد زعيم المدرسة بشار الذي يؤلم ويُبكي . وابو نواس ، وحده ، هو الشاعر العربي الاسطوري له وجهان : وجه عامي واليه تنسب كل نكتة طريفة ، ووجه أدبي أحله مقاماً رفيعاً بين الشعراء الكبار .



ابو تمام ودعبل

هم اربعة شعراء ، ولكنهم صنفان مختلفان : ابو تمام وابن الرومي من مقلع واحد ، ودعبل والبحتري من أرومة تختلف اصولاً وفروعاً . فهذان عربيان لساناً وجناناً ، وصاحباهما ليس لهما من العروبة غير اللسان ، وان كان لأبي تمام ابن تيودوس صبغة اسلامية قلما تجدها عند الاعراب الاقحاح .

مات ابو نواس فانهارت بموته « مدرسة الخلعاء » ، وبكت الدوالي على شاعرها ، وانطوى بساط المرح ، وتحطمت الكؤوس العسجدية ، وفرّ الشعر من منطقة الحياة وتقلّص وانكمش حتى عاد الى ارستقراطيته وترصنه ، فامسى يقال في مناسبات لا يعني الشاعر منها الا ما تدره من مال . كان الشعر حافلاً بالوان عصره وزمانه يصور العاطفة الشاملة ادق تصوير فصار آلة كسب واستجداء بل مهنة من المهن الحرة . . . كان الشعر في الحقبة التي مضت بعيداً عن الدجل والرياء والنفاق لا ينبثق الا من نفس قائله ، فالشاعر يخالف ، ولا يبالي ، العرف والتقاليد ، ويتجاوز بلا خجل التخوم التي وضعها الشرع الديني والمدني . فجلّ ما يعنيه ان يقول شعراً يطرب له السامع ويصور له نفسه الأمارة بالسوء وما فيها من ميول مضطربة ، وشهوات متقدة ، لا تكبح بلجام ولا تردّها شكيمة فالخمرة ، وهي رجس من عمل الشيطان ، توقظ الحواس النائمة نومة اهل

الكهف .

انها فترة مرّت فانقطعت كل صلة بينها وبين الجيل الذي جاء بعدها . فقلّما تسمع ضحكة ، بعد تلك القهقهات ، في ديوان العرب . فهذا الشيخ ابو تمام وهو من « الرؤوس » لم تبن لنا سنّه قط . فهو ذو عينين ورائيتين تلتفتان الى خلف تبحثان ما خلّفه القدماء ولا يعنيه الا مضاهاتهم في الاغراب ، والصلابة ، واقتباس صورهم واخراجها محسّنة مجمّلة . وهو ذو عينين اماميتين تحدقان الى ما تقعان عليه فتلتقطانه بدقة وتخرجانه شعراً . ان فاتته الموسيقى فليست تفوته الصور والتعابير الطريفة والقبيحة التي لم يألفها الادب العربي . فأبو تمام زهيريّ في مديحه ، ترصن كذلك « المتألّه » وتوقر ما استطاع فردّ على الشعر وقاره وابهته . لم تفلت من بين شفتيه ابتسامة كأنه ما عرف غير الجد وليس الهزل من طبعه . فأبو تمام مقلد في مدحه ، ومبدع مجيد في وصف الانتصارات ، صوّر وقعة عمورية ، وفتح باب الملاحم لشاعر القومية العربية الذي جاء بعده .

ان وصف كتّاب الحرب ، اليوم ، للحرائق التي تشبّها غارات السلاح الجوي يوضح لنا ملحمة ابي تمام ، فنتذكر قول شاعرنا :

لقد تركت امير المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل ، وهوضحىً يشلّه وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها او كأنّ الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحى شحب
سماجة غنيت منا العيون بها عن كل حسن بدا ، او منظر عجب

أرأيت ما احلى هذه السماجة في عين المنصور ؟ فكم كنت تقرأ مثل هذا في حرب الطائرات .

ان قصيدة « السيف اصدق انباء من الكتب » لملحمة خالدة ،

واروع ابياتها :

تسعون الفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وقد فات تاريخ هذا البيت احد الكتّاب المصريين فتساءل عن العلاقة القائمة بين نضج التين والعنب وبين هؤلاء التسعين الفاً الذين نضجت جلودهم . وليست هذه اول مرة يبتلى بها ابو تمام ، وقد اجاب على ذلك بقوله لقارئه : لمَ لا تفهم ما يقال ؟ . .

واذا فتش راغب في تفهم اسرار « الرؤوس » عن نبوغ ابي تمام وجده في وصف المحسوسات وصفاً لا يدع شيئاً .

فهو اذا استولى على فكرة أتى على كل ما يقال فيها ، تعضده عيناه الأماميتان وتحمي ظهره العينان الخلفيتان بجنود من اللغة التي يستوعب اكثر مفرداتها .

ان لأبي تمام تعابير خلقها ، وهي ومضات عجيبة في ظلمات تلك العبقرية المدلهمة ، وقد سماها ابن الاثير الكلمات الجامعة ، وضرب مثلاً عليها « وطن النهى » في قول ابي تمام :

سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقال : فقوله وطن النهى من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن الرأس ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسدّ مسدّها .

اما انا — كما يعبّر ابن الاثير — فرأيت ان قوام فن ابي تمام هو في منحه الحياة لما لا حياة فيه ، واسناد الشيء الى غير ما هو له .

كان اكثر شعرائنا توكؤاً على المجاز ، فتوغل في هذه الغاية حتى بلغ اقصاها ، وأثار هذا معاصريه فهاجموه ، ولكن حبيباً غير هيابة ولا نكس فما بالى بهم ولا بمن جاء بعدهم من عبّاد القديم ، وان جاء حيناً

بالقبيح فمن له الحسنى فقط ؟

لا اخال قارئي الا قائلا : اعطنا بعض نماذج تؤيد بها زعمك ، قلت فاسمع :

نامت همومي عني حين قلت لها هذا ابو دلف ، حسبي به وكفى

واليك مثلاً آخر من القصيدة عينها ، واظنه ليس يعجبك لانه لم يعجبني :

لو لم تفتّ مسنّ المجد مذ زمن بالجود والبأس كان المجد قد خرفا

فهذا المجد المسنّ كاد يخرف لو لم يعد اليه ابو دلف شبابه ، ففتّاه غير محتاج الى ما احتاج اليه فورونوف . . . وهو يحاول في مكان آخر نفخ الحياة في اضعف الاشياء فيقول في الدمع :

اعّني افرّق شمل دمعي فانني ارى الشمل منهم ليس بالمتقارب

ويقول :

وما صار يوم الدار عذلك كله عدوّي حتى صار جهلك صاحبي

أرأيت كيف احيا العذل فصيّره عدواً كما صيّر الجهل صاحباً ؟

وفي القصيدة عينها يحيي العطايا ايضاً فيقول :

تكاد عطاياه يجنّ جنونها اذا لم يعوّذها بنغمة طالب

ويصف ممدوحه بالبأس فيتخيل ويخرج صورة ، لك ان تقول فيها شئت ، ولكنها ، كيف كانت ، تؤيد زعمي :

فان المنايا والصوارم والقنا اقاربكم في الروع دون الاقارب

ثم يتصور مكارم ممدوحه فيراها :

مكارم لجّت في علو كأنما تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

هذا بعض ما وجدته في هذه القصيدة التي مدح بها ابا دلف القائل فيه علي بن جبلة :

انمـــا الدنيا ابو دلف　　بـين مبـداه ومحتضره
فاذا ولّى ابو دلفٍ　　ولّت الدنيا على اثره
كل من في الارض من عرب　　بـــين باديه ومحتضره
مستعيرٌ منك مكرمة　　يكتسيها يوم مفتخره

وقد رووا ان هذين البيتين الاخـــيرين أحفظا المأمون ، وهو اعظم الخلفاء حلماً ، فسلّ لسان الشاعر من قفاه . . .

اما وقد عرفت ابا دلف ، وقرأت الابيات المقولة فيـــه ، فاخالك ادركت مـــا حمل ابا تمام على الجد وراء هذه الصور . فلندع شعره في ابي دلف راوين لك بعض امثلة من هنـا وهنالك لتسير بالفانوس الذي يجب ان يُدرس ابو تمام على ضوئه .

قال ابو تمام متخيلاً الصيف :

من يزعم الصيف لم تذهب بشاشته　　فغير ذلك امسى يزعم الجبـل

فاقترض هذه الصورة البحتري من ابن عمه — وانا اشك جـداً بطـــائية ابي تمام لان تفكيره غير طائي — والبسها الربيع حين قال :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً　　من العجب حتى كاد ان يتكلما

وفي هذه القصيدة يهب ابو تمام الحياة للحاجات والامل فيقول :

ان يسّر الله امراً اثمرت معه　　من حيث اورقت الحاجات والامل

ولست اذكر لك : مات مضرب سيفه ، ولا الحفاظ المر ، فهـــذه القصيدة يعرفها كل متأدب ، ولكنني اعطيك مثلاً آخر منه ابياتاً وجّهها الى عيّاش ، وعيّاش هذا كافور ابي تمام ، وان لم يحسن ابو تمام مـــا احسنه ابو الطيب .

قال ابو تمام يعاتبه على الابطاء :

الفطر والاضحى قد انسلخا ولي　　امل ببابك صـــائم لم يفطر

عام ولم ينتج نـداك وانمـا تتوقـع الحبلى لتسعة اشهر
قصّر ببذلك عمر مطلك تحوِ لي حمـــداً يعمّر عمر سبعة انسر

اظنك ادركت ما فيها من منتوجات الشاعر التي حدثناك عنهـــا . وابو تمام ثالث اثنين ، هما ابو نواس والمتنبي ، وقد طاشت سهامهم جميعاً في الكنانة . . .

واحب اخيراً ان اريك كيف يتصور الشاعر فيقول :

واياِمنـــا خزر العيون عوابس اذا لم يخضهـا الحـازم المتلبب
اذا اليوم امسى وهو غضبان لم يكن طويل مبالاة له حين يغضب

ان ابا تمام لجريء على الكلام يتصرف به كما يشاء ، ولذلك تراه يأتي بلفظة يستعمل الناس غيرها حيث يستعملها هو ، فيقول :

نرمي باشباحنا الى ملك نأخذ من ماله ومن ادبه

يفعل هذا ليقول فيه احد شراحه : ولكنه يريد ان يكون غير الناس .

وهو في كل ناحية من نواحي الشعر يتوكأ على عصا التشخيص ، فاذا تغزل قال لحبيبه :

لهف نفسي عليّ لا بل عليكا ان تجول العيون في خديكا

فكأنّه اخذ هذا من قول ابي نواس :

في صحن خدّ لم يغض ماؤه ولم تخضه اعـــين النـــاس

واذا خاطب صاحبه « ابا جعفر » جعل الحسن شخصاً يعقل او ملكاً يغزو فيقول :

يا ابا جعفر اقرّ لك الحسن وحلّت جيوشه في ذراكا
يا ابا جعفر خلقت بديعاً فاق حسن الوجوه حسن قفاكا

رحم الله ابا جعفر هذا وغفر لأبي تمام . . . واذا تحريت الصور التي

خلقها ابو تمام وجدتها كثيرة ، وكلها من ملتقطات تلك العين الحادة التي لا يفلت منها شيء ، فيستوعبه جنان يستطيع اخراجه ولو معقداً احياناً .

اقرأ وصفه « الحلة السابرية » التي كساه اياها محمد بن الهيثم ، واقرأ وصفه قلم ابن عبد الملك الزيات الكاتب الوزير ، واقرأ وصف الفرو ، واقرأ رثاءه لابنه واخيه ، ذلك الرثاء الجاف ، لتعلم ان ابا تمام شاعر بعينه اكثر منه بقلبه ، فكأنه كان يشهد مرض ابنه ونزع اخيه ليلتقط ويصف .

واقرأ ايضاً وصفه احراق الافشين لتعلم ان شاعرنا كوافد البراجم يحب رائحة القتار ، ويتهلل لرؤية « الشاورمه » .

واذا شئت ان تعلم ما توحيه الطبيعة لأبي تمام فاقرأ وصفه الربيع فمن كل ما ذكرنا تعلم انه كان السبّاق الى « التشخيص » لا ابن الرومي كما يزعم بعضهم :

ان الربيع اثر الزمان لو كان ذا روح وذا جثمان
لكان بسّاماً من الفتيان

ثم ينظر فيها الى ما وراء القبر فيقول :

عجبت من ذي فكرة يقظان رأى جفون زهَر الالوان
فشكَّ ان كلَّ شيء فان

ويتهم ابو تمام بشن الغارة على معاني القدماء وسرقتها . فكان يزعم معاصره دعبل ان ابا تمام يتبع معانيه ويسرقها . روى له محمد بن صابر الازدي شعراً لأبي تمام وقال له : كيف تراه يا دعبل ؟ فأجاب : احسن من عافية بعد يأس . ولما اخبره انه لأبي تمام اجاب : لعله سرقه .

ان شعراءنا ، وشعراء الامم كلها ، قد يحومون حول صورة فتتعاورها اقلامهم ، كما سترى صورة « المفتاح » هدفاً لثلاثة اقلام كبار .

قال بشار :

اسلم وحيّيت أبا الملدّ   مفتاح باب الحدث المنسدّ

فتناولها بعده ابو تمام وقال في بائيته : والله مفتاح باب المعقل الأشب .

وأخيراً جاء الشاعر الضخم فقال ، وكأنّه ينظر الى مفاتيحنا الحديثة :

ومن طلب الفتح الجليل فانما   مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

فكّر قليلاً يدلّك هذا المفتاح على الكثير من نفسية الشعراء الكبار الثلاثة ، فأعمل فكرتك . واذا تأملت بعض التأمل ، وكنت من القارئين ، تساءلت لماذا قال المتنبي الفتح الجليل ولم يقل الفتح المبين مع انهما على كل لسان تدور .

ان صاحبنا ابا الطيب كضريبه ابي تمام يحب الخلق ويبتعد عن المألوف . انه يحب الضخامة والجلجلة ولهذا آثر الجليل على المبين . ثم الا يذكّرك نعته المفاتيح بالبيض الخفاف بمفاتيح اليوم الصغيرة التي تفتح الابواب جميعاً ؟

ان ابا تمام هو من الشعراء المحكّكين ، من السلالة الزهيرية المتحدة الجذور والفروع في الادب العربي ، ولو لم يقل الشعر في المواضيع الجديدة التي اشرنا اليها لما كان الا شاعراً مدّاحاً نوّاحاً كما قال فيه ابن عمه البحتري ، ولم يبق له ما يميزه الا صناعة المطابقة التي نعدها نحن اليوم تكلفاً وتعملاً ، ولكن كان له حظ فوصف ما وصف ، فظل ذكره حياً وسيبقى الى حين .

اما مخيلته فمن الطراز الاول . لا يتكلم الا بالصور ، واذا فاته الرقص المرح فلم تفته الخطوات الثابتة الجبارة . ففي شعر الطائي رائحة ثقافة لا عهد للشعر العربي بها من قبل ، ولا غرو فقد نشأ وشب في شرخ صبا الفلسفة العربية . والكلمة الاخيرة هي ان السيد الشريف الرضي « شخّص » مثل ابي تمام واستعار مثله فصار في نظر احدنا شيخ الطريقة الرمزية

وواضع اسسها قبل بودلير وغيره من شعراء الغرب . . .

اما معاصره دعبل وعدوه الالد فكان اكثر عروبة في اللسان والجنان من صاحبه . كان هذا الشاعر خالعاً العذار ولكن على غير طريقة الخلعاء الذين تقدم ذكرهم . روى صاحب الاغاني : خرج ابراهيم بن العباس ودعبل بن علي واخوه رزين في نظرائهم من اهل الأدب رجّالة الى بعض البساتين في خلافة المأمون ، فلقيهم قوم من أهل السواد من اصحاب الشوك فأعطوهم وركبوا تلك الحمير فأنشأ ابراهيم يقول :

اعيضت بعد حمل الشوك أحمــالاً من الحرف
نشاوى لا من الصهبـاء بل من شدة الضعف

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك تولّون الى قصف
تساوت حـالكم فيه ولم تبقوا على خسف

فقال دعبل :

واذ فات الذي فات فكونوا من بني الظرف
ومرّوا نقصف اليوم فاني بائع خفي

فانصرفوا معه فباع خفه وانفقه عليهم . . .

لقد تظرّف دعبل فلم يفلح ، فالظرف سجية ليست من طبع ابي علي ، بل « الشطارة » طبعه الاصيل ، قتل صيرفياً طمعاً بصرّة رآها معه فاذا بها ثلاث رمّانات . . . ثم صار شاعراً فغلبت سجية اللؤم على شعره فقال فيه الاصفهاني : شاعر متقدم مطبوع خبيث اللسان لم يسلم عليه احد من الخلفاء ولا من الوزراء ولا اولادهم ، ولا ذو نباهة أحسن اليه او لم يحسن ، ولا افلت منه كبير احد . ولم يزل مرهوب اللسان وخائفاً من هجائه للخلفاء ، فهو دهره كله هارب متوارٍ . كان يقول : لي خمسون

سنة أحمل خشبتي على كتفي ادور على من يصلبني عليها فما احد يفعل ذلك . وما سلم الا لأن له حزباً سياسياً يحميه ، فـكان يدافع عن العلويّين ويحتمي عند اهل اليمن .

مع هذا الشاعر العربي الخالص بلغ الهجاء الذروة . كان مع الاخطل وجرير والفرزدق هجاء اموات او هجاء اناس احياء كالاموات فصار هنا هجاء ملوك ووزراء كالملوك . صار هجاء سياسياً فكان دعبل يناضل غضبان على السلطان وحكومته يريد تقويمه واصلاحه . لقد بدت طلائع هجاء دعبل السياسي مع بشار العقيلي ، ولكنه بلغ حدّه وتجاوز المدى الابعد مع هذا الشاعر الشاطر . امّا هجاء الوجه فابتدأ مع دعبل وتمّ عند ابن الرومي . قال دعبل يهجو وجه صالح بن عطية مخاطباً المعتصم :

اضرب بـه جيش العدو فوجهه جيش من الطاعون والبرسام

وقال ابن الرومي :

وجهك يا عمرو فيـه طول وفي وجـوه الكلاب طول

وفي الشاعرين يقول المعري :

لو ينطق الدهر هجـا نفسه كأنه الروميّ او دعبـل

فجميع الخلفاء العباسيين نعموا بهجاء هـذا الشاعر الفـذ ، وخير مـا نذكره في هذا الكتاب الضيّق قوله فيهم جميعاً :

ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم كتب

كذلك اهل الكهف في الكهف سبعة خيار اذا عُدّوا وثامنهم كلب

واني لأعلي كلبهم عنك رفعة لانك ذو ذنب وليس له ذنب

كان المأمون رحب الصدر تتسع اخلاقه للطغيان الادبي — وان سلّ لسان ذاك الشاعر من قفاه كما مرّ بك — فلو كان دعبل اليوم في ارقى دولة واوسعها حرية وهجا ملوكها او رؤساءها كما هجا الخلفاء لمـا

سلم رأسه ، ومع ذلك يروون ان المأمون قال لاحدهم حين استأذنه بالمجيء برأس دعبل : لا . هذا رجل فَخر علينا فافخر عليه ، فأما قتله بلا حجة فلا .

وعندما جاء ابراهيم بن المهديّ المأمونَ يحرّضه على دعبل ضحك المأمون وقال : انما تحرضني عليه لقوله فيك :

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينيّة يلتذها الامرد والاشمط
والمعبديّات لقوّادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفه البربط

ولما قرأ المأمون ابياته في ابراهيم هذا :

نفر ابن شكلة بالعراق واهله فهوى اليه كل اطلس تائق
ان كان ابراهيم مضطلعاً بها فلتصلحن من بعده لمخارق
ولتصلحن من بعد ذاك لزلزل ولتصلحن من بعده للمارق
أنّى يكون وليس ذاك بكائن يرث الخلافة فاسق عن فاسق

ضحك ، وأمّن دعبلاً واستدعاه واحسن اليه . ولكن الشاعر لم يسكت وشاعت له ، بعد ذلك ، ابيات يهجو بها المأمون . . .

والغريب ان يولّى شاعر لصّ كدعبل كما وُلّي ابو تمام ، والاغرب ان يموت ابو الطيب وفي نفسه شوق الى الولاية ، واشدّ من هذا غرابة ان يهجو دعبل المطّلب الذي ولاّه أمرّ الهجاء واقذعه :

وتلصق مصر بك المخزيات وتبصق في وجهك الموصل
وعاديت قوماً فما ضرّهم وشرّفت قوماً فلم ينبلوا
شعارك عند الحروب النجاء وصاحبك الاخور الافشل
فانت اذا ما التقوا آخرٌ وانت اذا انهزموا أوّل

ومن العجب العجاب ان تكون اخلاق الشاعر كما عرفنا ويقول قصيدة تفيض عاطفة وبلاغة وقوة كقصيدته الخالدة التي مطلعها :

مدارس آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍ مقفر العرصات

وان يقول في الغزل مثل قوله :

اين الشباب وأية سلكا لا اين يطلب ضلّ بل هلكا
لا تعجبي يا سلمَ من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعري كيف يومكما يا صاحبيّ ، اذا دمي سفكا
لا تأخذوا بظلامتي احداً قلبي وعيني في دمي اشتركا

انني ليعجبني كل طريف واياه اقصد ، ولهذا تراني اخالف غيري ، فأجعل دعبلاً من الرؤوس وهو عندي من كبارها ، اللهم في الهجاء الذي جاء فيه بالبدع .

اذا قرأت شعر دعبل فلا ترى الا عريان الكلام ، ومع ذلك تجد شعره حياً ينبض لان روح قائله الثائرة المتمردة تتردّد فيه .

كان الشاعر عدو ابي تمام ومع ذلك كان صديقاً حميماً لابن عمه البحتري ، وميتة دعبل وابي تمام كميتة جرير والفرزدق وشوقي وحافظ — تاريخياً — فرثاهما البحتري بهذه الابيات الثلاثة التي لا تدلنا على شيء غير التاريخ والجغرافيا :

قد زاد في كلفي وأوقد لوعتي مثوى حبيب يوم مات ودعبل
اخويّ لا تزل السماء مخيلة تغشاكما بسماء مزن مسبل
جدث على الاهواز يبعد دونه مسرى النعيّ ورمّة بالموصل

ابن الرومي

لو راعينا الانواع الادبية وجب علينا ان نشدّ ابن الرومي وابا تمام في قرَن ، ودعبلا والبحتري في قرَن . ولكننا نظرنا الى الزمان والى ما اعتبره غيرنا من القدماء ، ناهيك ان تداعي الافكار يذكّرنا دعبلا الخزاعي كلما ذكرنا حبيباً الطائي ، ويجرنا الى تذكر لحية البحتري التي تغنّى بها زميله ومعاصره ابن الرومي ، حتى كاد يتفرد هذا الشاعر بصورة « المخلاة » وان لم يكن المبدع الاول لهذه الصورة .

اذا رمنا المقابلة بين شاعرين رأينا المقابلة ميسورة جـــداً بين ابي تمام وابن الرومي ، فكلاهما يحتفل للمعاني ايما احتفال ، وكلاهما يحاول اخراج « صورته » كاملة الخطوط تامة الالوان وان تنطّس ابن الرومي اكثر . لا ارى ابن الروميّ في اخراج صوره الا كماصّ قصب السكر ، يظل في عراك مع تلك الألياف حتى يمتصّها . اما ابو تمام فلا يفرّط في عمله هذا كل الافراط ، ولا يهمل البلاغة اهمال ابن الرومي ، بـــل يبالي باللغة والموسيقى مبالاة اخرجه تشدده فيها من زمرة المطبوعين ، واحصاه بـــين الشعراء المحككين ، بل المتعمّلين لما عاناه من تصيّد البديع .

لا ريب في ان ابن الرومي شاعر كبير ولكن بعض المعاصرين بالغوا في تكبير صورته لان « ثمرهم اشبه باشواكه وحطبه اليابس » . اتخذوا من رفع مقام الشاعر ستراً يغطي عيب شعرهم ، ويا ليت لهم معنى واحداً من

معاني ابن الرومي فتختفي معايبهم ، ولكنهم فازوا بالبليد من تعبيره وما حصلوا حتى على الدون من تفكيره . لم تغفل العرب شأن ابن الرومي الا لأسباب : منها ان الشعر عندهم موسيقى اولاً ، والشعر عند كيوركيس استقامة وزن ومعنى ، ولهذا نراه اذا ظفر بمعنى طريف فلا يحصره في بيت واحد بل يشرحه بابيات تليه ، ويظل يفعل ذلك حتى يفقده روعته ، ويخسر جماله الفني ، فيبتعد صاحبه في هذا عن العرب الذين لا تروقهم الثرثرة ولا يحبون الا الايجاز .

واليك مثلاً من شعره يعرّفك بالذوق العربي . اكثر العرب لا يروون لابن الرومي الا هذين البيتين في العدوّ والصديق :

عدوّك من صديقك مستفاد   فلا تستكثرنّ من الصحاب
فان الداءَ اكثر ما تراه   يحول من الطعام او الشراب

وتركوا له الابيات الخمسة التي تليها لأنها تعليل وشرح . ولا بأس علينا ان اوردنا مثلاً آخر :

واخال الايوان ، لو كان يسعى   جاء سعياً اليك قبل الأذان
ولوافاك كي تمهرج فيه   غير ان ليس ذاك في الامكان

ارأيت الى ركاكة البيت الثاني الذي لم يدل الا على حماقة صاحبه وحبه الاطالة ، التي يسميها « اصحابنا » نفساً طويلاً ؟ فلو شئت ان انفي ما في طويلاته من مثل هذه الحماقات لما ابقيت الا ربع ديوان ابن الرومي ولقلت له في قصائده تلك ما قاله هو لصاحب اللحية : القها عنك يا طويلة .

ولكن اصحابنا قعدوا على طريق الادب يضربون بالرمل ، فعدّوا هذه الاطالة الشنيعة ارثاً يونانياً ، واليونانية بريئة من مثل هذه الثرثرة . أرشدتهم الى هذا الزعم كلمة رومي فالصقوا بصاحبهم المنطق ، والعقل ، والخيال ، والتفكير ، ووحدة القصيدة ، حتى كادوا يعدون ابن الرومي شاعراً يونانياً .

قد يكون لأصل ابن الرومي بعض العلاقة بشعره ، وقد يكون تفكيره ابي تمام يحملنا على الشك في عروبته ، ولكن هـذا لا يخرج الشاعرين من نطاق الشعر العربي . لست اعزو الى « الجنس » الا شيئاً قليلا من هـذا ، فشعراء الامة الواحدة أشكال واجناس ، كما انك تجد - اذا تأمّلت - لكل شاعر في كل امة مشابهاً في امة أخرى .

لست أعزو وصف ابن الرومي الدقيق الى أصله ، فشراهتـه ونهمه وحرمانه حملته على وصف تلك المأكولات فقال في وصف الدجاجة :

وسميطة صفراء دينارية ثمناً ولوناً زفّها لك حزور
عظمت فكادت ان تكون اوزّة ونوت فكاد اهابها يتفطر
ظلنا نقشّر جلدها عن لحمها وكأن تبراً عن لجين يقشر

ومدح الموز بقوله :

للموز احسان بلا ذنوب ليس بمعدود ولا محسوب
يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلع الى القلوب

ووصف العنب فاجاد اجادة يحسد عليها :

ورازقيّ مخطف الخصور كأنّه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور الا ضياء في ظروف نور

واذا شئت ان تتذوّق مثلي جمال هذه الصورة فتعال الى عين كفاع في صدر ايلول الذي يقول فيه ابن الرومي ايضاً :

قل فيه ما شئت من شهر تعهّده في كل يوم يـد لله بيضاء

وقال صاحبنا في وصف القطائف :

قطائف قـد حشيت باللوز والسكّر الماذي حشو الموز
تسبح في آذيّ دهن الجوز سررت لما وقعت في حوزي
سرور عبّاس بقرب فوز

ولست اذكر لك وصفه قالي الزلابية ، ولا وصفه الخباز ، ولا قوس قزح ، فهي معروفة من كل متأدّب ، ولكنني أروي لك ابياتاً تدلّك على ان الحياة عند ابن الرومي أكل وشهوات ، ثم شعر يصفها حتى كاد ان يكون من ناظمي كتاب « استاذ الطباخين » شعراً ، واليك البرهان من شعره :

يا سائلي عن مجمع اللذات سألت عنه انعت النعّات
فهاك ما انشأته من قصّه مسلماً من شوبة ونقصه
خذ يا مريد المأكل اللذيذ جرداقتي خبز من السميذ
لم تر عين ناظر مثليهما فقشّر الحرفين عن وجهيهما
حتى اذا ما صارتا طفاطفا اضف الى احداهما تفائفا
من لحم فرّوج ولحم فرخ تدور جوذاباهما بالفسخ
واجعل عليها اسطراً من لوز معارضات اسطراً من جوز
اعجامها الجبن مع الزيتون وشكلها النعنع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن مقسومة كأنها وشي اليمن
واعمد الى البيض السليق الاحمر فَدَرِّهم الوسط به ودنّر
وترّب الاسطر بالملح ولا تكثره ولكن قدراً معتدلا
وردّد العينين فيه لحظا فان للعينين منه حظا
ومتع العين به مليّا واطبق الخبز وكلْ هنيّا
املأ ثناياك واكدمْ كدما تسرع فيما قد بنيت هدما
لهفي عليها وانا الزعيم بمعدة شيطانها رجيم

ان قوله « كل هنيّا » ذكرني بكلمة « صبّ وقدّمْ » في كتاب استاذ الطباخين . . . واحاول ان اعنف ابن الرومي على هذه السخافات فاسمعه

يناديني من وراء العصور :

لا تلحني في المنطق السخيف فانني في حالة اللهيف
وأحوج الناس الى الرغيف

ان تطيّر ابن الرومي حوّله صوب هذه الاشياء فوصف المأكولات كثير والطبيعة قليلاً ، كما صرفه تشاؤمه الى هجو اشكال الناس ، فصوّرها تصويراً هزلياً ، فقال في ذم اللحية الطويلة :

ان تطل لحية عليك وتعرض فالمخــالي معروضة للحمير
علّق الله في عذاريك مخلاة ولكنهــا بدون شعير

كما قال في وجه عمرو :

وجهك يا عمرو فيه طول وفي وجوه الكلاب طول

وقال في الانف الطويل :

حملت انفاً يراه الناس كلهم من رأس ميل عياناً لا بمقياس

واذكر لك هجوه طبيباً يستحقه الكثير من محترفي الطب

أفنى وأعمى ذا الطبيب بطبه وبكحله الأحياء والبصراء
فاذا مررت رأيت من عميانه أممــاً على امواته قرّاء

وتطيّر ابن الرومي جعله يتخيل الاشياء اشخاصاً يأمن شرها ، واحب الطبيعة لكرهه بنيهــا ، الذين ازدروا شعره لتطويله الممــلول المسلّح بالايضاحات التي ابعدتــه عنهم ، حتى جعل مديحه قصصاً واحاديث . اذا قرأت قصيدته « البائية » في مدح احمد بن ثوابة ضجرت كما ضجر اكثر ممدوحيه في ذلك الزمان ، فردوا اليه مديحه فهجاهم لاجل ذلك امرّ هجاء :

رددت اليّ مدحي بعــد مطــل وقــد دنست ملبسه الجديــدا
وقلت امدح به من شئت غيري ومن ذا يقبل المدح الرديــدا
ولا سيما وقد أعقبتَ فيــه مخــازيك اللواتي لن تبيــدا

وما للحيّ في اكفانٍ ميتٍ لبوس بعدما ملئت صديدا

وابرز نواحي شعر ابن الرومي واعظمها تأثيراً في النفس هي تلك الناحية الابدية الازلية ، ناحية التلهف على الشباب واستقبال المشيب أسوأ استقبال . لم ار ضريباً في هذا لابن الرومي الا عمنا الاخطل ، القائل في النساء :

واذا دعونك عمهن فانه لقب يزيدك عندهن خبالا

كان ابن الرومي محبّاً للحياة اشد حب ، وهو في هذا ايضاً يتفق مع التغلبي . كلاهما يتصوّر نفسه قد مات فيقول في ذلك شعراً ، كما تصوّر ذلك مثلهما شاعر غربي هو سيلي بريدون فقال قصيدة مشهورة .

كان ابن الرومي يتبع المغنيات لامرين : الجمال ، وحسن الصوت . وصف المغنية « وحيد » اصدق وصف وامكنه وفصّل وقوعه في شباك حبها تفصيلاً دقيقاً جداً ، فهو ابداً في دائرة هواها لا يخرج منها لحظة ، والشقية تلعب بالشاعر لعب الهرّة بالفأرة . يحتار ابن الرومي في تحليل حب وحيد فيقلبه على جميع وجوهه ، فيقول فيه كل ما يقوله علماء النفس في الهوى واحتلاله ساحة الشعور احتلالاً انكليزياً . وله في قصيدة « المهرجان » وصف للمغنيات رائع جداً يدل على خيال هو من القوة في الذروة ، ولو سلّح هذا الخيال بموسيقى البحتري لكان صاحبه سيد الشعراء . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، قال خير شعره في وحيد التي عشقها ، وبستان التي احبها ، ومظلومة التي هام بها ، واني اذكر بيتاً قاله في رثاء بستان يسوى عشراً من قصائده :

انا الى الله راجعون لقد غال الردى سيرة من السير

ولكنه يغالي في هجو المغنيات الأُخَر فيقول في احداهن :

فاذا غنت بدا في جيدها كل عرق مثل بيت الأرضَة

ويقول في غناء قينة أخرى :

غنّت فمسّ القلب كل كرب　　واستوجبت منا أليم الضرب
لها فم مثل اتساع الدرب　　قد أصدأت سمعي وغمّت قلبي

ويقول في مغنية اسمها شنطف

شنطف يا عوذة السموات　　والارض وشمس النهار والقمر
صوّرك المارد اللعين فاعطتك　　يداه مقــابح الصور
بل انت فوق المنى ، اذا ذكر　　القبح ، وفحش العيوب والقذر

ويقول في واحدة غيرهن :

لها غناء يثيب الله سامعه　　ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم
ظللت اشرب بالأرطال لا طرباً　　عليه ، بل طلباً للسكر والنوم

ثم يجمع مغنيتين معاً فيقول فيها :

دريرة تجلب الطربا　　ونزهة تجلب الكربا
تغني هـــذه فيظلّ　　عنك الحزن قد عزبا
وتعوي هذه فتطيل　　منك الحزن والوصبا

ومن يولع هذا الولع بربّات الطرب ، وسيدات « التخوت » في عصرهن ، ومن يهاجم هجوماً لا هوادة فيه من يجلسن على سرير الغناء ولا يصلحن له ، فلا شك انه يبكي شبابه بتوجع ابن الرومي وتفجّعه ، فهو بحق شاعر الشباب المفقود . انه يخـــاطب ممدوحه ، طالباً ان تأتيه الجائزة الى البيت لانه يخاف البحر ويخشى البر حتى امسى يخاف كل شيء لمـــا حلّ به من بلايا ومصائب ، ولو لم يحلّ به غير مصيبة فقد الشباب لاستحق العذر من الكرام :

ومن لم يصب الا بشرخ شبابه　　لكان قد استوفى جميع المصائب

ولا ريب ان الجائزة قد ابطأت ، كما هي العادة ، فنسمعه يقول :

جعلت فداك لم اسألك ذاك الثوب للكفن
سألتـــكه لألبســه وروحي بعد في البدن

وهو يطلبه منه ويريده جميلاً متيناً لا كالذي يقول فيه :

طيلسان اذا تنفست فيـــه صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
تتغنّى احـــدى نواحيه صوتاً فتشق الأخرى عليـــه الجيوبا
فاذا مـــا عذلته قال مهلاً لا يكون الكريم الا طروبا

ان ابن الرومي على املاقه وعدمه يحب الحياة ، ولا تحدثه نفسه بالرحيل . هو مقيم برغم انف الكوارث والدواهي . ان صرخته على الشباب لا ينقطع صداها من زوايا نفسي ، فهي صادرة من قلب مقروح كقلب مـــدام دي نواي :

أأفجع بالشباب ولا اعزّى لقد غفل المعزّي عن مصابي

ومن يبكِ الشباب فلا شك في انه يذم الشيب ، وهكذا فعل ابن الرومي كما فعل الاخطل قبله ، فقال :

لما رأت بدل الشباب بكت له والشيب ارذل هـذه الابـدال
هل للشباب الذي قد فات مردود ام هل دواءٌ يرد الشيب موجود

ولكن ابن الرومي يبكي شبيبته ويزيد قائلًا :

لا تلح من يبكي شبيبته الا اذا لم يبكها بدمِ

ويقول في الشباب والمشيب والخضاب :

عجباً للشباب يرمي فيصمي وظباء الانيس عنه رواضِ
والمشيب البريء يعرض عنه او يلاقى بجفوة وانقباضِ
وغنـاء الخضاب عن صاحب الشيب غناء الرقى عن المراضِ
ملبس فيه فرجـــة من غرور وهو باقٍ ، وترحة وهو ناضِ
خدعة ثم فزعـة ان هـذا لحقيق بكثرة الرّفاضِ

وظاهر القول يدلّ على ان الاخطل حين يطلب دواء يردّ الشيب فهو لا يطلب الخضاب ، بل القوة التي تذهب بذهاب الشباب والتي من اجلها قال في النساء :

اعرضن لما حنى قوسي موتّرها وابيضّ بعد سواد اللمة الشعر
ما يرعوين الى داعٍ لحاجته ولا لهن الى ذي شيبة وطر

اما ابن الرومي فيرى الشيب حداداً على الشباب :

والا فما يغرو امرؤٌ بخضابه أيطمع ان يخفى شباب مدلس
وكيف بأن يخفي المشيب لخاضب وكلّ ثلاث صبحه يتنفّس
وهبه يواري شيبه ، أين ماؤه وأين أديم للشبيبة املس

ثم يصرخ صرخة الاخطل ، فتخالها زفرة تصعّدت من صدر واحد :

أأيام لهوي ، هل مواضيك عوّد وهل لشباب ضلّ بالامس منشد

ويسلّم امره الى من يعنيه الامر فيقول :

لو يدوم الشباب مدة عمري لم تدم لي بشاشة الاوطار
كل شيء له تناهٍ وحدّ كل شيء يجري الى مقدار

ثم يتمنّى فيقول :

ليت شباب الفتى يدوم له ما عاش او ينقضي مع الوطر
لكنّه ينقضي واربته في القلب مثل الكتاب في الحجر

واخيراً يقعد حسيراً في درب الغانيات ويصيح صياح ابن طيا للسيد بعد ان ابصر ، فيقول :

بان الشباب فلا يد تحوي ولا عين تشير
ولقد اسرت به القلوب فقلبي اليوم الاسير

ثم يستكين فيعذرهن على الاعراض قائلاً :

اعر طرفك المرآة وانظر فان نبا بعينيك عنك الشيب فالبيض اعذر

اذا شنئت عين الفتى وجه نفسه فعين سواه بالشناءة اجدر

هذه حرقة الشيخ ذي النفس الخضراء ، فعينه بصيرة ويده قصيرة ، والدنيا أدوار .

وشاعرنا منكاح مزواج يتمنى النساء دائماً ويغضب ان رآهن في حوزة غيره ، فيلجأ الى فنه يستنجده ليخفّف من عرام حنقه فيقول في هذا كلاماً يلبسه خير حلة بعد الابتذال :

شرط خولوا عقائل بيضاً لا باحسابهم بل الانساب

فاذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الظباء غير الكلاب

لم اكن دون مالكي هذه الاملاك لو أنصف الزمان المحابي

لست استقصي تحرّقات ابن الرومي على النساء وما قال فيهن فيخرج بحثي عن حده ، ولكنك متى عرفت انه يتخيل الطبيعة امرأة ، ادركت مدى شهواته :

تبرّجت بعد حياء وخفر تبرّج الانثى تصدّت للذكر

وما ارى الطيرة عنده الا نوعاً من الغيرة والحسد ، ولكنها بصورة اخرى . فلم يسبب كره ابن الرومي لمعاصريه الا تقصيره عن التهام ما يعرض في اسواق بغداد من هذه البضاعة . فها هو ينظم الشعر لأحدهم مستعيناً على الزفاف ، فاسمعه يقول

سميّ الخليل اياك أدعو دعوة يمّمت سميعاً مجيبا

أمة من اماء طولك أجمعتُ على نقلها الي قريبا

ما تزوجتها على غير تأميلك فانظر ، أجائز ان اخيبا

عجيب أمر شاعرنا وأيّ عجيب ! يستجدي الرغيف هاتفاً :

أيلتمس الناس الغنى فيصيبهم وألتمس القوت الطفيف فيلتوي

فلا ألومه ، ويطلب الثوب فلا اعنّفه ، اما ان يطلب تكاليف زفاف

وهو جوعان ، فهذا غريب . . . لقد كدت اعذر اناساً جوّعوه وحرموه واناساً كانوا يعبثون به . لم ارَ مثله رجلا ، فهو كما يقول مثلنا : دجاجة منقارها فولاذ .

هذه امرأة تغتصب داره فيصيح :

أجرني وزير الدين والملك انني　　اليك بحقي هارب كل مهرب
فلا تسلمنّي للأعادي وقولهم　　الا من رأى صقراً فريسة ارنب

ثم يتخطّى — ولكن مرة واحدة — من التغزل بالحور الى التغزّل بالولدان فيقول في واحد قولاً يلمّح فيه الى داهية العرب :

ليت شعري ، اسحر عينيك داء　　القلب أم نار خدك الوهاج
ايها النـاس ويحكم هل مغيث　　لِشَجٍ يستغيث من ظلم شاج
مَن مجيري من أضعف الناس ركناً　　ولعينيه سطوة الحجّـاج

ان البيت الاول لا يدلني على كلف ابن الرومي بالالوان كما دلّ غيري ، والنظر الادبي قد يختلف . وبعد كل هذا فابن الرومي في نظري شاعر الشباب المفقود ، والمطبخ المنشود ، والمديح المردود .

لقد فصّلنا بحثنا هذا على قدّ كتابنا ، وتركنا الاستقصاء ، ثقة منا بذكاء من يهمه التعمق في درس ابن الرومي . فالتحسر على الشباب ، وعلى الاكل ، وعلى الجوائز ولّد ما ولّد في مخيلة ابن الرومي العجيبة ، فاطال القول وتبسّط في الايضاح ، والعرب يكرهون كل ما يأتي على سحر البيان ، والسحر لمع وخطف . ولهذا حرموا ابن الرومي واجازوا البحتري الذي حدثهم بلغتهم ، ونهج نهج شعرائهم ، فثار ابن الرومي على البحتري وعلى غيره انتقاماً لشعره ، وان اعترف ابن الرومي بغثاثة شعره اذ قال فيه ما يغنينا عن كل تحديد :

قولا لمن عـاب شعر مادحه　　اما ترى كيف ركّب الشجر

ركّب فيه اللحاءُ والخشب اليا   بس والشوك بينــه الثمــر

اذا صحّ هذا في النبات وغيره من الاشياء فلا يصحّ في الفن . كان على ابن الرومي ان ينحّي الهراء ويبقي من شعره ما طـاب ، ولكن الطيّب من شعره ليس فيه اقل شبه من شعر معاصره البحتري ، وآفـة الشعراء في حياتهم ، معاصر يماشي رجال زمانه . انه يكسف نورهم واذا طلع لم يبدُ منهم كوكب . اما الغد فقــد يرفع من حطّ ويحطّ من رفـع .

خليل اظلّ اذا زارني   كأني أنشأ خلقاً جديدا

ان في هذا البيت وثبة رائعة ، وهو ثمرة لذيذة ، اما ما يليها فقشر وخشب يابس وشوك ، واليك ما قال :

اراني وان كثر المؤمنون   ما غاب عني وحيداً فريدا

بلوت سجاياه في النائبات   فلم ابلُ منهنّ الا حميدا

البيت الاول فوق السحاب والآخران تحت التراب ، فتأمّل .

وعلى ضعف موسيقى ابي تمـام بالقياس الى البحتري فان البون بعيـد بينه وبين ابن الرومي ، واليك ما قالا في غرض واحد . قال ابو تمام

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى   ما الحبّ الا للحبيب الاول

كم منزل في الارض يألفه الفتى   وحنينـه ابداً لأول منـزل

فقال ابن الرومي :

وحبّب اوطان الرجال اليهم   مآرب قضّاها الشباب هنالكا

اذا ذكروا اوطانهم ذكرتهم   عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا

الا ترى ابا تمام شاعراً — هنا — وابن الرومي منطيقياً ؟ على الشاعر ان يقول وعلى الناس ان يفهموا . اما ابن الرومي فيريد ان يعرقــل سيره . انها لحجج فارغة ينتحلها ابن الرومي ليدافع عن شعره ، فمهـما

عمل ومهما بذل من جهود فلا يكون غير ما كان . ولكن قد كان في مكنته ان يدع للسوقة قول : ولا سيما ، والعامة لا تلفظها مخففة كما فعل . ثم ما له وللمشار اليه في قوله :

يا ابا بكر المشار اليه   بانقطاع القرين في الادباء

وما كان احراه ان لا يكثر — على الاقل — من هذا الاستعمال الكريه : المعتذريكم ، حبّيك ، نقديك واقتضائيك ، وهجائيك وبغضيك ، ولبسيها ، وهذا كثير في شعره . واخيراً عضّيك في هذا البيت :

وعزيز عليّ عضّيك باللوم   ولكن أصبت صدري بداء

واذا كان لا بد من العض فلماذا لا يعض ابن الرومي « مثل الاوادم » ؟ . . فلو قال عضّاك لما فقد البيت شيئاً من قوته ولا من وزنه .

وفي هذه القصيدة التي اخذنا منها هذه النماذج ، أبيات شائقة تدلّك على مخيلة الشاعر ، واليكها :

لك مكر يدبّ في القوم أخفى   من دبيب الغذاء في الاعضاء
او دبيب الملال في مستهامين   الى غاية من البغضاء
او مسير القضاء في ظلم الغيب   الى من يريده بالتواء
او سرى الشيب تحت ليل شباب   مستحير في لمة سمحـ

اقرأ وصف ابن الرومي لقيان المهرجان وآلات الطرب في احضانهن لتقدر هذه المخيلة حق قدرها ، وان شان ذاك الابداع سوء ظنه بقرائه فعمد الى الشرح والتعليق . . . لقد وهب ابن الرومي مخيلة عجيبة ولكنه لم يوهب « قوة النقد » التي تسيّر تلك المخيلة في الطريق الامثل .

اسمع كيف يتخيل ليهجو رجلاً ادعى نسباً :

بيناه علجاً على جبلّته   اذ مسّه الكيمياءُ فانقلبا
عرّبه جدّه السعيد كما   حوّل زرنيخ جدّه ذهبا

وهكذا هذه الجدود لها اكسير صدق يعرّب النسبا

يا عربياً آباؤه نبط يا نبعة كان اصلها غربا
كم لك من والد ووالدة لو غرسا الشوك أثمر العنبا
بل لو يهزان هزة نثرت من رأس هذي وهذه رطبا

لو ذكر غيري هذه الابيات لعدّها دليلاً عظيماً على ثقافة ابن الرومي الطويلة العريضة العميقة ، ولكنني لست اراها الاّ معلومات بسيطة يعرفها اهل عصره كلهم ، وحسب الشاعر ان يدرك ما يراه الناس كلهم ويحسّ به غير احساسهم ، كما فعل بشار وابو تمام . وابن الرومي يعلم كما نعلم ان شعره ينقصه شيء فيدافع عنه بقوله :

ان تكن سهلة القوافي فليست في المعاني بسهلة الوجدان
ابسط العذر في ارتخاص القوافي واتباعي سهولة الاوزان

فابن الرومي عارف انه اذا قصر في ميدان البلاغة فقد وفّق في التصوير والتخيل الى أبعد مدى . وقد كفانا ابن الرومي تحليل نفسيته فقال عن نفسه :

شكري عتيد وكذاك حقدي الخير والشر بقاء عندي
كالارض مهما استودعت تؤدي واين عن طينتنا نعدّي
احفظ للاعداء والأودّ ما استودعوا من بغضة وودّ
ماذا يقول القائلون بعدي

لا نقول شيئاً الا ان هذه القريحة لو كان لها منها مهذّب لجاءت بغير ما نقرأ . وابن الرومي يشكو الجد كغيره من شعراء هذه الحقبة ، ويقول شيئاً من هذا بمناسبة الكلام عن ابي الصقر الذي جوّله زرنيخ جده ذهباً

ولعمري ما ذاك أعجب من ان كان علجاً فصار مسن شيبانا
ان للجد كيمياء اذا مـا مس كلباً احاله انسانا
يفعل الله مـا يشاء كما شاء متى شـاء كائنـاً ما كانا

والظاهر ان امثال ابن الرومي كانوا عبثاً ثقيلا على الصناديق وخصوصاً على صناديق الأنانيين البخلاء اصحاب الجمع والمنع ، فلا تسمع في ديوان ابن الرومي الا انيناً موجعاً فهو يناقش ممدوحيه الحساب :

ان أكن أحسنتُ في مدحكمُ فأخو الاحسان أولى من رفد
او اكـن قصّر جهدي عنكم فأثيبـوني ثواب المجتهد
او فودّوا المدح مستوراً ولا تشمتوا بي أعينـاً نحوي تقد
هو باز صائـد ارسلتـه فارجعوه سالمـاً ان لم يصد

واذا استبطأ واضطر فقد يتحرك اذا لم ير في دربه من يتطيّر منه ، ولكن المسكين لا يفوز بغير برودة الاستقبال فيصيح بأبي القاسم :

لاقيتني ساعة لاقيتـني أثقل خلق الله أجفـانا
كأنّما كنت تضمّنت لي ردّ شبابي كالذي كانا
او كلّ ما لم يستطع فعله عيسى ولا موسى بن عمرانا

ولا يغضب ابن الرومي شيء مثـل عيب شعره ، فيثور ويفور كالتنور ، ويسبّ أمّ من يعيب شعره :

عاب أشعاري وفي منزله كل عيب ومخازٍ وريب
انا لا أشتم الا أمّـهُ فليزدني غضباً فوق غضب
ما لمـن يغمز في انسابه ويعيب الشعر من اهل الادب

ولا اخاله هجا ابا سليمان الطنبوري وغيره من مغنين ومغنيات الا لأنهم لم يتغنوا بشعره ، ولهذا السبب ايضاً هجا الأخفش كما هجا بشّار سيبويه . قال ابن الرومي في ابي سليمان :

ابو سليمان لا ترضي طريقته | لا في غناء ولا تعليم صبيان
له اذا جاوب الطنبور محتفلاً | صوت بمصر ،وضرب في خراسان
عواء كلب على اوتار مندفة | في قبح قرد،وفي استكبار هامان
وتحسب العين فكّيه اذا اختلفا | عند التنغم فكّي بغل طحّان

وقال في مغنٍّ آخر وقد أجاد :

مجلسه مأتم اللذاذة والقصف | وعرس الهموم والاحزان

والحسد كان ولم يزل آفة الادباء ، وخصوصاً المتأدبين ، ومن هذا يشتكي ابن الرومي فيقول :

أأقول شعراً لا يعاب شبيهه | فتكون أول عائب تشبيبه
ما كل من يعطى نصيب بلاغة | ينسيه من رعي الوداد نصيبه

واخيراً يلوم الشعراء على المديح ، وهو واحد منهم :

« يقولون ما لا يفعلون » مسبّةٌ | من الله مسبوبٌ بها الشعراء
وما ذاك منهم وحده بل زيادة | يقولون ما لا يفعل الامراء

ويحاول ابن الرومي ان يلمّ باقوال الاخطل في المرأة والشيب فيقصّر عنه ، كما انه الم بفكرة سبق اليها بشار فاستمدها من القرآن الكريم ليقول في رجل اسمه ابو سفيان :

كيف لا تحمل الأمانة ارض | حملت فوقها ابا سفيان

فقال ابن الرومي في رجل اسمه ابن حريث :

اين من يشتري حماراً ضليعاً | ليس في مشيه ونيّةُ ريث
يحمل الدين والأمانة والمنّ | اضطلاعاً ويحمل ابن حريث

ويأخذ قول ابي تمام :

واذا جفاك الدهر وهو ابو الورى | طرّاً فلا تعتب على اولاده

فيقول قولاً قبيحاً يدل على فساد ذوق

وما الدهر الا كابنه فيه بكرة وهاجرة مشمومة الجو صيخد
تذيق الفتى طوري رخاء وشدة حوادثه ، والحول بالحول يطرد

ويصف بيته وخصوصاً ملبسه فيفتت القلوب :

وليَ الخفّ ذو الرقاع ولي النعل والعبد سـابح يعبوب
وهمومي محدثاتي ، وبستاني شوك ثمـاره الخروب
عكست امري النحوس فعنزي أبداً حـائل ، وتيسي حلوب
غير اني رأيت نحسي على نفسي فعودي لا غيره المنجوب
اصحب المرء فهو مني ممطور ولكنّ واديه لي مجدوب

رحمك الله يا ابن الرومي فـكم في الحياة من امثالك . . . ولو كنت حياً لما قلت في شعرك غير ما قلت ، وان مثلت بي كما مثلت بالاخفش وغيره من عائبي شعرك . ان القليل من شعرك يعجبني كأسمى الشعر ، اما ما بقي فنثر موزون ، ولست ازعم غير هذا ولو اتفق على عكسه الانس والجنّ .

البحتري

اول ما نعلّم اولادنا كلمة قالها ابن الأثير : اراد البحتري ان يشعر فغنّى ، نستدل بذلك على الديباجة البحترية الـتي نفّقت شعر البحتري وكسّدت بضاعة ابن الرومي .

ان نقاد الأدب القديم ودارسيه كالغنم يتبع بعضها بعضاً . شهد الثعالبي ، صاحب يتيمة الدهر ، لشعراء الشام بالتبريز قديماً وحديثاً لقربهم من خطط العرب ، ولا سيما اهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم ، ولما جمع شعراء عصره من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . ثم روى ، تأييداً لزعمه ، ان الصاحب بن عبّاد كان يعجب بطريقة الشاميين التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة . انني اؤيد شيخ نيسابور في زعمه هذا ، وان لم اجد في شعر البحتري ناحية جديدة لم يطرقها الشعراء قبله غير وصف القصور ، وقتال ابن خاقان للأسد ومقاتلة البحتري والذئب . لم يحد البحتري قيد شعرة عن خطط القدماء . أدرك ذلك خصمه ابن الرومي فقال في هجوه : عبد يغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام . . . أي أنه صورة مطابقة لهم كل المطابقة .

شاء البحتري في بدء اتصاله بالخلفاء ان يكون شاعراً سياسياً ، فشهد بالخلافة لبني العباس ولكن شهادته جاءت بعد وقتها فلم يؤبه لها . والتفت

الشاعر فرأى قصر الخليفة في زمانه ، كناطحات السحاب في هذا العصر ، فقال في ذلك شعراً استمال به الخلفاء وأعجبهم ، لأن المرء يحب الثناء على بيته ، ولو كان كوخاً ، فكيف به اذا كان قصراً لا نظير له في عصره ، كالجعفري والكامل . وأعجب البحتري وصفه القصور العربية فشاء ان يكون موضوعه بنية فخمة فقصد ايوان كسرى يرافقه اليه ولده ابو الغوث الذي سقاه ولم يصرّد . . . فوصف الايوان ومن بنوه وصفاً رائعاً شكّك النقاد في عروبته . لقد فاتهم ان الشاعر عموماً ، والبحتري خصوصاً ، يميل مع الهوى ، وحسبك برهاناً على ما أزعم ان تذكر تمنّيه لو كان سيفه في يده ساعة الفتك بالمتوكل ، ثم ما كان بعد ذلك . فالبحتري ليس من اصحاب المبادىء الثابتة ، انه ككل بخيل يشمّر للحاق بالقرش في أوعر السبل ، ويغوص عليه في الجمّات . لا يبالي بكرامته اذا كسب . لست اقول هذا لأدّعي ان البحتري كان له غنم في وصف ايوان كسرى ، لكن لأدلّ على خلق البحتري ، فالبخل رأس مزايا هذا الشاعر . والمال هو الحكّ الذي تهتدي به سفينة البحتري في خضم الحياة . وهل أدلّ على بخل هذا الذي يسمونه شاعر الطيف ، من تحسره على افلات الطيف منه ؟ . . البحتري — أخلاقياً — يصحّ به قول مثلنا : يلحس الفرن على ريحة الكبّة . . . كان يمدح ثم يهجو ، ويهجو ثم يمدح ، مهتدياً بالجائزة والامل البرّاق في كيس الممدوح .

كان البحتري بيّاع شعر وكانوا يعرفون منه ذلك فيعبثون به ، ويتنادرون عليه ثم يرضونه ، وكل شيء جائز متى حصلت الجائزة ، وهكذا شأن كل بخيل . سُبّ اباه وامه وأنِب عنك قرشاً ولو من قروش هذه الأيام ، في الاعتذار اليه ، فقد وصل له حقه . هذا ما اصاب البحتري بعد عبث الصيمري به ذاك العبث الشائن .

فتن البحتري معاصريه بسلاسة شعره ، ورنته وسهولته . وقال في قصور الخلفاء قولاً جديداً فقرّبوه وأدنوه من الحضرة . وصف بركة المتوكل وهذا الوصف شهير يعرفه كل مطّلع ، ثم وصف « الجعفري » فقال في علوّه وشموخه وضخامته :

ملأت جوانبه الفضاء وعانقت شرفاته قطع السحاب الممطر

ثم ذكر المتوكّلية في قصيدة اخرى . قد بلغ البحتري في هذا الوصف قمة الشعر لأن أحداً لم يساجله في هذا المضمار ، فقال في وصف قصر المعتز :

ذعر الحمام وقد ترنّم فوقه من منظر خطر المزلة هائل
وكأنّ حيطان الزجاج بجوّه لجج يمجن على جنوب سواحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمّر ومسيّر ومقارب ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق متلهّب العالي انيق السافل
اغنته دجلة اذ تلاحق فيضها عن صوب منسجم الرباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطّفت اشجاره من حيّل وحوامل
مشي العذارى الغيد رحن عشية من بين حالية اليدين وعاطل

فلولا ما قاله في هذا القصر المسمّى « بالكامل » ولولا صورة اخرى اخذها قلمه عن ايوان كسرى ، لقلت ان البحتري عيال على ابن عمه ، وعلى شعراء العرب القدماء . فانظر كيف يصف الربيع ، وعد الى قول ابي تمام :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد ان يتكلما

ومن وصف البحتري لقتال الاسد تدرك مدى خياله متى قابلت

قصيدته بقصيدة المتنبي . ليس عندي زيادة في هـذه المقـابلة عمـا قاله ابن الاثير النقادة الفذ ، فعد الى قوله في محله من المثل السائر .

اما وصف قتال الذئب فقد تفوّق فيه البحتري على الفرزدق ، جعـل هذا موضوعاً مستقلاً وان بدأه بالغزل والفخر والعتاب ، وختمه بشكوى الزمان . دع كل هذا وابدأ بقوله :

وليل كأنّ الصبح في اخرياته حشاشة نصل ضمّ افرنده غمد

ثم قف عند قوله :

ونلت خسيساً منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

تجد ان البحتري أحـــاط بأطراف موضوعه كل الاحاطة ، رسم صورة صغيرة ولكنها ناتئة الخطوط . قد سبقه الفرزدق الى شيء من هذا وتجاوز الوصف الى الاخلاقيات ، اما البحتري فما عناه غير المشهد ، فكأنّه في هذا من جماعة « الفن للفن » .

أذكر ان كاتباً قابل بين ذئبي الفرزدق والبحتري وذئب دو فيني فخلص من بحثه الى ان الشاعر الغربي يرمي الى غاية بينما شاعرانا لا غاية وراء ما قالا . لقد ضلّ صاحبنا ، فلكل امة تفكير ومرمى . العربي يعنيه ان يقهر خصمه ويقتلـه ، واذا حصل ذلك فهو البطـل الذي ادّى الرسالة القومية ، بينا الشاعر الفرنجي يريد ان يجعل من ذئبه مثالاً للنضـال العنيف والثبات الشريف ، ولا يحمله على هذا التفكير غير موقف امتـــه من جاراتها

وبعد فماذا نرى في شعر البحتري من خصائص لم نرها عنـد من تقدموه ؟ نرى سهولة وشدة في وقت معاً . نرى شاعراً لا يقدم كلمة ولا يؤخر كلمة ، فنظمه كنظم العقد حقاً . قصيدته كالكتيبة مصفوفة جنودها صفاً لا عوج فيه ولا أمت

نرى كلاماً مقسماً ، فكل بيت تستطيع ، ان تأملت ، ان تراه جملا متتابعة كأنها موقعة ايقاعاً . لا زحام ولا تسابق ، تعرف الكلمة دورها فلا تتقدم ولا تتأخر .

نرى شاعراً يكثر من استعمال الأفعال فيتحرك شعره ويهتز ايما اهتزاز . ونرى شاعراً لا تعرقل معانيه سير قصيدته ، فهو يرصف الكلام ، وعلى هذا الكلام ان يؤدي المعنى كيفما اتفق . نرى شاعراً يساير طبعه ولا يخالفه بأمر ، وطبعه يمدّه بهذه الرنة . واذا كان الشعر رقصاً ، كما حدّده احد الفرنجة ، فشعر البحتري هو « الدبكة » الرقصة المعروفة . وما رأيت أبا العلاء المعري قد تجاوز الحد حين سمّى شرح ديوان البحتري : عبث الوليد . واذا كان الشعر كما يزعمون لذة عارضة لا معاني ، فشعر البحتري هو الشعر ، لأنك تخرج من قراءته كالشعرة من العجين ، ألهم اذا استثنينا ما ذكرت لك . والذي يلوح لي ان البحتري لم يقرأ كتاباً من كتب زمانه — وان جمع ديواناً — . مات الجاحظ في عهده ، ونعي الى الخليفة فتلهف حتى كاد يبكي على رجل الجيل ، بينا لا نرى البحتري يشعر بموت ابي الأدب العربي ، ولا يعنيه ان يرثي غير مجزيه .

والخلاصة عندي ان قول البحتري في ابي تمام : مدّاحة نوّاحة ، اكثر انطباقاً عليه هو منه على ابن عمه . في مدح ابي تمام ونوحه عبر منثورة ، وحكم ناصعة ، بينا كل شعر البحتري خالٍ الا من ألفاظ تُستلذ منفردة ومجتمعة وان لم يكن تحت تألّفها طائل . لا يعني هذا انني اشايع ابن الرومي اذ يقول فيه :

رقى العقارب او هذر البناة اذا اضحوا على شعف الجدران في صخب

لا يا جورجيوس ، ولكنه كالموسيقى تطربك وان لم تقل لك شيئاً تقوله فيها او ترويه عنها .

رَاسِ ضخمُ

نسب المتنبي وهجرته

«مالىء الدنيا وشاغل الناس» كلمة قيلت في ابي الطيب فسارت مع الدهر . ثم انقضى الف عام والناس ، كما كانوا في عهده ، رجلان ، واحد عليه وآخر معه .

قتلوه بحثاً وتمحيصاً وما انكشفت لهم صفحته . وكانت ذكراه الالفية ، منذ اعوام ، فاشترك في تمجيدها من يعنون بالادب العربي في الشرق والغرب ، فصدرت كتب عديدة اضخمها كتاب للاستاذ طه حسين — دكتور في الآداب — عنوانه : « مع المتنبي » ، تربي صفحاته على السبعمائة ، وهو خمسة فصول وان شئت فخمسة كتب كما سماها الاستاذ . افتتح المؤلف الكتاب الاول بفصل يقع في ثماني صفحات مآلها ان طه قال كارهاً لصاحبه ان يصطحب المتنبي . ثم خبرنا كيف اخذ ذاك الصاحب يعبّىء الكتب والدفاتر والكراريس ويرزمها ، وكيف نهاه او تقدم اليه في ان يكتفي بأيسر طبعة من طبعات المتنبي . الى غير ذلك من احاديث تعوّد طه ان يسدّ بها الفراغ ويملأ الصفحات .

ثم يقول لقارئه في الصفحة السابعة : « وقل انه كلام يمليه رجل يفكر بما يقول ، وقل انه كلام يهذي به صاحبه هذياناً . » فقلنا انه كلام بين بين ، يغلب فيه الهذيان على التفكير ، فهو كالليمون اليافيّ قشره

اكثر من لبّه . وهذا شأن الدكتور في اكثر ما يكتب ، يمغّط الكلام ويمطّه كالعلكة ، فطوراً تراك امام حسناء فلا تتكرّه ولا تتقزّز ، وتارة تجدك امام عجوز تكره محضرها ، وتسأل الله الفرج .

ان طه في صناعة الكلام اقدر المعاصرين على التخمير ، فعجينه يرفخ ويطفطف فتحسب المعجن يموّن البيت شهراً حتى اذا مُدت الأيدي الى الزاد عرفت ان هذا العيش هشّ « ككرابيج حلب » .

ابتدأ عميد كلية الآداب بتشريح المتنبي حدّة ونسباً ، فأنكر اباه وجدّه ، ثم سلّم اخيراً ان للمتنبي اباً وجداً فحمدنا الله وقلنا استرحنا ، كما قال البهاء زهير في الشيخ الامام . . . ولكنه عاد الى « عبدان السقاء » والد المتنبي وشرع يتنقل على شجر نسب الشاعر يفلت غصناً ليتعلّق بآخر ، حتى تمسّك بكلمة « الكذاب » ولم يفلتها الا بعد جهد :

ان « الكذاب » الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقله .

فظن ان هذا « الكذاب » يتصل بنسب المتنبي ، وهذا شأن طه في « اكبر ظنونه » كلها كما سترى . ثم ترك أبا المتنبي ليفتش عن امه ، « ولكن الخطب في أم المتنبي أعظم من الخطب بأبيه ، فالمتنبي يسكت عنها كما يسكت عن ابيه ، والرواة لم يذكروها » .

حقاً انها مصيبة كبيرة امتحن بها الأدب العربي أجيالاً وحقباً ، فجاء طه اليوم يكشفها عنه ، جزاه الله خير الجزاء . كيف لم يذكر المتنبي امه ؟ هذه بدعة ! اذن المتنبي لا امّ له . ثم انتقل الى المرحوم جدّه فوقف عند هذا البيت — ليشكّ وليشك فقط :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي امّا

فاستنتج ان المتنبي يشكّك في نسب جدّته بعض التشكيك لأنه قال هذا البيت « الذي أملاه الغرور وصاغته الكبرياء » ، ثم قعد يطالبه بذكر

ابي جدته الذي كان اكرم الناس ، فمن هو هذا ؟ وما اسمه ولماذا لم يسمه لنا ؟ الى غير ذلك من تساؤل بارد .

مسكين ابو الطيب ، فهو من طه في جهد جهيد . ان يقل عيّره بالغرور والكبرياء وان سكت أحرجه ، ولكنّ المتنبي كالجاحظ عنده ألف جواب مسكت . متى كان الشعر موطن التراجم يا ترى ؟ ان « متّى » وحده كتب انجيل السلسلة ، وكثيراً ما تضحكنا قراءته ، فهل مثل هذا ما يطلبه طه من المتنبي ، وهل كنا نصبر عليه لو نظم لنا سيرة تلك المستورة ؟ اما ضقتَ به يا دكتور لأنه ذكر جده ، وتساءلت من هو هذا الذي كان أكرم الناس ؟

وهكذا يسوّد طه عشرات الصفحات مفتشاً عن لا شيء ثم لا يظفر بشيء الا الشذوذ الذي رآه في حياة المتنبي فعزاه الى ضعف اسرته . نحن مثلًا نرى في حياة طه شذوذاً — ومن تخلو حياته من شذوذ ؟ — فلماذا لا نعزوه الى شيء من هذا ، ولماذا لا نطالبه باسم امه وقد ورد ذكرها مئات المرات في « الايام » ؟ لماذا لا نسأله عن اسم ضيعته ، لماذا لا نسأله عن اسم ابيه — ذكره مرة — بل لماذا لا نسأله عن اسم جده البغيض اليه ، ذاك الجد الذي « صلّى ونسك حين اضطرته الحياة الى الصلاة والنسك » ؟ فهل في هذه الاسماء ما يستحي منه ؟ وهل لنا ان نسأله هذا السؤال البليد ؟ ثم هل يكتب المتنبي « الأيام » ليخبرنا ايضاً انه كان له عمّ يغضب وينهره ويلحّ عليه في تكبير اللقمة ؟ (الايام ص ١٩) . يستظرف هذا في كتاب كالأيام ، ولكنه يقبح في الشعر ، والمتنبي شاعر ما ينبغي ان يفوته هذا . ليست القصائد مثل « مكاتيب المهاجرين » لا ينسى صاحبها واحداً من الضيعة لئلا يعتب عليه ، ولذلك يسلّم على الجميع .

اما هذا « الكذاب » الذي شغل بال الدكتور فما الذي يدلّ على انه

يتصل بالنسب ، ولماذا لا يكون شيئاً من تلك الوشايات التي كانت تغمر قصور الامراء ؟ ففي اعقاب هذا البيت ما يشير الى ذلك . واكبر ظني ، كما يعبّر طه ، ان المتنبي يتيم الأم فهو يتألم من هذا اليتم ويذكره ويتوعد الناس به :

كأنّ بنيهم عالمون بأنني   جلوب اليهم من معادنه اليتما

واكبر ظني ايضاً ان المتنبي لم يترك الكوفة لضعة نسبه او لغمزة فيه بل أراه صبياً نجيباً طمّاحاً هاجر ككثيرين من شعراء العرب ، تاركاً في الكوفة تلك الجدة التي كانت له جدة وأما . فرافقته ذكراها في هجرته ولم يذكر امه لأنه لم يعرفها . اما هجرته فكهجرة طه نفسه من الريف الى العاصمة . اما نكباته فسببتها له نفسه الوثابة ، وعند طه من ذلك كل الخبر . فلماذا يتلمس هذه الاسباب ، أليدرس المتنبي على ضوئها ؟ فلندع « تين » مستريحاً في قبره .

يطلب طه اليوم من المتنبي ان يكون نسّابة كخلف الاحمر ، كما طلب امس من امرىء القيس ان يكون جغرافياً كابن بطوطة ، واذ لم يفعل محا ذكره . فلو كان امرؤ القيس وصف القسطنطينية كما اراد طه فمن كان يروي لنا هذا الشعر والرجل مات في الطريق ، ثم أهو خليّ ليقول شعراً في وصف القصور ؟

هكذا يتمنطق طه وهكذا يصدر احكامه ، ولولا انه يضلل القراء ويشغلهم في تعابيره التي يركب بعضها بعضاً كالجراد ، لما قلنا شيئاً ، ولما نظرنا في كتابه « مع المتنبي » فحظه الفني فيه ضئيل جداً .

يقف بنا طه عند ميمية المتنبي في رثاء جدته ويسألنا ان نقرأها « قراءة المستأني المتمهل الذي لا يمر بالشعر مرّاً ، والذي يشغله الجمال الفني عن التماس نفس الشاعر » ، فقرأتها مطيعاً ، ثم وقفت لأسمع ما يقول

فاذا به ينشغل بهذا البيت :

هبيني اخذت الثأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى

يتساءل عن هؤلاء الاعداء من هم ، وعن تلك المساءة ما عسى ان تكون . ويمضي في البحث على سننه كما ورد في قرآن المتنبي متوهماً ان هناك اعداء معلومين للشاعر ، مع أن هؤلاء العدى وهميون كأعداء طه عينه في « الايام » ، فهو يقول لكريمته (ص ١٣٣) : « وكيف استطاع ابوك ان يثير في نفوس كثير من النـــاس ما يثير من حسد وحقد وضغينة ؟ » فهل يقول لي طه من هم هؤلاء لأقول له بدوري من هم اعداء المتنبي ؟ الشماتة مفروضة عند العرب ، فاذا تذكر الدكتور ان معاوية قال لأصحـــابه في مرض الموت : حنّوني ، واصلحوا من هندامي لئلا يشمت العوّاد بي ، ادرك ان هؤلاء « العدى » هم هم في كل زمان ومـكان ، فما اعداء المتنبي الا كالاعداء في كل قرية . اكثرهم يا دكتور كذلك الشيخ الذي غاظه انتخاب اخيك الازهري خليفة يوم عيد المولد . فاذا اردت أن تقول شيئاً فهات غير هذه البضاعة . اننا نرجو منك شيئاً يلامس فنّ المتنبي ، معه وعليه ، فقرّبنا من جوه على الاقل . اما هذا اللف والدوران فيدوّخ ويقتل ، ونخشى ان ينتهي بالقيء .

ويشغل طه نفسه بغربة المتنبي فيقول : « وهو تغرّب لأنه لم يكن يقبل حكماً الا لخالقه ، وما معنى هذا ؟ معناه في اكبر الظن انه تغرّب منكراً للحياة الكوفية . »

الله اكبر يا استاذ ! معناه كما تغربت انا وانت ، لا اكثر ولا اقل . انني عاتب عليك اكثر من عتبك على المتنبي ، ولكنني لا اسألك عن حسبك ونسبك ، فهذا لا اشك فيه ، ولكن لماذا لم تسمّ لنا تلك الضيعة ؟ فقد يقوم — بعد العمر الطويل — من يتساءل تساؤلك ، اما

قول المتنبي : ولا قـــابل الا لخـــالقه حكماً ، فلا يعني ان هنـــاك من لا يقبل حكمهم بل هذا كقول القـــائل : انا لا اخضع الا لربي . خفف عنك فقد صح بك قول المتنبي : اذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً . ولكن اذا كانت الكتب تباع بالحجم فاحشُها ما شئت وما عليك من حرج .

اما ان المتنبي ضيّق بالحكم المستقر بالكوفة راغب في تغييره فهذا لا نشك فيه ، هذا شأن كل نابغة ، اما ضقت انت بانظمة الازهر وغيرها ؟

ليس المتنبي ثائراً على نظم الكوفة فقط بل على نظم الدنيا كلها . انـنـا نسلّم ان صبي المتنبي لم يكن عادياً ، اما الطفولة فلا ادري انها تكون عادية وغير عادية ، مألوفة وغير مألوفة كما قلت عن طفولة المتنبي ، بل لا استطيع ان افهم ان بين الطفولات اختلافاً الا اذا كانت كطفولة عيسى الذي كلّم الناس في المهد ، او ان تكون عثرتَ على اسطورة كالتي لهوميروس وغيره .

ويعود طه مرة اخرى الى « الكذاب » وربما عاد اليها مرات ، اما انا فقد فرغت منها ، وسأضرب عنها صفحاً لئلا ابلوك بتكرار كالذي ننعاه على طه .

وينتقل طه الى رقم ٤ فيصف الحياة العراقية ويبيّن فسادهـــا ثم يستنتج : « واكبر الظن ان مولده — المتنبي — كان اثراً من آثار هذا الفساد العظيم او انه لم يخل من تأثر به على كل حال . » فمن يقول لنا كيف يكون — وفي اكبر الظن ايضاً — مولد طفل اثراً من آثار الفساد ؟ فهذا لا افهمه كما لم افهم الاختلاف في الطفولة ، ولكنني فهمت جيداً ان الدكتور يسعى في اطفال الحاجات

ويرافق طه المتنبي الى المكتب فيرى انه تلقّى فيـــه اصول الدين وفروعه على مذهب الشيعة العلويين — وهذا ما رواه الأقدمون — . وقد

قال طه كلمة لو أمعن فيها لما طالب المتنبي برثاء امه . قال : « ان اختلاف المتنبي الى المدرسة العلوية لا يدل عندي على امتياز ولا استثناء ، انما يدل على الاتجاه الديني الذي وجّه اليه ، ويدل على ان الذين كانوا يكفلون الصبي كانوا من الشيعة العلويين . »

فهذه « الكفالة » التي زعمها تنفي ان يكون مولده اثراً من آثار ذاك الفساد العباسي ، كما ان تلك الجدة النبيلة التي قال فيها ابو الحسن محمد ابن علي العلوي : « وكانت جدة المتنبي همذانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات » ان هذه الجدة تخلع على ابي الطيب شرفاً ، وهو لا يسقط من عينيّ اذا فقد هذا الشرف ، وتمّ لطه ما لم يجرؤ على التصريح به .

ان حياة فجرها فقد الأم ، وضحاها موت الاب ، تربدّ آفاقها ويسخط صاحبها على الناس فيراهم كأنهم اساؤوا اليه ، ومن فقد حنو الأم فقد شيئاً كثيراً . الى الغرائز والى هذا نعزو شذوذ المتنبي .

هذا تمهيد طه لدرس شعر المتنبي في صباه — ويجذر عظيم منحه العروبة ، مع ان الاميركان يمنحون جنسيتهم مهاجراً عربياً قضى خمس سنوات في بلادهم ، وقد يكون هذا معّازاً . اما ماذا ظهر للاستاذ بعد هذا البحث فثلاث خصال : ١ — الصبي مقلّد في الفن الشعري ، ٢ — ان شعره شعر صبي متشيع للعلويين ، ٣ — ان هذا الشعر شعر صبي لم يكن بعيداً كل البعد عن امور القرامطة . ثم أضاف خصلة رابعة ، وهي ان هذا الصبي كان طويل اللسان شيئاً ما ، مستعداً استعداداً حسناً للسخرية ثم للهجاء . وهنا يتفضل عليه طه بشيء من الثناء فيقول : « وكل هذه الخصال تدلنا على ان الصبي قد كان ممتازاً حقاً ، فليس قليلاً على صبي لم يكن يتجاوز العاشرة ان يقول شعراً يروى .

اني اعجب للدكتور كيف مرّ بهذه « السنّ » مطمئناً ، ولكن طه بك يشكّ ساعة يستحلي ، ويصدّق ساعة يريد . اما شعر المتنبي ، في هذا الدور ، فشعرٌ نغل ، يدل على ان « الصبي » يصير شاعراً ، وانه دارسة كتب حفظ شعراً كثيراً طبع على غراره ، فلا تشيّع الآن ولا قرمطة بل تلك اخلاق صبياننا المتمرنين أنتها روح شعرائنا القدماء الذين رأوا الموت على الفراش عاراً وسبّة ، واما مدح المتنبي قرمطياً او علوياً فلا يعني انه تقرمط ، ولكننا سنماشي طه ، وشرط المرافقة الموافقة .

شعر الصبي

تناول طه البيتين اللذين افتتح بهما ديوان المتنبي :

بأبي من وددته فافترقنـا وقضى الله بعد ذاك اجتماعـا
فافترقنا حولاً ولما التقينـا كان تسليمه عليّ وداعـا

وأغرق في شرحها فسوّد صفحة ليشرح فكرة الصبي ، واخرى لينتقد تعبيره ، واستنتج بعد اجهاد الفكرة « ان الصبي أراد أن يقول « أحببته » فلم يستقم له الوزن ، والتمس . . . فلم يجد الا « وددته » هذه » .

قلت : لو سمع المتنبي لقال للدكتور مـا قاله لابن خالويه في ذلك الزمان : اسكت ، ليس هذا من علمك . استغفر الله ، فطه لا يجهل العروض ولكنه نسيه . أما قـال في « الأيام » انه نظم ؟ . . أليس له في القصر المسحور منظومة على الشين ؟ . . قل هذه غلطة ، وجلّ من لا يغلط .

والذي عندي ان ابا الطيب لم يقل « أحببته » ، وهي لا ترجح الميزان لو وضعها ، خوفاً من ان يحصى في رعية ابي نواس . . . وهو يربأ بنفسه ان يرعى مع اولئك . رأى وددته احسن حالاً ففضلها وزالت الشبهة . اما لماذا أحبّ طه هذين البيتين فللناس فيما يعشقون مذاهب ، وهـذا لا يعنينا . ثم انتقل الى الابيات الثلاثة : أبلى الهوى اسفاً يوم النوى بدني ، فقال فيها ما قاله في البيتين الاولين ، واعترض على « اسفاً » زاعماً انهـا كلمة اتت لتقيم الوزن ليس الا . فردّ عليه صديقه العقاد وأرشدنا الى

معرفة الكلمة النابية فقال نفعنا الله « بضوابطه » التي كنا نقرأ مثلها في كتب الحساب العتيقة :

« وعندنا — اي عند عباس محمود العقاد — ان الطريقة المثلى لتحقيق الكلام الذي تجيء به ضرورة الوزن ان تحذف الكلمة وتنثر البيت وتنظر بعد ذلك الى قوة المعنى او قوة الاثر ، فان بقيت للمعنى قوته وبقي له اثر ، فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير اقامة العروض . فهل « اسفاً » في الشطرة التي عابها الدكتور من الكلمات التي يصدق عليها هذا القياس ؟ لا نظن . » (هلال مارس ٥٤١)

قلت : ان دلّ هذا الكلام على شيء فعلى اخراج العقاد خرائده الخالدات من خدرها ، وعلى مقاييس النظم والفن عند الاستاذ الجليل فهل « اسفاً » الزائدة الدودية لتحتاج الى لجنة اطباء ؟

ويرى طه ان المتنبي وفق الى شيء من الموسيقى اذ جمع بين الهوى والنوى . قلت : لو قال المتنبي مثلاً : أبلى الهوى اسفاً يوم النوى شغفاً او سقفاً ، ماذا كان فعل الدكتور ؟ كان رقص بلا شك

ثم تخطّى الى البيتين اللذين قالهما الشاعر في « وفرته » :

لا تحسن الوفرة حتى ترى   منشورة الضفرين يوم القتال

على فتى معتقل صعدة   يعلّها في كل وافي السبال

وينشغل طه في هذا الكلام « الملتهب شوقاً الى الحروب ورؤية الدم المسفوك » ثم يتساءل : أفهل كانت الوفرة التي استحسنت له وفرته هو ؟ او هل كانت الوفرة وفرة ترب من اترابه في المكتب ؟ وبما انه ترك لنا حق الفهم نقول : ان الوفرة وفرة المتنبي لا غيرها ، والشطر الاخير موجه الى شيخه الذي استحسنها ، وفوق كل ذي علم عليم . . .

ثم وقف طه عند هذين البيتين ليقيمها دليلًا على القرمطة ويشمّ فيهما

ريحها ، ولكن هذا بعيد .

وانتقل الى أبياته في « الجرذ المستغير » فرأى — وقد أصاب — ان في هذه الابيات الاربعة سخراً لاذعاً وخصوصاً في البيت الاخير :

وأيّكما كان من خلفه فان به عضّة في الذنب

اما ان المتنبي يلوّح فيها الى احوال القرامطة كما توهّم الدكتور فهذا بعيد جداً . وأقرّ طه للمتنبي بالسخر فقال : « فلن ترى سخرية ألذع من هذه السخرية ولا هجاء أمضّ من هذا الهجاء . » ثم أنكر عليه السخر في مصر لا لشيء الا لمخالفة الأقدمين . ونظر في هجو المتنبي القاضي الذهبي فرأى ان هذا البيت :

سُمّيت بالذهبي اليوم تسمية مشتقة من ذهاب العقل لا الذهب

مطبوع على غرار ابي تمام . والحرب مشتقة المعنى من الحرب . وان الصبي يتجه بعض الاتجاه الى مذهب ابي تمام ، وهذا ما سنعرض له جملة لا تفاريق لأن الاستاذ حوّم حوله كثيراً .

اما خروج المتنبي الى البادية فلا يدري طه « أرَحل يستفيد علماً وصحة ام ارتحل اليها التماساً لهذه البيئة القرمطية » ، ثم لا يقطع بشيء ويرى « ان رحلته افادته من الناحيتين : ربا جسمه ونما عقله وفصح لسانه ، وتعلّم اصول القرامطة وعرف مذاهبهم النظرية والعملية معاً » . اننا ننكر تعلمه اصول القرامطة ، ونسلم بمعرفته مذاهبهم كما يعلم الطلاب العصريون ما يعلمون عن باريس . فما خرج المتنبي الى البادية الا ليتسنى له القول :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

وحتى يقول فيه ابو علي الفارسي مـا قاله . واستدلّ طه على قرمطة المتنبي بقوله :

الى ايّ حين انت في زي محرم   وحتى متى في شقوة والى كم
والا تمت تحت السيوف مكرّماً   تمت وتقاس الذل غير مكرّم
فثب واثقاً بالله وثبة ماجد   يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

فقلّبت هذه الأبيات ظهراً لبطن لأظفر منها بدليل على هذه القرمطة المزعومة فما فتح الله عليّ بشيء . ما اخال المتنبي قرمطياً الا في مشيته . . . فان رضي طه بهذا فقط اتفقنا . اما هذه الأبيات التي نفت من رأسه كل شك فما أرتني انا الا شاعراً يمدح رجلاً بما يجب ان يمدح به فقال له :

يا ايها الملك المصفّى جوهراً   من ذات ذي الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لاهوتيّه   فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

وهذا في نظري كقول ابن هانىء لواحد من هذه النحلة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهّار

فماذا نفعل بهؤلاء القرامطة ? هكذا يعتقدون . كلهم آلهة تمشي على الأرض . اما الحاد المتنبي في هذه الأبيات وغيرها فلا شبهة فيه ، وقد أصاب الدكتور بقوله : « وهذا الكلام وحده صريح في انحراف المتنبي عن الجادة الدينية ، واندفاعه الى هذا اللون من ألوان الفلسفة التي هي الى الالحاد أقرب منها الى أيّ شيء آخر . »

ان شعر المتنبي ، في كل طور من أطوار حياته ، يدلنا على شكوكه ، ولكنّ هذا غير القرمطة . المتنبي صبا الى ما هو ابعد منها فلماذا نضيّق عليه ? هبْ اننا اكتشفنا هذه القرمطية فهي لا تسوى قرشاً سورياً يا دكتور . المتنبي أوتي عقلاً حراً طليقاً وعرف مذهب ديكارت قبل وضعه ، وقبل اعتناقك له في الأدب . المتنبي مشكك وليس الشك العوامّ ، تدرّج تدرجاً فدغدغ العقائد في داليته وسينيته — والالحاد

لا يضير الشعر كما قال صاحب يتيمة الدهر ، منذ الف عام — ثم وقف في البائية موقف المنافق فقال : تخالف الناس حتى لا اتفـاق لهم الخ

واخيراً صرّح من بعد تهدار فقال :

تبخل ايدينا بأرواحنـــا   على زمان هنّ من كسبه
فهذه الأرواح من جوّه   وهذه الأجسام من تربـه

فقل معي يرحم الله سليمان الحكيم القائل قبله : من رأى روح الانسان صاعدة الى فوق ، ومن رأى روح البهيمة نازلة الى تحت ، باطلة الاباطيل وكل شيء باطل . وعلى القرمطية السلام .

ان الجزء الذي يستهلكه الضمير من عقولنا يبقى سالماً عند النوابغ وهو الذي يقوّي تآليفهم . والمتنبي من هذا الضرب فليكن هذا النور هادينا في درسه . اما اذا صح مذهب فاليري في النصوص ، والدكتور يجمع وراء هؤلاء ، كان طه على حق ، وكان المتنبي قرمطياً ، علوياً ، اسماعيلياً . . .

يرى فاليري « النص اشبه بآلة التصوير يستطيع كل واحد ان يستعملها حسب ذوقه وحسب طرقه » . ولكن لا تنس ان فاليري ابو الاغاليط ، وان هذا المذهب قد ينطبق على شعره ، ثم على شعر مقلديه من الرمزيين المنحطين الذين صيّروا الشعر كالطبل . . . اما عندنا فلسطيح وشقّ انمار اكبر حظ من مذهبه هذا . وكأني بالمتنبي كان « فاليرياً » يوم سئل كيف تقول : بادٍ هواك صبرت او لم تصبرا ، فاجاب : اسألوا الشارح ، أي ابن جنّي .

ويعود طه القهقرى ليتناول « أهلاً بدار سباك أغيدها » والذي يقوله فيها كأكثر ما سيقوله في شعر الصبي . وهو يلخّص بكلمتين : طباق ، مبالغة ، وان زاد على هـــذا فتنافر الحروف الذي يعبّر عنه بالفأفأة ، والقفقفة ، والدأدأة ، وقس البواقي ، كما يقول النحاة . لا يخرج في كل

هذا عن الدائرة التي رسمها الجرجاني صاحب الوساطة بقوله : « وانا أرى لك ان كنت متوخياً العدل مؤثراً للانصاف ان تقسم شعره – المتنبي – فتجعله في الصدر تابعاً لأبي تمام ، و . . . الخ » ثم يؤيد ابن الاثير هذا الرأي فيقول في مثله السائر : « اراد المتنبي ان يسلك مسلك ابي تمام فقصّرت عنه خطاه . » وعلى هذه الطريق المعبّدة تمشّى طه حتى جعل الطباق قريباً وبعيداً . (ص ١٠٨)

قال المتنبي في هذه القصيدة واصفاً نعله :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان أجهدها
شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

فيرى طه كما رأى الثعالبي فالعكبري ان هذا من قول ابي نواس :

اليك ابا العباس من دون من مشى عليها امتطينا الحضرميّ الملسّنا

ولم يدرِ الثعالبي والعكبري ، وطه في آخر الزمان ، انه لا اخذ هنا . فكلنا نمشي وكلنا ننتعل ، وشتّان ما بين القولين . فحذاء ابي نواس جورب نبيل ، حضرميّ ملسّن كالخف الاحمر الذي كان يلبسه المشايخ وكان سبب ثورة كسروان سنة **١٨٥٨** . اما نعل المتنبي فمداس مقطّع . واذا فرغنا من امر هذا المداس نرى ان وصفه انجلى عن حقيقة تاريخية عرفها طه وهي ان المتنبي جاء بغداد ماشياً . . . والعهد بطه اخرجه من الكوفة داعية قرمطياً . كأنني اسمع ابا الطيب يحتج علينا قائلاً :

قفا قليلاً بها علي فلا اقلّ من « جحشة » ازوّدها

واذا كان الاستنتاج كما رأينا فلماذا لا يستنتج الاستاذ من هذا البيت :

اشد عصف الرياح يسبقه تحتي من خطوها تأوّدها

ان المتنبي يقلد الشنفرى ويسرقه وهو يريد ان يحصى في العدّائين والصعاليك ؟ . .

والقصيدة بوجه عام في نظر طه كشعر القدماء في التفكير ، وكأبي تمام في التعبير ، فاصاب في الرمية الاولى واخطأ في الثانية . ورأى ايضاً ان القصيدة « تنحدر انحداراً يوشك ان يكون عنيفاً ، والسبب هذا البحر الذي تظهر فيه السرعة والانحدار ، ثم القافية الدالية وهي قوية متينة ، والهاء المطلقة تصور الرحب والسعة » . نعم ان هذه الهاء تصور شيئاً من ذلك وتقتضينا فتح فم كما قال الخليل لبنته ، ولكنها كثيراً ما أتت معلقة بالبيت كما تتعلق بعض الهنات بذنب الهر فتركضه . جعل طه كل وكده في هذه القصيدة فأدرك ما ادرك . لم يفته الا الذي تعمّده فيها المتنبي وهو ريح البداوة ، فهذه الالفاظ : خرعوبة ، وقردد ، وربحلة ، وجحجاح وغيرها من بضاعة البادية . يعرضها الشاعر اظهاراً لعلمه وفنه ، وما عليه لو خبط فيها قبل ان يبلغ الشام ويمتلك الذوق — لا تنس هذه الكلمة .

واستدل طه على شيء آخر له قيمته التاريخية « فالشاعر لم يمدح رجلاً من رجال الحكم وانما مدح رجلاً علوياً ، وانه محتفظ بمذهبه السياسي ، اي القرمطة » . ارأيت هذا البرهان ، لا ادري كيف يصل هذا الشاب الى رجال الحكم ليمدحهم ؟ اما رأينا الشعراء قبله يقفون سنين بباب الامير ولا يدخلون القصر ؟ ولكن توهّم القرمطة لبس على الاستاذ مسالكه وكأنّه لو وجدها ملك البصرة . ان العناد الادبي يضلل الاستاذ كثيراً ، وربك يهدي من يشاء . وبعد هنيهة ينسى الاستاذ ذاك المذهب السياسي فيرجح خلافاً لما ظن بلاشير ان اقامة المتنبي في بغداد لم تطل ، وانه لم يمدح العلوي الا ليستعين بنائله على الرحيل ، والدليل عنده على قصر الاقامة ان المتنبي لم يصف « المشاهد التي شهدها في دار السلام » .

كثيراً ما يتوكأ الاستاذ على هذه الحجة في مهامه الانكار ، ولكنها خيزرانة لا تصلح الا للهشّ . ان بضاعة الوصف لم تنفق في ذلك العصر ،

وللمتنبي هدف ، فهو لا يدنو الا مما يصلح مستنداً له . ثم يرى ان المتنبي كان شاعراً دوّاراً لا ينقصه الا رباب ، يمدح حتى الاوساط والفقراء . اوحى الى الاستاذ بهذا قول صاحب اليتيمة « يمدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب » وليس هذا مضمون كلام الثعالبي . ثم يرى وهذا أغرب الآراء : ان الشاعر كان يجعل هذا المدح وسيلة لتبيّن استعدادهم للقرمطة ، وهو يعيش في الحالين بما يأخذه منهم اجراً .

ويبلغ الشاعر سوريا ، حافياً او منتعلاً او راكباً لا ادري ، فلم يوح الى الاستاذ بشيء من هذا ، ولكنه عدّد لنا من مدحهم ليقول : ان المتنبي لم يذكر البحتري ، حين مدح الطائيين احفاده ، لأنه يمعن في قراءة شعر المحدثين وأدب البلغاء ، ويدعي مع ذلك انه لا يقرأها ولا يحسن العلم بها ، حتى افتضح في ذلك كما جاء في الصبح المنبي . الجواب على هذا : من منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر .

وبلغ مدح مساور فقال : « ويرى الاستاذ بلاشير والدكتور عزام انه لم يمدح مساوراً الا في وقت متأخر بعد موت محمد بن رائق ، والذالية تؤيد هذا الرأي . ولكنني مع ذلك اميل الى ترجيح ما قدمته ولعله مدحه مرتين . » (ص ١٠٤)

قال ابو علقمة : كان اسم الذئب الذي أكل يوسف رجحون . فقيل له : ان يوسف لم يأكله الذئب ، وانما كذبوا على الذئب ولذلك قال الله عز وجل : وجاؤوا على قميصه بدم كذب . قال : فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف . فطه يريد ان يكون له « قول » ولو مثل قول ابي علقمة الجاحظ .

ها قد اشرفنا على قصيدة قتلها القدماء درساً وشرحا ومطلعها :

أحيا وايسر ما لاقيت ما قتلا والبين جار على ضعفي وما عدلا

قال طه في اول كتابه انه اخذ معه ابسط نسخة من ديوان المتنبي ، وانا ازعم له ان شيخنا العكبري زار في « المعية » جبال الالب . فاكثر الاشياء التي رأيتها في « مع المتنبي » تثبت ذلك ، فهل احرج ان شككت ؟ اليس طه يبيح الشك ويريدنا عليه ؟ فهذا الاتفاق أكّد لي ان طه هيّأ الرفيق قبل الطريق ، ولهذا رأيته في كتابه هذا مكبّراً فوتوغرافياً ، او رساماً — بالقلم الرصاصي — أخذ في نقد المتنبي بأقوال العرب ، وفي تاريخه يقول بلاشير وجبريلي . اما النقد الذي حاوله شخصياً فما صحّ منه نادر ، الا الذي من باب الطباق وتنافر الحروف والمبالغة وغيره من الهيّنات . . . اليك مثلًا قوله في « أحيا وأيسر الخ » قال : « دار المتنبي حول هذا المعنى ولم يستطع ان يؤديه الا في شيء من التكلف فاصطنع هذا الفعل ـ أحيا ـ في اول البيت . » فماذا يضر الابتداء بهذا الفعل ، أنكـرة هو ؟ ولا يجوز الابتداء بالنكرة . . . ام قيل لهذه اللغة الدربَ الدربَ فلا تحيـد عنها ؟ أنريد تعابيرنا كالحدود ، فالحدود ، وهي من وحي الله ، تغيّرت بتغير الزمان والمكان . فاذا كان الاستاذ يحظر الابتداء بهذا الفعـــل فليفترض الهمزة كما افترض القرمطية . أتسقط السماء على الأرض لو أسقط المتنبي هذه الهمزة ؟ وينتقل طه الى الشطر الثاني « والبين جار على ضعفي وما عدلا » فينتقد القافية ويرى انها « عتلت الى مكانها عتلًا » . انــــا نحيله على العكبري ففيه كلام من تمثّل لها بقوله تعالى : اموات غـــير أحياء . لماذا ينقل طه الطعن ويترك البراءة ؟ ويصل الى « شيب الكبد » والى « الطفل الذي ما سعلا » فيكرر اقوال الموتى في هذه الأبيات التي هي من الخمس الدون من شعر المتنبي . وقبل ان أدع هذه القصيدة أحب ان اعرض عليك نموذجين من نقد طه الفني .

قال المتنبي :

بما بجفنيك من سحر صلي دنفاً   يهوى الحياة واما ان صددت فلا

قال طه : « فستنكر هذا الاستحلاف الذي يفجأك بهذه الباء تليها باء اخرى لا يفصل بينهما الا هذا الموصول ، وهو حاجز غير حصين ، كما يقول النحاة . ثم اقرأ البيت فسترى قصوراً في الاداء لم يستطع الشاعر ان يخلص منه فاضطرّ الى الحذف والى الاضمار ، فهو يريــد ان يقول لصاحبته : صلي دنفاً يهوى الحياة ما وصلته ، فأما ان صددت عنه فلا يهواها . »

ألا تعجب معي لهذا الذوق ولهذا العلم ، بل لشيخ أزهريّ كالأستاذ قبل ان تدكتر ؟ ألم يقل العرب : خير الكلام ما قلّ ودلّ ؟ أليس الايجاز خصلة عربية بدوية في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب والكلام ؟ فكيف لا يرى هذا « الاكتفاء » الذي عدّوه من ضروب البديع ، ثم يرى السجع ، وهو آخرها ، فيستحسنه ويسمع موسيقى ساحرة حيث يلائم المتنبي بين كلاب وتراب وجناب ؟

ويقول المتنبي :

لولا مفارقة الاحباب ما وجدت   لها المنايا الى ارواحنا سبلا

فيحتج طه على الاضمار قبل الذكر ثم يقول : « وانا اعلم ان هذا ليس خطأ ولست اذكره لذلك ، وانما اذكره لاضع يدك على الجهد الذي يبديه الصبي في اقامة شعره . »

وهناك امر آخر انا اذكره لك بالنيابة عن الدكتور وهو زيادة صفحة في الكتاب ، وآية ذلك قوله بعد ان بيّض احدى عشرة صفحة فيّ نقد قصيدة هي من رديء المتنبي : « نحن لا نخرج من هذه القصيدة بشيء ذي غناء . » قلت : ما دامت هذه حالها فلماذا نفشها هذا النفش ، أليتقم من قرائه يا ترى ؟

وانتهى الى « ارق على ارق » فمضى فيها حتى بلغ قوله :

« أبَني أبينا » نحن اهل منازل ابداً غـــراب البين فيها ينعق

فظن ان الشـاعر يعني بني ابينا قومه القحطانيين — وهذا آخر الآراء في العكبري — فأكـد هو أن المتنبي يعني ذلـــك لان الهجرة مـن طبعهم والغربة معروضة عليهم . وهكذا قضى على القرمطية التي جعلهـــا سبب هجرة الصبي . عظّم الله اجر طه في هذه القرمطية التي أقضّت مضجعه ، والذي عندي ان مرام المتنبي هو الوعظ ، فكلنا ابنـــاء آدم ، ولكنه وعظ بليد . ولا يكفّ طه عن الطباق ، والطباق في كل كلام الناس ، فلو قلت : أكل وشرب ، ونام وقعد ، وطلع ونزل ، لا يبعد ان يراك طه تقلد ابا تمام ، ولهذا نترك الطباق وطه وشأنه فيه . . .

واستغرب طه كيف يبكي المتنبي على شباب لم يفارقه حيث قال :

ولقد بكيت على الشباب ولمّتي مسودة ولماء وجهي رونق

حذراً عليه قبل يوم فراقه حتى لكدت بماء جفني اشرق

فقـــال : « واكبر ظني ان الشاعر يتكلف التعليل هنـا كما تكلفه حين ذكر لومه للعاشقين واعتذاره بعد ذلك عنهم . »

قلت : لا اكبر ولا اصغر يا استاذ ، هــــذا ضرب في الرمل . . . فبكيت هنا لا تؤدي اكثر من حسرة تمرّ كثيراً في رؤوسنا فتؤلمنـــا كنكزة عارضة في الشرايين . هذا الذي لمحه الشاعر العظيم فسجّله ، وقرائح الشعراء الكبار كتلك العدسات التي تصور ابعد النجوم ، ومـا اقلّ الشعراء الذين يلمحون الشبهات .

وينتقل إلى السينية « هذي برزت لنا » فيبرز لها وتبرز له فيرى فيها سفاسف اطفـــال ، وكذلك هي ، فالشعر الذي ينظر فيه طه حصرم فج . وينتقل الى السينية الاخرى فيراها كأختهـــا . ويستكين المتنبي

قليلاً ويأكل ، في طرابلس ، حلواً مصنوعاً ُطرَفاً (يظهر ان السوريين يحسنون اصطناع هذه الحلاوة واهداءهـــا من قديم) فيراه طه فارغاً لصغائر الامور لأنه وصف هذه الطرف الحلوة . قد تكون اول مرة لقي فيها المتنبي ضيافة سابغة ، وأطعم شيئاً حلواً ، فأية كبيرة ارتكب ان قال شعراً في ذلك ؟ ولماذا نتشدق في اطراء شعر ابن الرومي حين يقول شيئاً من هذا ؟

ونمرّ عجالاً فنصل الى رثاء التنوخي اولاً وثانياً وثالثاً فيقف بنا طه عند هذا البيت :

اليس عجيباً ان بين بني اب لنجل يهوديّ تدبّ العقــارب

وانما وقف عنده — كما قال — ليضع بازائه هذا البيت :

فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبــأنّ بمحك اليهود

فيتساءل طه عن هذا اليهودي كأنّ هناك يهودياً حقيقياً . . . وترافقه الفكرة في الكتاب فيعمل من الحبة قبّة ، كعادته ، ثم لا يجزم بشيء ، وهذا شأنه في دراساته ، فهو يبني ويهدم كما كنا نفعل صغاراً في بناء العلالي والقصور حول بيوتنا .

اما هذا اليهودي الذي يسأل عنه فلا يبعد ان يكون ذلك « التائه » الذي لقطه اوجين سو ، فيما بعد ، فاقضّ خياله مضجع الآباء اليسوعيين . فليسترح بال الاستاذ ليريحنا من مشاكل عديدة كهذه ، فأقلّ ما يقــال فيها انها توافه . . .

طه بين الاشباه وماسينيون

ويبلغ طه بالمتنبي باب التنوخيين فيذكر انه مدح احدهم علياً بثلاث قصائد مطلع اولاها :

احاد ام سداس في احاد　　لييلتنا المنوطة بالتنادي

ويسأل القارىء ألاّ يقف عند مطلعها السخيف الغامض . ويحشّي كتابه لينبئنا باكتشاف جديد في علمي الحساب والفلك . . . وهو ان العالم ماسينيون فسّر هذا « الجفر » الذي حيّر المتقدمين والمتأخرين ، فرأى ، نفعنا الله بعلمه ، ان حاصل احاد ام سداس في احاد سبعة ، وقد فسره المتنبي في البيت الذي يليه :

كأن بنات نعش في دجاها　　خرائد سافرات في حداد

فهذا العدد — كما حدثنا طه عن ماسينيون — رمز لبنات نعش . ويقول طه في اكتشاف ماسينيون هذا : وهو رأي اقل ما يقال فيه انه طريف (ص ١٤٥) . قلت : فلنضمّ اذن هذا الطريف الى تليد ميراثنا الادبي ، ونعلّم فتياننا ان يتوغلوا هكذا في مجاهل التفكير مقتفين آثار جهابذة العرب والعجم . . . فيا ليت شعري اذا كانت هذه طرافة فمن يقول لي كيف تكون السماجة والبلادة ؟ اننا نعوذ من هذا الهذر بشيخنا الشدياق فالجواب عنده . وقد رأى قبلنا غرائب المتمشرقين وعجائبهم في تفسير ادبنا العربي فنّبه اليه منذ قرن . قال رحمه الله :

« لما حان الذهاب الى برستول مررت باكسفورد وقصدت ان ارى خزانة الكتب فيها ، فسألت بواب المدرسة عن شيخ العربية ليهديني لها . . . ثم بعد طول بحث ومعالجة اهتديت الى دار الشيخ - الاستاذ - فقابلته وسألته ان يريني المكتبة تفضلاً وتكرماً . فأجاب الى ذلك وسرنا معاً . واول كتاب فتحه كان بالخط الكوفي ، واذا في اول الصفحة « ألا » فقرأها «ألاّ » وفسرها الله ، فتعجبت كيف انخدع فيه لسمعه ، لانهم جميعاً يلفظون اسم الجلالة مرققاً هكذا . وسألني مرة استاذ آخر : أتعرف لماذا دلت « في » على الظرفية ؟ فقلت : لا . قال : لأنها مشتقة من الفم الذي اصله فوه . وهكذا يخمّنون ويخرّصون على معاني المفردات والمركبات في لغتنا .

وهاك مثلاً على علم هؤلاء الاساتيذ وعلى شرحهم كتبنا تطفلاً ، فتصور مثلاً شرح استاذ اكسفورد لبيت ابي تمام :

همة تنطح النجوم وجدّ   آلف للحضيض فهو حضيض

فيقول الشيخ بلغته : النطاح مختص بالحيوانات التي لها قرون كالثور والتيس والوعل ونحوها ، وقد ذكر في التوراة مرات كثيرة ، ويمكن ايضاً ان ينسب الى ما ليس له قرن ، فقد روى ليناوس ، الذي قسم جنس الحيوان الى سبعة اقسام ، ان الحيوانات الجماء تتناطح بجباهها ، وقد اطلقت العرب اسم الكبش على آلة من آلات الحرب ، لأنها تنطح الجدار . و « النجوم » معروفة وقد كانت العرب تهتدي بها في اسفارهم قبل ان عرفت خاصية ابرة المغنطيس ، ولما كانوا مشتغلين بالعلوم الفلكية والطبية لم يكن في اوروبا من يشمّ لها رائحة - وهنا نترك تلخيص استاذ اكسفورد لتاريخ الاندلس في هذه المناسبة - وينتقل الى « ال » التعريف في النجوم فيشرحها في اللغات

الاخرى ، ويتناول النون في النجوم حيث اختفت « ال » التعريف مع الحرف الشمسي فيخبر عن ناموس وتاريخ نيوتن — اقرأ كشف المخبا ص ١٢٦ اذا احببت التفكهة تامة فانا لا أنقل هنا الا ما يمس موضوعي — ثم يقول : اما قوله : جدّ آلف للحضيض . الحضيض هنا معناه الارض من تسمية الكل باسم الجزء ، ووروده في التوراة كثير . وفحوى البيت انه ، اي الممدوح ، ذو عناية بالارض اي بحرثها واحيائها ، وانشاء المدن فيها وتسوية الاحكام بين اهلها ، لأن الارض كثيراً ما تذكر ويراد بها سكانها ، وذلك ايضاً مستفيض في التوراة حتى ان الممدوح صار خصباً وارضاً لقاصده . هذا اذا لم يفهم الحضيض الحديد ، فيكون التفسير غير هذا .

ويختم الشدياق كلمته بقوله : وهكذا يمشي على انعكاس البيت بهذا العصد هو وتلامذته . وبعد انقضاء ساعة ونصف على تأويله يقومون وهم سامدو الرؤوس ، عجباً وفخراً ، ويظنون ان شيوخ الجامع الازهر والاموي والزيتونة هم دون هذا النحرير » اه .

قلت : وكذلك هي حالنا اليوم — في النصوص — مع اكثر علماء الغرب ، فانهم ينطحون جدران ادبنا متوهمين انهم اتوها من الابواب . لا ننكر انهم صاروا احسن مما كانوا في عصر شيخنا الشدياق ، ولكنه ينقصهم فتّ خبز كثير حتى تشتدّ سواعدهم ويرموا صائباً في هذه المواقف التي قصرت فيها فحول العرب .

وان رأى طه — وهو الاستاذ الكبير — سفساف ماسينيون شيئاً طريفاً ، ولم يجرؤ على تسفيهه ، فسترى منه اكثر ، فاصبر وانتظر ، ها هو ينتقل الى القصيدة الثانية التي مطلعها :

ملثّ القطر اعطشها ربوعا والا فاسقها السم النقيعا

ثم الى الثالثة ومطلعها :

احقّ عافٍ بدمعك الهمم احدث شيء عهداً بها القدم

فـــلا يرى في هـذا الشعر الا « جزالة اللفظ ورصانته ، وصحة المبنى واستقامته ، واعتدال الاسلوب وحسن انسجامه » (ص ١٤٤) . اما الخطوة الواسعة التي جراها الشاعر فما تحسسها طه . لم يشعر قط ان المتنبي يثور بالاقدمين ولا يزال في صفوفهم ، وهو يتهيأ للانفصـال عنهم حين تواتيه الفرصة . انشغل طه عن كل هذا بمذهب الشاعر السياسي فرآه هنا « اعم من القرمطية والتشيع » فقلنا اهتدى الاستاذ . ولكن شيطان القرمطية المريد يعود فيوسوس له فيقول : « وانا اعتقد ان الفتى اخفى قرمطيته بعد انهزام القرامطة » (ص ١٥٥) . وتعاود النوبة الاستاذ حين يصل الى الدالية « كم قتيل كما قتلت شهيد » فيرى ان المتنبي يسخر ويستهزىء حين يقول « هنّ فيه أحلى من التوحيد » وانه قد أثم في هذه القصيدة ، امـــا انا فازعم لطه انه هو الساخر الهازىء هنا لا المتنبي .

ويبلغ طه « ضيف ألمّ برأسي غير محتشم » فيجد فيها ضالته بشياتهـا وسماتها ، فيحسب ان المتنبي قرمطي لانه يقول :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

فهـــذا ما يفعله القرامطة ، فهم لا يصلون وقد ذبحوا الحجاج في الحرم ، اذن المتنبي قرمطي .

لقد حان ان نودع هـذه القرمطية الوداع الاخير ، ونرمي آخر حجر في قفاها . زعم بلاشير ان المتنبي عـارف بأصول القرامطة واستدل على زعمه بهذا البيت : شيخ يرى الخ . فجاء طه الذي اعتمد على بـلاشير في تاريخ الشاعر فقال ان المتنبي قرمطي لا شك فيه ، وهذا حق . اما هكذا تنمو القصص وتكبر حين تتناقلها ألسن الرواة ؟ واذا لم يزد طه على بلاشير فماذا يكون فعل ؟ ايترجم فقط ؟ .

اما انا فاعجب لهذين الاستاذين بلاشير وطه حسين ، كيف عالجا المتنبي ولم تظهر لهما شخصيته ، فعللاها بابسط الاشياء كالقرمطية مثلا .

يقول طه : « ولكن اقامة المتنبي في طبرية قد كشفت عن ناحية من نواحي ملكته الشعرية لم تظهر في شعره السابق، وهي قدرته على الوصف وبراعته في تصوير الطبيعة . » ثم يسرد عشرة ابيات من « أحقّ عافٍ » في وصف بحيرة طبرية ، منها :

والموج مثل الفحول مزبدة تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها جيشا وغى هازم ومنهزم
يشينها جريها على بلد تشينه الادعياء والقزم

كان يجب ان يفهم طه – اذا لم يفهم بلاشير وماسينيون – من شعر المتنبي كله ، ومن هذه الابيات التي وقف عندها ، ان للمتنبي هدفاً ظهر في شعره منذ صبوته فلا يعلله بهذا الغرض السخيف : القرمطية

للشاعر فكرة تسيطر على كل شعره ، صبياً وشاباً ومكتهلا ، لا تحول ولا تزول ، فكأنها الله الذي علمني جدّي انه موجود في كل مكان حتى في جهنم . هذه الفكرة تظهر في شعر المتنبي كله حتى في غزله ورثائه وذكر الخمر . خذ اية قصيدة شئت ، وراقب اية منظومة تقع امام عينيك ، فان لم تجد ما قلت لك فانا اقطع يميني .

فاي دليل على القرمطة في شيخ يرى الصلوات الخ ؟ اهناك غير ذلك الحادث التاريخي ؟ ولماذا لا يكون المتنبي نفسه هذا الشيخ ؟ اهذا بعيد عن لحيته ؟ اتعصمه تقواه ؟ . . ان المتنبي يستغل كل شيء ويستخدم كل فكرة مهما سمت وقدّسها البشر ليخضعها لفنه ، ليس يعنيني أأحسن ام اساء ، فخطيته برقبته واثمه على نفسه . انما العجب من اثنين مسرف ومقتصد :

طه ، وبلاشير ، كيف يتنازعان دليلًا اوهى من شعرة معاوية . رحم الله الجاحظ ، اليس هذا الزعم اشبه « بأنبياء النحل » صلوات الله عليهم ؟

خبّرنا ابو عثمان قال : « زعم ابن حائك وناس من جهّال الصوفية ان في النحل انبياء ، لقوله عز وجل : واوحى ربك الى النحل . وزعموا ان الحواريين كانوا انبياء لقوله عز وجل : واذ اوحيت الى الحواريين . وما خالف ان يكون في النحل انبياء بل يجب ان تكون النحل كلها انبياء لقوله عز وجل على المخرج العام : واوحى ربك الى النحل . ولم يخص الامهات والملوك واليعاسيب بل اطلق القول اطلاقاً الخ . »

اننا نرفع هذه النكتة الجاحظية الى مقام عميد كلية الآداب ولا نعلق عليها شيئاً ولكننا نتمثل في مملكتنا الادبية بقول ابي الطيب في السياسة :

وانما الناس بالملوك وما تفلح عرب ملوكها عجم

فلنتّق الظلع خلف هؤلاء المستعربين لئـــلا تضرب علينا المسكنة في الادب والسياسة معاً .

هوس وعبقرية

ويبلغ الاستاذ قول المتنبي :

أيّ محلّ ارتقي أيّ عظيم أتّقي
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همّتي كشعرة في مفرقي

فيقف عنده ليقول : « ان الشاعر تجاوز كل حد ممكن ، وان الخلفاء والامراء حبسوا غير شاعر في القرون الاولى لأمور ايسر جداً من هذه ، وان الاثينيين قتلوا سقراط لأمور ليست اشدّ مما تورط فيه المتنبي . » يقول هذا ليذهب مذهب أعمى المعرة الذي ينفي دعوى النبوّة عن « الشاعر » زاعماً لنا انه اخذ بهذا الالحاد . اما انا فما رأيت ابياتاً كهذه تفتح باب السجن في دولة تتفكك وتنتثر كأعضاء الابرص . ولكن حماقات المتنبي مجتمعة اذ يرى نفسه كالمسيح وصالح ثمود ، وهذه الثورة الصاخبة كالتنور المسجور تغري الحاكم بتأديبه خوفاً على الكرسي لا على السدرة . . .

ما رأيت المتنبي في « اي محل ارتقي » الا محموماً حرارته فوق الاربعين ، او كالمصروع في الهدّة . ولكنه جنون كالعقل يُستملح ويُستحب لهذا الاطار الفني ، وكم صورة يجمّلها اطارها . في دماغ المتنبي ظلمات مدلهمة لها عندنا الف يد تخبر ان المانوية تكذب ، ولاجل هذه الاشعة المنفلتة ،

لأجل هذه الابيات المجنونة واشباهها اكاد اجزم ان في دماغ ابي الطيب ناحية خربة ، بل اتصور دماغه دنيا فيها العامر والغامر ، وفيها الربع الخالي والحزّات ، فهو تارة ينزلنا بوادٍ غير ذي زرع ، واخرى عند جنات تجري من تحتها الانهار ، وفيها من كل فاكهة ازواج . . . اتصور دماغه كقرص عسل فيه نخاريب مقطّنة ، ونخاريب عامرة فيها دواء الناس . وقد يكون هذا النقص الذي عبّرنا عنه بالجنون — ولا نعني جنون ذاك الذي يراشق بالحجارة — سبباً للكمال الفني الذي جلس المتنبي على عرشه يمثّل المهازل ، وكم في المهازل من عظة وحكمة . . .

الا يلذّ لك صراع هذا الشاعر المهوّس مع « الدهر » ؟ فهو غريمه لا الناس ، ألم تره كيف يمثّل الدهر بشراً سويّاً ليطالبه بدينه ، ويركب كتفيه ، فهو يجدّ في أبشع هوسه ، ويستعدي عليه كافوراً بقوله :

ويا آخذاً من دهره حقّ نفسه ومثلك يُعطى حقه ويهاب
لنا عند هذا الدهر حقّ يلطّه وقد قلّ اعتاب وطال عتاب

ارأيت كيف تموج الحياة تحت قلم الفنان ؟ الا ترى المتنبي يتحدث كأنه جادّ فتكاد تقول معه : آهاً منك يا دهر ، يا أكّال الحقوق ! . . يا كافور احجز متاعه ، وسلّط عليه ابا الطيب يتصرف به تصرّف المالك المطلق . . . ان حماقات المتنبي الكثيرة مكّنت منه حساده واعداءه فادعوا عليه ما شاؤوا . ولو لم ترافق دعواه الشبهات لظل ناعم البال يحمق ويبتهر . لا اخال المتنبي يحب مملكة الروح ، فهو لا يؤمن بغير مملكة اللحم والدم ، ولا يؤلّه غير العقل ، وبهذه الاداة حاول ان يسود فحبطت مساعيه وكان الأدب اسعد حظاً . لم ينط به كافور ضيعة او ولاية ، فشكراً لأبي البيضاء وعاش المخصيّ فقد أسدى الينا جميلاً عجزت عنه الفحول البيض . . .

ما لنـــا وللنبوّة فهي حكاية لا تنفع ولا تضر ، وقلما تلامس فن الشاعر ، وهو غير باكٍ عليها ، فما آلمه الا الخيبة ، الا هذا الدهر القليل الدين ، فقد ماطله جداً واكل اخيراً حقه . . . فعاش ومات منحوس الطالع كما قال :

أبداً اقطع البلاد ونجمي   في نحوس وهمتي في سعود

اما اليأس فما عرف الى نفس شاعرنا سبيلا ، فكأنه المصارع لا يسقط حتى يقوم ، يعالج هذا الحرمان بهذا الشعر المزرقّ اللهب فينفّس عن ذاك الوعاء المسدّح فلا ينصدع ولا ينفجر بل يقول :

كذا انا يا دنيا فان شئت فاذهبي   ويا نفس زيدي في كرائهها قدما

وكأن وهمه يتحقق في آخر الايام فيرى الدهر شخصاً يتنفّس مثله ، وانه هو شجا في حلقه فيهتف :

ما اجدر الايام والليالي   بأن تقول ما له وما لي

وكفى الله المؤمنين القتال . ما رأيت المتنبي الا رباباً — واجلّ قدره عن الطبل وان كان التشبيه انسب — تزيدك انيناً وانغاماً ما زدتها مسّاً وجسّاً ، فهو ومنيته كبولس الرسول القائل : لا حبس ، ولا اضطهاد ، ولا جوع ، ولا عري ، ولا ملوك ، ولا سلاطين ، ولا قتل ، ولا موت تفصلني عن محبة المسيح . او كما قال ابن القدوس :

والشيخ لا يترك اخلاقه   حتى يوارى في ثرى رمسه

فـــانه لم يترك هذا الحمق الذي نغبنه اذا قوّمناه بالشِيَع والبِدَع ، فلولاه ما كان لنا هذا الفنان المهوّس ، ما كان لنا شاعر ضجّ من طول عمره الأبد . . .

ويصف طه حيرة المتنبي بعـــد الحبس فيجيد ، ولكنّه يلتهي بزبرج الكلام ، فينقض ما زعمه سابقـاً عن اسباب خروج الصبي من الكوفـــة

فيقول : « وفيما يعود الى الكوفة بائساً معدماً وقد خرج منها يبتغي الأمل والغنى . » ثم تهجس القرمطية في صدر الدكتور فيقول فيها ما يقول ، أما نحن فقد طلّقناها ثلاثاً . ويأتينا ببرهانه على وحشة المتنبي ومناجاته الأسود حين قال : « اجارك يا اسد الفراديس مكرم » فينبئنا انه متأثر بامرىء القيس والفرزدق لأنه خاطب هذه الأسُد كما خاطبا الذئب . ويسأل طه اسئلة لذيذة ! كقوله : أسمعت الاسود لغناء هذا الشاعر الحزين لست ادري . ولكن المحقق انها لم تحفل به الخ . (ص ١٩١

ويطل على « دمع جرى فقضى في الربع ما وجبا » التي ختمها المتنبي ببيت يدلنا على انه ما لان ولن يلين كما توهم طه :

فالموت اعذر لي والصبر اجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

فيشتغل طه بتاريخها ليرى غير ما رأى بلاشير . ويمر على « فؤاد ما تسلّيه المدام » كالبرق الخاطف فلا يلمّ بتطوّر الشاعر فيها وفي اختها « أفاضل الناس أغراض لدى الزمن » بل يهرول الى « لك يا منازل » وغيرها حتى يبلغ « أركائب الأحباب ان الادمعا » فيقول في هذه ما قاله في غيرها ، اي انها « مدح متصل متشابه معاد لا تجديد فيه ولا تغيير ، وان الشاعر ينهج نهج ابي تمام ، واذا ظهرت شخصيته من حين الى آخر فانما تظهر في اوقات العنف الذي ليس بعده عنف » . وانما قال : « ليس بعده عنف » ليوهمنا ان المتنبي لا يأبى الضيم . ولكنّ طه ادرك الآن بعض ما كان يجب ان يدركه ، ويضع يد القارىء عليه ، ويستغني عن تلك الجمل المرصوفة التي لا تغني شيئاً

لا شك ان الشخصية كالحياة الكامنة في البراعم ، فهي لا تتفتح الا اذا احتضنتها أمّنا العظمى . فهذا العنف او هذا الاستفزاز هو ابو الشعر الخالد . وبالقدح تبعث النار

ثم يتساءل طه عما ينقص المتنبي لينبغ ، فيرى انه ينقصه شيئان : عيشة راضية وبيئة مثقفة . اما انا فأراه قال احسن شعره في حالتي الأمل والألم — لا أدري اذا كان الاستاذ يتهمني بجناس ابي تمام — فلا البيئة المثقفة ولا العيشة الراضية قوّلتاه شعراً . قوّله الشعر الرائع هذان الصاحبان — الأمل والألم — اللذان لم يفارقاه ساعة . اما البيئة فقد فعلت كثيراً في شعره ، وسنؤدي حسابها جملة للاستاذ الجليل لأنه يعرض لها بشيء من المكر ، وما أحلى التمثّل بقول عبد الملك للاخطل : ما اخرج هذا منك يا ابا مالك ، الا خطة في رأسك .

ويخرج طه مع المتنبي الى طبرية فيرى انه وجد عند بدر بن عمار الحياة الهادئة — ومن يقول ان هذا الاعصار يحب الهدوء ؟ — والبيئة المثقفة التي لم يجدها في سوريا ... فوثب فنه . ثم تناول بنقده المعهود « امن ازديارك في الدجى الرقباء » فمغط شرحها ما اطاق واطاقت ، ورأى ريح الصوفية تعبق من اردانها . وأعجبته « الطعنة النجلاء » وتهلل لاشراك الشاعر ناقته والليل في التفكير والعمل ، ولكني لا أدري كيف نسي ان يقول ان المتنبي يقلد عنترة في هذا . ويبلغ طه هذا البيت :

فتبيت تسئد مسئداً في نيّها　　　اسآدها في المهمه الانضاء

فيرتمي فوقه كما يقع صبي على لقطة ، ولا حاجة في نفس طه الا الدلالة على التكرار . وقد دهشت لغفلته عن الطباق في هذا البيت :

انساعها ممغوطة وخفافها　　　منكوحة وطريقها عذراء

افلا يجد ذاك الطباق — البعيد على الاقل — بين منكوحة وعذراء ؟ قد يكون انشغل عنه بالمبالغة ، ولكنه انصف الشاعر ولم يخف اعجابه ببعض هذه القصيدة .

وهنا يطلع علينا طه ببدعة جديدة في تقويم الفن ، وهذا شأنه كلما

سمع شعراً خفيف الخطى ، او رأى تصريعاً كما سترى ، فانه يتأول تأويل مضحكة . رأى في « احلماً نرى ام زماناً جديداً » ان الشاعر باصطناعه هذا البحر المتقارب كأنما هو عجل يريد ان يغلب الامير على التفكير والروّية فهو يرميه رمياً سريعاً جداً ، ولكنه ان غلب الامير فلن يغلب طه كما يقول . ثم يغالط الدكتور نفسه ليرينا المتنبي ذليلاً فيعكس على المتنبي معناه بقوله لبدر :

طلبنا رضاه بترك الذي رضينا له فتركنا السجودا

فيقول : « ولو ان بدراً طغى على نفسه وعلى الناس وخرج عن طوره ، ورضي من المتنبي واشباهه ان يسجدوا له لما تردد المتنبي فيما ارى . »

ان شعر المتنبي واخباره المأثورة تنفي ما قال وسيقول طه في هذا الصدد . واني ارى الدكتور فهم السجود بمعناه الكبير ، وليس هذا الذي يفعله الشعراء للأمراء ، ولكن المتنبي يأباه في حالتيه ، وما رأيته هنا الا ممتنعاً عنه ، فتفدّى الامير قبل ان يتعشاه ، وكان لبقاً كيّساً . . . اما ما عقبه طه على هذه القصيدة فلا يتعدى المبالغة والطباق .

وهنا لا بد لي من كلمة جاء وقتها والا فما عذري عند قرائي ؟ ان في شعر المتنبي لعشاق المبالغة وتراكب الحروف مرعى لا يجف ، ومعيناً لا ينضب . وفيه للعبقرية سماء ما طاولتها سماء — اللهم في الشعر — فالمتنبي كالصبي النابغة يدهشك ذكاؤه وفهمه ، ثم لا تلبث ان تراه يتمرغ بالتراب ارضاء لصبوته . هو كالمنجم تبر وحصى — كما نظم حافظ قول هيغو عن نفسه — . انه ظلمة كثيفة كليل امرىء القيس ، ولكنه كعارض الأعشى في حافاته شعل .

ونصل الى لامية الاسد فيعجب بها الاستاد ويعدّها آية ، غير انه ينعى على الشاعر الانحراف الديني لقوله :

لو كان علمك بالاله مقسّماً في الناس ما بعث الاله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما انزل القرآن والتوراة والانجيلا

وهذا النعي نقبله من غير طه ، الا اذا كان يريد الاحتكار « فليست الديانة — كما قال الثعالبي بعد الاخطل — عياراً على الشعراء ولا سوء المعتقد سبباً لتأخر الشاعر . » ولكن طه تجاوز عن هذا السخف للشاعر ، والعفو حلو عند المقدرة ، في سبيل الوصف الرائع للاسد . وقد سرده بيتاً بيتاً واثنى عليه بقوله : « هذا كلام يمكن ان تنظر فيه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة وترى فيه فتوة وقوة ما أرى الا ان الشاعر قد استعارهما من نفسه وخلعهما على ممدوحه . » (ص ٢٢٩) — لا تنس هذه الكلمة فساعتها قريبة — وهنا احس طه بمقدرة الشاعر الفنية اذ رآه يجمع الوصف المادي والمعنوي للبث ، والحكم والامثال ، فحمدنا الله على ذلك .

وعرض طه لسخط بدر على الشاعر ، واستعطاف المتنبي له ، فما شرد هذه المرة ولا ندّ بل لم يتمّحل لذلك اسباباً عُجيبة ، فعزا ذلك الى كيد القصور والى جهل الشاعر مصطلحاتها وآداب الملوك ، واستعلائه على اصحابه عند الامير .

ويفر المتنبي الى جرش ويقول فيها قصيدته الخالدة « لا افتخار الا لمن لا يضام » فيحسن الدكتور كل الاحسان تحليل الساعات التي حبلت بها وانتجتها . ولكنه ضل ضلالاً بعيداً بل فهم بالمقلوب اذ ظن المتنبي يقولها لانه ذل ، فها هو يترك « بدراً » وسوف يترك بعده الشمس والليل . . . ففي قوله : لا افتخار الا لمن لا يضام ، فخر امرىء ما رأى فوق نفسه من مزيد ، وادلال رجل واحد على العالمين ، ومعاذ الله ان يقر المتنبي الذل في نفسه وان يعنيها بقوله — كما توهّم طه :

مـــن يهن يسهل الهوان عليه مــــا لجرح بميّت ايــــلام

وفي قوله بعد هذا جلاء الشك والريب :

أقــــراراً ألذّ فوق شرار ومرامــاً ابغي وظلمي يرام

دون ان يشرق الحجاز ونجد والعراقـــــان بالقنــــا والشام

يلذ لي ان اقرئك ما علّقه العكبري على شرح هـذا البيت الاخير قال : « المعنى » يقول : « لا الذ قراراً دون ان تشرق هذه المواضع بالرماح وان املأ البلاد بالخيل والرجل واقـاتل الملوك وآخذ بلادهم . ولعلها كانت لآبائه فاغتصبت منهم . وهذا من حماقته المعروفة ، ولا بد له في كل قصيدة من هذا . »

ولست اقول شيئـاً في الاسلوب الرومنطيقي الذي اصطنعه الاستـاذ ليحدثنا عن الشاعر وشيطانه ، فاقرأ تعلم ان طه يعبث كما انذر في اول كتابه . ثم يعرض لاتصـال الشاعر بالاخشيد او بعـامله فيخالف بلاشير ويبزه ، وهذه جسارة نشكرها له ونعرفها به ، انمـا على غير الافرنج ، فرأي طه هنا امثل من زعم بلاشير « ولو قد لقي المتنبي الاخشيد — كما يقول الدكتور — لمـا قصر في ذكر ذلك والافتخـار به ، والموازنة بين الاخشيد وبين مولاه كافور ولا سيما حين غضب على كافور . » (ص ٢٧٠).

ويتصل المتنبي بابن طغج في الرملة ويمدحه بقصيدته :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم علمت بما بي بين تلك المعـــالم

فيعترض الاستاذ على ألف « انا » بقوله : « فانظر الى هذه الألف الـتي أثبتهـا في الضمير اول البيت ليقيم الوزن . » قلت : هذه الألف يجوز حذفها وما جاز حذفه لا يمتنع اثباته . ثم يعود بنا الى المجانسة بين لائم واللوائم ، اما نحن فقد فرغنا منها ومللنا عرض هذه البضاعة في سوقنا . ويتخطى الى نقد حذف المضاف فيقول : « كان عليه ان يقول : ان كنت وقت

لوم اللوائم . » فليعرفني الاستاذ سمعه دقيقة لا غير : انّ طبع المتنبي وعلمه يأبيان عليه حشر المضاف والمضاف اليه في هذا المضيق وهما من لفظ واحد ، فاكتفى بهذا الظرف الذي ينجده على الاضافة . ولمثل هذا أوجب النحويون حذف اسم لات وما أشبهه . فأنا أحمد لأبي الطيب هذه الفطنة والجرأة ، وأود ان يظل باب الاجتهاد مفتوحاً فتقاس الأشياء على اشباهها . فهذا الحذف يدل على علم وذوق معاً يستحق لأجله المتنبي أجزل الشكر

ثم يذكر طه هذين البيتين :

حسان التثني ينقش الوشي مثله اذا مسن في اجسامهنّ النواعم

ويبسمن عن درّ تقلّدن مثله كأنّ التراقي وشّحت بالمباسم

فيقول : « قد وجدا من يعجب بها اعجاباً شديداً ، اما انا فلا ارى هذا التشبيه الا اغراباً ينتهي الى السماجة . » قد نكون على رأي الدكتور فيها ولكن : تلك امة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تُسألون عما يفعلون

ويرى طه ان المتنبي قد صقل بعد ترك « بدر » وثقّفته الحوادث فصلح للمنادمة ومعاشرة الملوك والأمراء ، غير انه انتقد عليه شعراً « يغضب الله ويغضّ من المروءة ، ويصوّر لنا استهانته بالدين وتلوّنه » لقوله :

وأوضح آيات التهامي انه ابوكم وأجدى ما لكم من مناقب

قال طه : « وواضح ان أبهر آيات النبي التهامي انما هو القرآن لا ابوّته للعلويين . » أفلا يغتفر لي طه اساءة الظن ؟ ان نضاله عن الله ، عزّ وجلّ ، ورسله عليهم اشرف الصلاة والسلام ، يريبني جداً .

وأخيراً بعد كتابة ثلاثمائة صفحة أدرك طه او كاد ان المذاهب السياسية عند المتنبي وسيلة لا غاية . قلنا ان المتنبي بشر مثلنا رغم انفه ،

وشعرة مفرقه تلك . . .

وأناخ الدكتور بكلكله على القصيدة التي على الزاي وليس فينا من يستخف قافيتها وتطربه موسيقاها ، وان آخذنا الاستاذ فلأنه لم ينكر اولها بخير ، وهو وصف فذّ للسيف لم نقرأ مثله في الشعر العربي . أفنلهو دائماً بالجراز والعكاز والوجوه والأعجاز لنذكر الطباق ؟ أنكون في نقدنا كالمرَض لا يصبّ سخطه الا على العضو الضعيف ؟ فليس المتنبي كهؤلاء الذين ننقدهم ونتمنى ان نرى لهم حسنة ننوّه بها . فحسانه ، والحمد لفنه ، ملء السهل والجبل . فليته انتقد واحدة منها لنستطعم حديثه الفني . اما هذه الضعيفات المزيلات فقد نسل صوفها لكثرة ما رازتها أيدي النقاد متقدمين ومتأخرين . فأين الأستاذ من خرائد ابي الطيب يدخل خدرها ويهتك ستورها ، فهي لن تقول له « انزل » ولو مال الغبيط . . . أفلا يدلنا على ومضة من بوارق ابي الطيب ؟

وعلى ذكر هذه « الزائية » يطالعنا برأيه في الشعراء والقوافي فيقول : « ان فيكتور هيغو كان يجمع قوافيه ويهيئها قبل ان ينظم شعره . . . » الى ان يقول : « وما أظن الا ان الشعراء جميعاً يستعرضون ما قد ايتهيأ لهم من القوافي ليختاروا منها لا ليحكّموها في انفسهم وفي اذواق الناس . » (ص ٢٩١)

لا هذا ولا ذاك يا استاذ ، فالشاعر لا يركض وراء قافيته كما يركض المعاز خلف عنزته الشاردة ، بل هي تأتيه ليحلها محلها ، وكل قافية يرغمها الشاعر على مقعدها تقف كالمظلوم صاخبة داعية أبد الدهر .

ويمدح المتنبي فارسياً ويثني على قومه ، قبل الاسلام ، وفي ظله ، فيخيل الى طه انه شعوبي . ان هذا كقولنا بشعوبية البحتري لاجل وصفه الايوان ، وكقولهم بشعوبية ابي نواس الهازىء المستهتر لانه قال :

لا در درك قل لي من بنو اسد ، ومن تميم ومن قيس . . . وعند طه ان الشاعر « لم يستطع ان يرقى بفنه . . . وهو لم يستطع ان يعيش عيشة الشاعر المنتج المرتقي بفنــــه شيئاً فشيئاً الا في كنف الاشراف والسادة والامراء كأنه النبت الطفيلي لا ينمو ولا يزهر الا في ظل الشجر الضخام المرتفعة في السماء . . »

لقد تخيلها اعظم من « نبعة » الاخطل واطول مـــن سلم يعقوب فركب من مراكب الغلو ما لم يسخّر لأمين ابي نواس . وبعـــد فماذا تطلب من شاعر في ذلك العهـــد ، وماذا تريد ان يفعل ؟ فما رأيت المتنبي يسمو في مصرع اسد طبرية لانه بلغ رجـلًا منظوراً يلي الحكم ، بل لان للفن ساعات واوقاتاً ، وان شئت فقل للفن فلتات . قـد يحلّق الشاعر ويسفّ في موضوعين متشابهين ، وقد يؤتى سحر البيان في ليـــلة تعقبها شهور واعوام تعقم فيها القريحة ، وان انتجت فلا تنجب .

وأية فعلة فعلها المتنبي اذا وصل او حاول الوصول الى امير كبير ؟ وهل يبلغ الى ذلك غير النبوغ ؟ انعيّره بمـدحه الرعاع الطغـام حتى اذا بلغ القصر وصار اميراً كالامير نقول انه طفيلي ؟ ما كان القصر في ذلك الزمان غير وظيفة ، ومن يعيّر رجلًا بوظيفته وانتاجه في ظل قصر ؟ افلا يعيبنا الناس اذا قلنا ، مثلًا : لم ينتج طه حسين الا في ظل الجـــامعة المصرية حيث كان له جراية فأمن واطمأن ؟

وقبل ان يبلغ ابو الطيب قصر سيف الدولة يمدح ابن عمه ابا العشائر بقصيدة على الشين ، وهاك ما قاله طه في وصفها لتدرك ما يضمره للشاعر من بغض ، فكأنه قاتل ابيه :

« وكأنه في ذلك الوقت كان مشغوفـاً بشوارد القوافي فآثر لقصيـدته قافية الشين ، وخضع لمثل ما خضع له في زائيته من الذل والصغار أمام تحكم

القافية الصعبة .» فهل رأيت نقادة يلصق الذل والصغار بشاعر لانه ركب القافية الصعبة ؟ وهل للشاعر في هـذا اختيار ؟ لا اظن . يذكرني هـذا الذل والصغار قول دعبل الخزاعي في ابي تمام : ولعله سرقه . . .

وينبري طه لهذه الشينية المسكينة فيحدثنا عن الشأشأة والجأجأة ليس غير ، وما اكثر هذا — كما قلنا سابقاً — في رديء ابي الطيب وقد فرغ منه الصاحب وغيره من احباب شاعرنا . . . وهذا ما نمرّن عليـــه اليوم طلاب الفصاحة فلا ينبغي ان يهم استاذاً كبيراً كالدكتور .

وينتقل الى « أتراهـــا لكثرة العشاق » فيقفز قفز السيـارة اعترض طريقها خط حديدي ، وما فعل هذا الا ليدلنا على اشياء تعوّد ان يحسها ولا يملّ تكرارها . ثم يعود الى اللامية التي اتخذ ابياتهـــا برهـاناً على اظلام نسب المتنبي ، وهذا قد فنّدناه سابقاً .

السيفيات والشعر القصصي

ها قد بلغنا حلب فخبّرنا الدكتور « ان للمتنبي في سيف الدولة ديواناً خاصاً يمكن ان يستقل بنفسه ، وهو ان جمع في سفر مستقل لم يكن من اجمل شعر المتنبي واروعه واحقه بالبقاء ، بل من اجمل الشعر العربي كله واروعه وأحقه بالبقاء . »

فلو ترك طه هـذه « المن » كان اقرب للتقوى . فالطيّب من شعر المتنبي لا مثيل له في ديوان العرب ، وان شئت ان تعبّر كالمجترّين فلك ان تقول : نسيج وحده . . . ثم نظر طه في انقطـــاع المتنبي الى سيف الدولة فقال : « فلنلاحظ هذه الظاهرة في نفسها والقياس الى شخصية المتنبي الخ . » ثم خرج من هذه الملاحظة يرى « في هذا الانقطاع تناقضاً غريباً بين رأي المتنبي في نفسه وسيرته بين الناس اذ كان ينزل عن نفسه لكل امير اتصل به » . واخيراً تطوّح في هذه الصحراء فقال : « واغرب من هذا ان سيف الدولة لم يشغل المتنبي عن غيره مـــن الامراء والملوك فحسب ، بل شغله عن الشعر الخالص . »

اما التناقض بين رأي المتنبي في نفسه وسيرته بين الناس فقد لمسناه في كل قافية قالها فلا حاجة الى التخمين ، وبحسبنا بيته المشهور :ومن نكد الدنيا على الحر . . . ولكن هذا لا يعني ما يريده طه ، فليس في ديوان المتنبي برهان واحد على نسيانه نفسه وبيعها من الدلال ، وهو لو فعل لاستراح

واراح الدهر . ولكن الطبع غلب التطبّع فمات المتنبي شهيد نفسه وقيل فيه : كان من نفسه الكبيرة في جيش . . .

ويضرب الدكتور مثلاً على انشغال المتنبي عن الشعر الخالص ابا نواس الذي اتصل بالأمين وظل يقول الشعر في الخمر والوصف والهجاء يا سبحان الله ، كأن قصيدة المتنبي لم تحوِ شيئاً غير المدح ، وكأنما النفوس سواء ، لنقابل بين سكير مستهتر رعديد ، وبين بطل زميّت عرفه الليل والخيل والبيداء . . . ثم ما هو الشعر الخالص ؟ وكيف يكون « هذا الشعر من أروع الشعر وأحقه بالبقاء » ولا يكون شعراً خالصاً ؟ لا ادري . اعلى الشاعر ان يقول في كل غرض ، وهل لم يقل ابو الطيب في كل غرض ؟ فماذا يضير هذا الشعر ان كان ذيله مدحاً ؟ بل لماذا لا يكون المدح شعراً خالصاً اذا كان كمدح المتنبي لسيف الدولة ؟ ان كتاب طه هذا كتب « عن سابق تصور وتصميم » كما يعبّر رجال العدل ، وطبقاً لهذه المادة سنحكم ان شاء الله .

فكل ما رأيت من الاغاليط يتوسل بها طه ليقول : « فهذا كله يدلنا على ان المتنبي كان يتخذ الشعر وسيلة لا غاية ، وعلى انه كان عبداً للطمع والمال لا للجمال والفن . » المال يغري ليس في ذلك شك ، ولكن أكلّ من يكتب ويقبض يكون عبداً للمال ؟ أكلّ من انحاز الى حزب فعاضده يكون عبد ما وظف له من رزق لا عبد الجمال والفن ؟ . . فأحرِ بالمتنبي اذا كان عبداً للمال ان ينام على الضيم عند من أنعل افراسه بنعماه عسجداً ، والا يقول للأسوَد : اذا لم تهبني ضيعة او ولاية . . . ولو كان لا ذمة له لما رعى عهد اميره الأول وحنّ اليه بقوله : خلقت ألوفاً . . . وكأني بعظام ابي الطيب تتحرك صارخة :

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... انا الثريا وذان الشيب والهرم

لست اعني الا هذا العيب الذي يريد الدكتور ان يلصقه بالشاعر ذاهباً مذهب مبغضيه في الامس الدابر ، لا تلك الشأشأة والفأفأة التي أعرض عنها المحدثون فجاء طه يلهو بها ويلعب ، او كما يعبّر القدماء يعيدها جذعة فينقد بعض قصائد لا تثبت على المحك .

وسرعان ما يرجع طه عما قال – وهذه مصيبتي به في هذا الكتاب فكأنه لا يهتم الا بنفخه كما يفعل الزيات بالزق – فينقض ما ابرم بقوله : فما نفقده من حرية المتنبي في فنه تعوضه علينا عبودية المتنبي لسيف الدولة ، ان صح هذا التعبير . » لا ، لم يصح ، فالعبودية لا تصلح للمتنبي بحال ، فمن لم يكن عبد ربه لا يستعبده بشر .

ويصل الى وصف المتنبي للجهاد بين الروم والمسلمين فيحدثنا كأننا نجهل « ان المتنبي لم يخترع هذا الباب ، فقد قال فيه ابو تمام والبحتري ولكنه أنماه وقوّاه » ، ثم يثني على شعر المتنبي ويميزه من شعر صاحبيه تمييزاً صحيحاً حتى يقول : « ونحن نستطيع ان نفهم عجز الاستاذ بلاشير عن ان يذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبي ، فجنسية الاستاذ واختلاف مزاجه وطبعه واخشى ان اذكر دينه ايضاً ، كل هذا يجعل تأثره بهذا النحو من شعر المتنبي قليلاً ضئيلاً . »

قلت : للجنس والطبع تأثيرهما ، اما الدين في هذا الزمان فما أراه يفعل ما يخشاه الدكتور ، واننا لنقرأ قول المتنبي : وبنى السفين له من الصلبان ، فلا نثور كبطرس الناسك . . . وغرّ بقوله : واذلّ دينك سائر الاديان ، معجبين بشاعر يحمس الامير وجنوده وشعبه . أما ما اجحده صراحة ، الآن وكل اوان ، فهو فهم هؤلاء المتمشرقين لنصوص الادب العربي فهماً كاملاً ، وخصوصاً هذه التي شرحها اربعون عالماً منا .

اما الدكتور عزّام الذي قدّم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر

القصصي القديم كله ، فقد لا يخلو من غلو . قال عزّام في كتابه الرصين ذكرى أبي الطيب » ص ١١١ :

« وقصائد الحروب كلها وهي ثماني عشرة قصيدة في واحد وسبعين وسبعماية بيت ، يبلغ فيها المتنبي الغاية التي ليس بعدها متقدم لشاعر او ناثر . . . ان هذا المقدار من الشعر الحماسي البليغ في ديوان الشاعر العربي لا نظير له في الالياذة والشاهنامة ، واحسبه منقطع النظير في الانياذ الرومانية ، والمهابهوتا والرميانا الهنديتين . وهي – يعود الضمير الى الثاني عشرة قصيدة ولو بعدت – اروع شعر حماسي . »

اذا مزجنا رأي عزام برأي حسين كان لنا رأي معتدل ، وفي كل حال ان لم يكن المتنبي فوق هؤلاء فهو مثلهم ، وهذا لا يسلّم به طه ولو اعطيته ملء الارض ذهباً ، فالاجنبي عنده خير من البلدي : ولكن لا ننس ان لعزام حق الحكم في الادب الفارسي فهو من اختصاصه ، اما يونانية طه فاتخيلها كيونانية الخوري بسترس ، وفوق كل ذي علم عليم . . .

ويقابل طه بين المتنبي وابي فراس فيجيد كل الاجادة في تمييز هذا من ذاك ، ويعزو فتور شعر ابي فراس الى قصر منبج . والذي عندي انها النفس ، فهي التي جعلت شعر ابي فراس ينوس نوساً كرقاص الساعة .

ويخشى طه ان يخدع القارئون لهذا الفن من فنون المتنبي عن انفسهم بعض الشيء فيظنوا ان هذا الفن هو القصص كما نجده في الالياذة واشباهها من آيات الشعر القصصي القديم والحديث ، وقد خدع الاستاذ بلاشير نفسه عن هذا الشعر ، وعن الشعر الحماسي كله فسماه قصصاً .

ان طه لا يرضى ولو قال الف بلاشير ومليون عزام ، اما قال هو ليس في الادب العربي شعر قصصي ، فكيف يكون الآن ؟ واليك حجة طه : « ان المتنبي لا ينسى نفسه لحظة ولا بعض لحظة – تذكّر قوله انه

باعها — وانما هو يذكرها دائماً حين يغرق في وصف سيف الدولة . »

قد يفتك احدنا بثعلب يا استاذ ، فيصوره للناس غولاً انيابه زرق ، ويظل يحدث الناس عن فتكته تلك حتى يلاقي ربه ، فكيف تريد ، من شاعر بطل كالمتنبي يعمل سيفه في رقاب الاعداء ويشاطر اميره مر الجهاد وحلوه ، ان ينسى نفسه ؟ ارأيت انــه ليس عبداً كما توهمت ؟ فمن فمك ادينك . ان العبد هو ذاك الامير — ابو فراس — الذي قال في وصف احدى هذه الوقعات :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا
وكنا كالسهام اذا اصابت مراميها فراميها اصــابا

وهنا لا بد من كلمة هذه ساعتها ، حول الشعر القصصي . يقول طه : « واخص ما يمتاز به الشعر الغنائي من الشعر القصصي هو هــذا العنصر بالضبط ، هذا العنصر الذي يمثل الشاعر امامك في كل لحظة ويقنعك بان الشاعر لا يصف وانما يتغنى . . . فليس شعر المتنبي في وصف الجهاد بين المسلمين والروم قصصاً وان اشتمل على كثير من مميزات القصص ، ولكنه غناء لانه يشتمل على اخص مميزات الغناء . » امــا انا فارى ان الفن لا يعرف القيود ، وان بين الشعراء فروقاً ، فلا يلزمنا تطبيق فننا على شعر هوميروس والفردوسي وغيرهما ليرضى طه حسين . ان شخصية المتنبي غير شخصية هوميروس ، ولا يستوي الاعمى والبصير والسامع والرائي ، وانني ارى العرب ابصر بمواطن الشعر — وقد يكون للوزن والقافية يــد في ذلك — فهم يأنفون ان يكون شعرهم كالبوّ ، فلم يحشوه بالاعلام والارقام بل كانوا يهرعون الى النثر حيث لا يصلح الشعر ، ولهذا لم يخضعوا شعرهم لملحمة ما . اما تحطمت شاعرية سليمان البستاني ، وهو الشاعر البصير ، حين نطحت تلك الجدران التاريخية في الالياذة ؟ وهل يحيا الشعر اذا لم ننفخ

فيه من روحنا كما نفخ الله مرة ثانية فكانت كلمته المتجسدة ؟ وهل نطلب من اعمى كهوميروس ان يكون في شعره فصيح المتنبي ذاك الحية الذكر ؟ وهل يؤمن طه ان شاعر الالياذة ما ظهر قط في ابطاله ، فمن احياهم يا ترى ، أأنا وهو ؟

ويا ليت شعر قلمي كيف يستطيع شاعر كالمتنبي خاض الحرب فشرى وباع ان يخفي عاطفته وينكر وجوده ليقوم واحد مثلي في آخر الدهر ويقول : هذا شعر قصصي .

ان طه لا يسمح للمتنبي ان يقول :

ورعن « بنا » قلب الفرات كأنما تخرّ عليه بالرجـــال سيول

تمل الحصون الشم طول « نزالنا » فتلقي « الينا » اهلهـــا وتزول

يريد طه أن ينكر المتنبي وجوده فيقول : ورعن به قلب الفرات . . .
أو : تملّ الحصون الشم طول نزاله ، ليصير شعره قصصياً .

ان المتنبي لا ينزل عن « نا » حتى ينفخ في الصور ، ويلقى المعري اباه عند الحوض . نريد ان يكون لنا شعر قصصي وطه لا يريد مـــا لم ينس المتنبي نفسه ، وعود العجل الى بطن امه صعب ، فامرنا لله بـــين هذين العنيدين . . .

لم يحسب المتنبي للناس حساباً فارضى نفسه وفنه واميره . والفن الفذ لا يعرف الحدود والمقاييس ، فالفنان كهؤلاء الجبابرة الذين يقلبون الدنيا ، ويكبّون نظمها ، كما كبّ امير المؤمنين كنانته حين رمى العراق بالحجاج . والفن الذي لا يكون هكذا لا يعيش . ان الفنان يخلق فنـه ويلقيه في احضان القوابل يقمطنه وينادي :

اذا شاء ان يلهو بلحية احمق اراه غباري ثم قال له الحق

وبعد ، فليس على المتنبي أن يحذو حذو هوميروس ، فهوميروس

حكّاء وصّاف لما سمع كما تخيّل ، فمن اين تأتيه العاطفة المشبوبة التي لأبي الطيب ؟ اما شاعرنا وهو ابو النهضة العربية الواثبة اليوم ، فوصف شيئاً خالط لحمه ودمه وشيّب رأسه ، فكيف يخبىء الزمّار ذقنه ؟ فليطو طه بركاره ومتره ، وليضع زاويته في صندوقته فليس الفن مثلثات ومسدسات وموشورات واهراماً ، أليس لحبة الثلج الف شكل ؟ . . لقد طال لغو الاستاذ حول الشعر العربي ، فهو يحدثنا ابداً عن هذا الشعر اليوناني القصصي كأنه كان قبل اثينا وحارب مع اشيل في طروادة ، او هندس الاكروبول ورضع مع هوميروس شهداً ، وسمع معه في المهد تلك الانغام . . .

وخلاصة ما أقول ليس للفن اقيسة ، فالفن يخلق خلقاً ، ولو وصف شاعر كهوميروس حروباً شهدهـا بنفسه كالمتنبي ، لاخطرّ اديب موقّر كالاستاذ طه ان يحاول وضع هذه الاغلال في رقبة الفن ، ولكن الفـن كسبع لافونتين يموت من الجوع ولا يلبس الطوق الذهبي .

فليخلق الفنان فنه ، وكل فن غير بكر ليس عندي بفن ولو أشبـه الذكر الحكيم ، ومعاذ الله ان يؤتى بسورة من مثله ، فليس وصف المتنبي لما رأى الا اروع الفن القصصي ، ولطه ان يحكم كما يريد .

اقليمنا وشعر المتنبي

سيقولون : اقليمية . ادب اقليمي . عصبية ادبية . اما نحن فنجيب : الاقليمية باب الادب العالمي فادخلوها بسلام آمنين .

واذا قلنا الاقليمية فلا نعني الخروج على سيبويه ، فمن يتمرد حتى على الاخفش وثعلب ويونس تفك رقبته . ومن يتطاول على الخليل بل على اقل اعرابي نجعله عبرة للعالمين . اننا ندعو الى ادب مرغوب فيه ، الى ادب طازج ، فقد سئمنا اكل القديد . ندعو الى ادب يصور امصارنا تصويراً صحيحاً ، فاقليمية كهذه تنفع ولا تضر . فليعفنا احباؤنا ، عفا الله عنا وعنهم ، من الزندقة ، فليس من يستعبده القديم مؤمناً مخلصاً ، ولا من يكدح لتضخم ثروة امته الادبية كافراً مرتداً . فالعربية لساننا ، ولنا فيها الطريف والتليد ، فكيف نجحدها ؟

لست اعد الادب الروسي الا اقليمياً ، وغيره مثله ، وان لم يقم فينا مبدعون يصورون اقاليمهم بالوان لسان العرب يظل ادبنا فاتراً مزاً . تقرأ واحداً من ادبائنا فتستغني عنهم اجمعين .

فليكتب الشامي والحجازي واليمني والعراقي والمصري بلغة العرب ولا جناح عليه ان استوحى بلاده واستلهم محيطه .

وعدت الدكتور انني اؤدي له حساب البيئة جملة ، وها هو ذا الدين يستحق ، فلننقل كلمتنا في البيئات الثلاث : الشامية والمصرية والجليلية التي

اشار اليها الدكتور فقال :

« كان ينقصه – المتنبي – شيئان : حياة راضية . . . وبيئة مثقفة . . . قوية الثقافة ، رشيدة بصيرة بالادب ، قادرة على النقد ، عالمة بالوان الكلام ، وهذه البيئة لم تتح للمتنبي اثناء اقامته الاولى والثانية في شمال الشام » (ص ٢٠٠) . « ولم يكن للبيئة العربية في الشام في ذلك الوقت حظ ممتاز من الثقافة الادبية والعلمية ، وانما كان المتنبي محتاجاً الى البيئة المصرية التي نشأ فيها فن ابي تمام ، والى البيئة العراقية التي نضج فيها فن ابي تمام . اما المتنبي فقد نشأ شعره في العراق وحاول ان ينضج في الشام فأدركه البطء ودبّ اليه الكثير من الفساد وظهر فيه تكلف يمقته الذوق العربي الصريح » (ص ٢٠١) . « ولست أشك في ان المتنبي لو اقام في العراق وجه حياته لأسرع الى النبوغ ولاتخذ شعره لوناً آخر ، ولبرىء من كثير من العيوب التي انكرت عليه ، ولاجتنب كثيراً من فساد اللفظ ، ولارتفع عن هذه المبالغات السخيفة التي سيعاب بها شعره ابد الدهر » (ص ٢٠٢) . « والامر لا يقف عند المتنبي ، وحده ، فقد اصبح المتنبي ، كما تعلم ، اماماً للشعراء فأخذ الناس عنه فنه بما فيه من خير وشر ، وكذلك كان استقبال المتنبي شبابه في الشام مصدراً لكثير من الضعف الذي ألمّ بشعره هو ثم بشعر الذين قلدوه . » (ص ٢٠٣)

يوطىء بهذا الكلام لقوله : « فترك شمال الشام وانتهى الى طبرية واتصل ببدر بن عمار فوجد البيئة المثقّفة الناقدة فوثب فنه في اشهر قليلة . » (ص ٢٠٤)

ثم يعود طه الى البيئة مرة ثانية فيقول : « وانا اعلم ان هذه النهضة العقلية والادبية لم تكن طبيعية ولا متوطنة في سوريا الشمالية ، وان البيئة العربية في شمال سوريا كانت جاهلة في شباب المتنبي ، وان جهلها

قد أثر في شعر المتنبي آثاراً ظاهرة نكاد نلمسها بايدينا ، انما طرأت هذه النهضة طروءاً وظهرت فيها فجأة حين نهض فيها هذا الفتى العربي — سيف الدولة — فلقي شاعرنا في حلب بيئة لم يلق مثلها من قبل فيها غذاء لعقله وارهاف لحسه وتقوية لشعوره ، وفيها قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ملاحظة متصلة ونقد مستمر وحسد وكيد . فتأثر عقله وشعوره وذوقه بهذه البيئة الجديدة وظهرت آثار هذا كله في شعره الذي قاله في هذا الطور . »
(ص ٣٣٦ و ٣٣٧)

ثم يذكرها مرة ثالثة بمناسبة بلوغ المتنبي الفسطاط فيثني على مجد تلك البيئة الأثيل وشرفها الأصيل ، بكلام مغلق مبهم ، فهو لا يستطيع ان يسمي لنا واحداً ، فيخبرنا عن العلم والعلماء — وهذا لا ينكر — ويمغمغ اذ يتحدث عن الادب والفن لان هذه البضاعة لم تكن في ذلك البندر بل كانت تصدّر اليهم من العراق والشام ، يعرضها اصحابها على امراء مصر فلا تنفق عندهم ، فيعودون هاجين متذمرين كما عـــاد ابو نواس والمتنبي وغيرهما . لذلك يحدثنا طه عن هذه البيئة الثالثة المصرية حديثاً عاماً مطاطاً كقوله : ان البيئة المصرية تالدة لا طارفة او لم تكن عارضة ولا طارئة ، وانها لم تزل بزوال امير كما حدث في الشام . ولست أغلو ان قلت ان شعر المتنبي في مصر اقلّ سقطاً من شعره في حلب لأن المتنبي فيما يظهر كان يقدر العلماء والمثقفين المصريين اكثر مما كان يقدر العلماء الذين كان يلقاهم في قصر الحمدانيين . (ص ٥٤٧)

هذا الذي ظهر لطه . اما الذي ظهر لي انا فهو اننا ارسلنا المتنبي الى مصر ناضجاً كل النضج بعد ان قضى في محيطنا سنين أنمت ذوقه وصيّرت بسره رطباً وتمراً . وأذهبت كثيراً من جفاء طبعه ولسانه الذي حمـــله الينا من البوادي . فاللهجة الشاميّة التي هي أصح لهجات العرب ، والتي

تكاد تكون حتى اليوم فصيحة ، هي التي أسبغت على اسلوب الشاعر العظيم هذه الروعة وهذا الاسلوب البعيد عن الكلفة والعجمة ، بل هذه التعابير الدمثة التي يفوح من اردانها عرف المدنية وأريج الحضارة ، لا كتلك الرواسم والقوالب التي تأبطها شعراء العرب اجيالاً فرددوها جيلاً بعد جيل ، وقد حملها الينا المتنبي حين « شرّف » ارضنا .

كان المتنبي ابصر من زرقاء اليمامة فترك تلك « القوالب » القديمة حين قال الشعر عندنا . تحضّر فصار كالملبّس على اللوز ، اساس عربي متين وزخرف فني اكتسبه من لسان الشام . فلو اخذنا ديوان ابي الطيب وقرأنا الشعر الذي قاله في حلب ومصر رأينا ان اللهجة الشامية شائعة فيه ، وهي التي صارت للمتنبي فناً تحير الناس في فهم اسراره . ومن يقف اليوم وقفة مدقق يتحقق ان اللهجة الشامية اقرب الكلام الى فصيح العرب لا تدانيها لهجة الحجاز ومصر والعراق فصاحة وصحة تركيب .

اننا لا ننطق عن الهوى ، فخذ الكتاب الكريم وقابل بين آياته الخالدة وتعابيرنا تجدنا اليوم ننطق بالكثير منها . وخذ شعر المتنبي في سيف الدولة فصاعداً ترَ ايضاً ما قلت لك ، والاسلوب الشامي الذي ينعى علينا ابناء عمنا المصريون استعماله هو هذا الذي يدور على السنتنا ، ولا يحتاج الا الى تهذيب قليل ليصير فصيحاً .

فالذي يلوح لي ان هذه البيئة التي عدها طه جاهلة لم تسعف المتنبي على وثوب فنه لهي التي خلع لسانها ولهجتها على ابي الطيب بردة الخلود . لم يكن المتنبي من الشعراء الذين تُخلق معانيهم من ألفاظهم كالبحتري حتى يفتش عن قوالب معلومة ، بل كان يفصّل الالفاظ اثواباً للمعاني ، وقد وجد النسيج المطلوب في مخزننا الشامي ، ففصّل منه ذخائر وطرفاً للأدب الخالد .

قـــال طه ان فن المتنبي وثب حين اتصل ببيئة سيف الدولة ولكنني رأيته جاءهم وهو أعلم منهم فلم يثبتوا له في ميدان من الميادين لا في اللغة ولا في غيرها ، فاستفحل عليهم وما كانوا من رجـاله . فهو اذن لا يحتاج لغة ونحواً بل يحتاج ذوقاً وفناً ، وهذا ما خلقه اقليمنـا فيه . فماذا افادت الشاعر بيئة ابي علي الفارسي وقد سمعناه يقول له في اول ساعة : اسكت ، هذا فوق علمك ؟

ويا ليت شعر طه ، اين كان يتعلم الشعراء – في ذلك الزمـــان – اللغة والتعبير ، افي السوربون حيث درس هو الآداب ، ام في البوادي والحواضر التي كانت لهم كاكسفورد وكمبردج ؟ ولو كانت تلك « الحلقات » التي يسميها طه بيئات تعلّم الادب والفن لما قال صاحب اليتيمة في شعراء القطر الشامي – واولهم المتنبي :

« والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولاسيا اهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة السنتهم من الفساد العارض لألسنة اهل العراق بمجـاورة الفرس والنبط ومداخلتهم اياهم ، ولمـــا جمع شعراء العصر من اهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة . »

خص الثعالبي اهل العراق بالذكر لان الشعر كان ملقياً بجمله عندهم ، ولم يذكر مصر لأنه لم يكن لها حساب جارٍ في متجر الادب . اما البيئة المصرية التي يتبجح طه بمدحها ويمنّ على المتنبي فعدت الى تاريخها وأنصتّ الى تلك الحقبة فمـــا سمعت الا دجاجات تقوقي وضفادع تنقّ – شعر علماء – فهناك علماء ليس لهم في الادب خل ولا خمر . فلا ديك يصيـح حتى ولا طاطم تهذي كما قـال ابو الطيب في بيئة حلب الحمـدانية التي يكبرهـــا طه تضليلاً ثم ماذا تكون عملت البيئة المصرية للشاعر ،

رواية خواصه تعزى اليها ، فهل من يدلني على واحدة وله الاجر والثواب ؟ هل من يدلني على اثر واحد وله الشكر ؟ أما لونه الشامي فصارخ ، وهذا ما اسخط شيوخ ابن خلدون . . .

لم يشأ الشاعر ان يكون مجترّاً فجاء بتعابير رأوها هم حدثاً عجيباً ، ورأى غيرهم فيها المتنبي مبدعاً . انه لم يتأثر بتلك العبارات المهيأة التي اقتتل عليها الشعراء قبله وبعده ، بل لم يعبأ بكلمتهم المأثورة : ليست على مجرى الكتابة . وهل الاساليب أنهر لا تجري الا في مسيلها ؟ . .

فمحيطنا وحده كان مدرسة الشعر والشعراء لا تلك البيئات التي هي جماع من هاهنا ومن هاهنا كما تتجمع الاغربة ، والدليل على ذلك قول الثعالبي ايضاً :

واخبرني جماعة من اصحاب الصاحب بن عبّاد انه كان يعجب بطريقتهم المثلى . . . ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد حتى كتب دفتراً ضخم الحجم وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ احد منه عينه غيره . (اليتيمة ، جزء ١ ص ٦ و ٧)

وهذا صاحب وفيات الاعيان يؤيدنا بقوله : وفي بلاد الشام خرج المتنبي الى البادية فشافهَ الاعراب — الذين سماهم طه جهلة (ص ٢٠٢) — وبلغ غايته من البيان ، وكانت اللغة يومئذ لا تزال صحيحة في البادية ، وكان علماء اللغة يغتنمون قدوم الفصحاء من اهلها ليحاوروهم في اساليبها ويستأنسوا بسليقتهم في تقرير قواعدها واستبانة الصواب فيما استبهم من مسائلها . (معجم الادباء ٥ — ٢٨)

فنحن كنا مع صاحبنا المتنبي كدنياه التي قال فيها فلما دهتني لم تزدني بها علماً . قد نكون لم نزده علماً ولكننا رققنا حواشيه واستهوته لهجتنا ففصّلها حللاً للشعر الرائع ، وقد ظهر ذلك ابرع ما يكون

في مدائح كافور واهاجيه ، فخلب ألباب ذوي الاذواق السليمة ولم يسخط الا" المتقعرين .

وسنتحدث طويلًا عن هذا الاسلوب الشامي في اثناء بحثنا القصة اللبنانية ونبين محاسنه وما فيه من قوة وضعف ، وهـذا الاسلوب سبب الخلفة بيننا وبين ابناء عمنا المصريين ، فهم يريدون منا ان نعبّر بما لا نحس" ، ونحن نرى في بيتنا ما يغنينا عن الالتجاء الى غيره ، فنمشي في سبيلنـا ولا نجعل كلامنا على القوالب المعلومة وخرطها .

ان المتنبي مدين للبيئة الشامية في اكثر خواصه الادبية ، وهذا الذي تمنّى بلاشير ان يتذوقه كما جاء في (المكشوف عدد ٨٥ ص ١١) .

قال بلاشير : « ان العقاد والمازني الخ يطلعوننا بدقة على الاهواء الوطنية والقومية التي يغتبطون بايجادها في اقوال مادح سيف الدولة ، وهم بخلاف ذلك عاجزون عن بسط الاسباب « الادبية » الخاصة بهم والتي تجعلهم يتحمسون لبعض ابيـات المتنبي . لا نقول هـذا لانهم اهملوا ذلك في مؤلفاتهم بل لانهم عندما يبحثون اسلوب ابي الطيب يكتفون غالباً بنقل احكام النقد القديم .

« فبالنسبة الينا — اي الى المتمشرقين — لا يزال سر بعض الابيـات التي يؤخذ بها الشرقيون كما هو ، لا من حيث الفكرة التي تعبّر عنهـا ، ولا من حيث الفن الذي تتجلى فيه ، ولا من حيث الايقاع الذي تتصف بـه ، بل من حيث تمازجات مؤتلفـة بين الاحرف الصوتية والساكنة لا تستطيع اذننا تذوّق سحرها . »

قلت : لقد طلب الاستاذ بلاشير امراً صعبـا ، فهو يريد ان يتذوق موسيقانا الشعرية المنبثقة من تمازجـات مؤتلفة بين الاحرف الصوتيـة والساكنة . فكأني بالاستاذ يتحدث عن لغته لا عن لغتنا ، ثم ليس الحق

علينا بل الحق كله على من خلق بلاشير هكذا ، فعسى ان يخلقه خلقاً ثانياً ليدرك هذا ويتذوقه ، فهل يفهم مولانا بلاشير خصائص حروفنا فهماً صحيحاً ليطرب لها طرب العربي ، بل هل يستطيع التلفظ بها تلفظاً كاملاً ، ولا اقول صحيحاً ؟ فهبنا دللناه على ذلك فهل نستطيع أن نعمل عجيبة ، فنخلق بلعوماً وخياشيم جديدة تحسن اخراج العين والغين والحاء والخاء وغيرها من فمه ؟ رحم الله المطران جرمانوس فرحات القائل :

كأني حرف الحلق والدهر افرنجي

فالذي لا يستسيغ الحروف ولا يحسن التلفظ بها لا يحسّ موسيقاها .

ويقول الاستاذ بلاشير ان الطلبة المراكشيين سمعوا منه شرح ثلاث قصائد فضحكوا لمعانيها ، اما انا فراجح عندي انهم انما ضحكوا لمنطق الاستاذ بلاشير . . . اما الاسباب « الادبية » التي يطلب بلاشير ايضاحها عند نقاد العرب فلا يجدها ، ويسعى وراءها عند المتمشرقين ، فلا يظفر بشيء ، فلعلنا نعود اليها في آخر هذه الفصول فنتحدث عن فن المتنبي ، وتأثيره في العقل العربي . اما الآن فنقول للاستاذ بلاشير : على من يريد تذوّق أدب امة تذوّقاً تاماً ان يدرك اسرار تلك اللغة ليفهم ما يقرأ فهماً غير منقوص . فبلاشير وزملاؤه المتمشرقون يتلهون بقشور لغتنا ، والذي يبلغ اللب منهم قليل وجوده . وبرهاني على ما ازعم عمل بلاشير نفسه ، فقد فتحت ، عرضاً ، كتاباً ألّفه بلاشير لبني جنسه الراغبين في تعلّم العربية ، فرأيته يترجم لهم « مضى لسبيله » Il continua son chemin (راجع ص ٣٥٢ من كتاب بلاشير المطبوع في بيروت) .

ان فهماً كهذا لاسرار اللغة العربية لا يمكّن صاحبه من تفهّم البهاء زهير فكيف بشاعر ضخم كالمتنبي حيّر الشرّاح العرب ؟

في حلب

نحن في الشهباء ، والدكتور يعرض علينا شعر المتنبي في سيف الدولة من : وفاؤكما كالربع اشفاه طاسمه ، الى : فهمت الكتاب ابرّ الكتب . ويبادرنا بشرح لا يغذّي ولكنه يملأ الكرش . . . يوسوس في صدره شيطان النقد فيريه اختلافاً بين الميمية التي يستقبل بهـــا الشاعر سيف الدولة ، وبين الدالية التي استقبل بها بدر بن عمار – أحلماً نرى أم زماناً جديدا – فيقول : كان المتنبي في مدح بدر مندفعاً شديد الاندفاع يكاد لا يملك نفسه ، وكان يلائم بين شعوره وشعره ، فيصطنع البحر المتقـارب الذي يصور اسراعه الى الامير – بدر بن عمار – . اما ميميته في سيف الدولة فلا تصور اسراعاً ولا اندفاعاً انما تصور اناة ومهلًا . وانا اقدّر ان المتنبي كان في الخامسة والعشرين حين اتصل ببدر ، وكان في الرابعة والثلاثين حين اتصل بسيف الدولة ، وانا اقدّر اثر الشباب في ذلك الاندفاع واثر الكهولة في هـذه الاناة . (ص ٣٤٦)

هذا ما قدّره طه . اما انا فأقدّر ان طه امسى يحسب قراءه همجاً فينثر عليهم مثل هذه المزاعم ولا يستحي . يحدثهم عن الاندفاع « البحري » كأنه حقيقة لا شك فيها حتى يعزو مثل هذا السخف الى بحور الشعر . ثم يصدق نفسه فيلتمس لذلك الاعذار فيحتج للبحر الطويـــل بالكهولة ، وللبحر المتقـــارب بالشباب . فهل يقول لنـــا طه لمـــاذا اصطنع المتنبي البحر

المتقارب ، قبل موته بعام ، حين أجاب سيف الدولة على كتابه الاخير ؟ أليظهر له اسراعه اليه ، ام تراه استغاث بالدكتور فورونوف فأرجع الشيخ الى صباه موجع القلب باكياً ؟ . .

انها رحلة سندبادية قام بها طه لاجل الفن ولكنه ضاع حيث تناطح البحران . . . ان ضرّات هذه السفاسف كثيرات عند طه . رأى تصريعاً في شعر المتنبي الاخير فخاله ضرباً من التجديد ، وترجّى حدثاً عظيماً لو عاش الشاعر ، ولكن العقاد صديق الدكتور ادرك هذا الشطط فنبهه اليه واسقط عنا هذه المؤونة . وهناك افتراضات غير هذه يحاول بها فك طلسم البحر الطويل والقافية الميمية ، فيها في نظره اشد خطراً من تلك العقد التي نفثتها هند لابن ابي ربيعة . . . فيتساءل لماذا اصطنع المتنبي كلمة الطاسم وعدل عن الكلمة المألوفة وهي الطامس ، ثم لماذا اخّر الجار والمجرور عمداً الخ ؟ . .

ولو فعل المتنبي كما شاء الاستاذ لقال بلا شك : ما اثقلها قافية ! انظروا الى هذه السأسأة . وبعد دوران ولف طويلين ينتقل الى البيت الثاني :

وما انا الا عاشق كل عاشق اعق خليليه الصفيين لائمه

فيرى فيه — وهذا اغراب القدماء — فصلاً تعمّده الشاعر ليثير استطلاع النحويين . ان في وسع طه ، لو اختار الوصل ، تقدير الواو وهذا ورد عن القدماء كقول الحطيئة :

ان امرأ رهطه بالشام منزله برمل يبرين جار شدّ ما اغتربا

والمتنبي لا يرى في الاغراب بدعاً ، ولا في الجري على خطة القدماء حرجاً . وهناك وجه آخر غير هذا لم يقله القدماء ايضاً وهو عندي خير الوجوه . فما علينا ان جعلنا « كل » نعتاً لعاشق ، وهذا كثير في كلام العرب كقول الشاعر :

وان الذي حانت بطلح دماؤهم   هم القوم كل القوم يا ام خالد

ما ارى المتنبي يلحن ، وانصح لمن يخطئه ان يقرأ عشر ليال قبل ان يفعل ، فما رأينا احداً ساوره وبزّه ، بل لم نر حرفاً في كلامه الا قد جرى على لسان العرب . وما اخال المتنبي في شأشأته وفأفأته ومأمأته الخ الا فاعلاً ذلك لامر ما ، لا لجهل وقلة ذوق .

اما تعليل طه لقوله :

كئيباً توقاني العواذل في الهوى   كما يتوقّى ريّض الخيل حازمه

فقد طبّق فيه المفصل كما يعبّر القدماء ، فالمتنبي شموس حرون حتى في هواه ، وبيته هذا بلاغ وانذار للامير . . . ويصف الشاعر تصاوير على السرادق المنصوب لسيف الدولة فيقول طه : والخطأ كل الخطأ ان يظن قارئو هذا الوصف لما كان على الخيمة من تصاوير ان المتنبي قد ارتجل هذا الوصف ارتجالاً ، والخطأ كل الخطأ ايضاً ان يظن ظان أن المتنبي قد ابتكر هذا الوصف وجاء به من عند نفسه (ص ٣٦٠) . ويذكرنا بوصف ابي نواس للكؤوس ووصف البحتري للايوان ، ويظن ان المتنبي قرأه وانتفع به .

ليس فينا من يظن ان المتنبي لم يقرأ وصف القدماء ، ولكنه قرأه ليتحاماه ويبز قائليه (فشخصية المتنبي لا تضعف ولا تتضاءل امام الفحول الذين سبقوه ولكنها تثبت لهم وتقوى عليهم) وهذا ما يعترف به .

وبعد ان يشبع هذه الميمية عركاً وعرقاً يقول : « ان المتنبي قد بهر وراع وملأ القلوب والاسماع » بهذه القصيدة ولكنه يحتاج الى شيء آخر وهو « الذلة والملق » ، ويؤيد زعمه هذا بقول الشاعر لاميره من قصيدة :

ليت انا اذا ارتحلت لك الخيل   وانا اذا نزلت الخيام

ثم يسأل القارىء : « ومـا رأيك في هذا الشاعر العظيم الذي يفاخر

الشعراء ويستعلي عليهم ويسرف في الكبرياء ثم يتمنى ان يكون فرساً يحمل الامير اذا سار ؟ » قلت : الجواب عند المتنبي ، أوَلَم يقل لأميره :

ومن ركب الثور بعد الجواد انكر اظلافه والغبب

هذه بهذه يا استاذ ، فشاعرنا دنيا ، وان تعدّوا نعمة الله لا تحصوها .

وينظر في المراثي فيقرر ان المتنبي لم يكن يصدر فيها عن العاطفة بل عن العقل والفن ، ويعرض علينا رثاءه ام سيف الدولة قائلًا : وما اظن الا انك ستوافقني على ان الشاعر اعتمد على فنه اكثر مما اعتمد على أي شيء آخر (ص ٣٧٩) . وفتشت عن هذا « الشيء الآخر » فرأيت ان رثاء النساء المحصنات صعب جداً ، وشكرت لأبي الطيب هذه الكياسة التي أزّر بها في هذه المحارم . ويمضي بنا الدكتور الى قول الشاعر :

يدفن بعضنا بعضاً ويمشي اواخرنا على هام الاوالي

فتخطر له الفلسفة العلائية فيخبرنا هنا ، وفي مواطن شتى ، ان هذا الشعر كان نواة فلسفة المعري . قد زعم حقاً ، ولكن النواة لا تؤدي المعنى تاماً . فالمعري ، في نظري ، شارح لكليات قررها ابو الطيب في شعره ومضى كما يفعل الشاعر . فجاء هذا الضرير يكبّرها فأفقدها الكثير من روعتها الفنية .

ويقول المتنبي لسيف الدولة في هذه القصيدة :

وان تفق الانام وانت منهم فان المسك بعض دم الغزال

فيقابله طه بقول المتنبي من ذي قبل :

وما انا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ثم يقول : « والمتنبي حرّ ان يسرق نفسه . » فهذه « اليسرق » شاهد عدل على حكومة طه ونزاهتها . . . ويرى القافية الشهيرة — يا اخت خير اخ يا بنت خير اب — التي احرقت قلب ابن عبّاد اجمل ما قاله

المتنبي في الرثاء لسيف الدولة ، ولكنـــه يتعجب كيف يشرق الدمع بالمتنبي . ثم يناقش الاستاذ محمود شاكر الذي زعم ان المتنبي احب خولة المرثية بهذه القصيدة ، فلا « يرى فيها ما يدل على صلة او شبه صلة قريبة او بعيدة بين المتنبي والفقيدة » .

قلت : ان هذا الجزم القاطع المانع لا يقبل من طه وهو الذي تبنى مذهب ديكارت وبشّر به ، ولاسيما ان في هـذه القصيدة شبهة تدعم ظن الاستاذ محمود . فما حدث بين المتنبي وسيف الدولة وابني عمه يثير شكاً قوياً . وممّ يخاف الشاعر ليعقّب على قوله :

يظن ان فؤادي غير ملتهب   وان دمع جفوني غير منسكب

بقوله :

ولا ذكرت جميلاً من صنائعها   الا بكيت ولا ود بلا سبب

فمثل هذا التبسط ، بل مثل هذا التعليل لا يُطلب من الشعراء . انها عاطفة حاول الشاعر اخفاءها فابت الا أن تمد اذنيها ، وتظهر بصور لا تخفى على متأمل لا هوى له .

ثم بماذا نعلل هذا الحنين الدائم الى سيف الدولة وهو مصطبغ بالوان الحب اشد اصطباغ :

رحلتُ فكم باكٍ بأجفانِ شادنٍ   عليّ وكم باكٍ بأجفان ضيغم

ولو ان ما بي من حبيب مقنّع   عذرت ولكن من حبيب معمم

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى   هوى كاسر كفي وقوسي واسهمي

وما معنى ذلك الائتمار بقتل الشاعر العظيم وقد تشاركت فيه الاسرة الحمدانية من انطاكية الى حلب ومنبج ، اتبرئه الاسباب « الادبية » التي رواها المؤرخون ؟ ولماذا دعا الامير شاعره بعد موت خولة ، ولم يستدعه حين كتب اليه اول مرة ؟ كل هـذا يقرّب زعم محمود من الحقيقة ،

فليشكّ شاكو فليس الشك ملك طه وحده .

وبعد ، فلماذا لا تحب « ستّ الناس » اشعر الناس ؟ فهو نجيّ اخيرا وناموسه ولسانه وسميره . لقد امسى عديله وان صاهره فما يصاهر امرأ سوء . فها هما دون الناس على فرسيهما في ساحة حلب ، واميرِ القلم ينشد : لكل امرئ من دهره ما تعوّدا .

وماذا تريد خولة بعد ؟ ليت الحظ اسعد اخت امير السيف بزفافها الى امير القلم ، لنبارك لها بهذا العريس الفذ ، ولكن ان اراد سيف الدولة فأبو فراس الحسود ، وابو العشائر الكنود لا يريدان . وما قدّر كان .

وبعد ، فكاد سيف الحمداني يستريح في قرابه ، وكاد صدى « الطائر المحكي » ينبتّ ، والاستاذ الجليل ما انفك يعبث بالروائع الفنية كما تفعل الاطفال بالدمى . يؤدي لنا خطة لو نهجناها فيما كتب ، من « الشعر الجاهلي » الى « مع المتنبي » ، لما بقي لدكتورنا الجليل شيء يعتز به ، واصابه ما اصاب ذلك المسكين الذي قيل فيه : لو قال الحاكم فليقف كل في عقاره لوقف على السكة .

لا تؤاخذني ايها القارىء قبل ان تقرأ ، فهي غضبة للحق اولاً ولطه ثانياً . قد رأيته يدرز درز القاضي الجرجاني واضرابه . ويفعل كأبي فراس الحسود في نقد « واحرّ قلباه » . واذا طغى هذا النقد اصبح الفن لعبة صبيان . ان الالفاظ والمعاني مشاع كما ان المقلع ملك المثّال ، والصباغ ملك المصوّر ، ومن يحسن فحظه ذكر باقٍ ، ومن اساء فموت ونسيان .

ويحمل الاستاذ فانوسه العجيب ثاني مرة ويحلل على ضوء « الاندفاع البحري » قصيدة : الامَ طماعية العاذل ، فيرى « هذا المتقارب يلائم اندفاع الخيل في طلب العدوّ وما يكون بينها وبينه من كر وفر ،

ويلائم كذلك اسراع الامير الى نجدة ابن عمه » . ترى لو كان قالها المتنبي على المتدارك ماذا كان يفعل طه ؟ لا شك انه ينطّ قامتين ، ويرى فيها ما لم يره ابو نواس في الخمرة . لست اذكر لك ما حاك طه حول القصيدة من اساطير ، وما خمّن وزعم ، فارجع الى ذلك في مكانه لتعلم ان في يد الدكتور مقلاعاً فنّياً دونه مقلاع داود ، ولكنه لا يصيب الا واحدة من الف . وما تأوّله من خير في المتقارب يتوسمه ايضاً في الوافر ، فيراه لا يقل بهلوانية عن ذاك فهو « يسير سهل سريع يكاد لا يتأتى فيه الوقوف ، وليس اقل من المتقارب ملاءمة للسير السريع اليسير في الفضاء الواسع السهل » (ص ٤٠٨) ، وهكذا يترك « بغيرك راعياً عبث الذئاب » مطمئن القلب يحسب انه قال فيها شيئاً كثيراً .

ولكن المتنبي نظم ايضاً آخر قافية على هذا البحر وفيها يقول :

وانّى شئت يا طرقي فكوني اذاة او نجاة او هلاكا

فهل يظن طه ان الشاعر « اصطنع » الوافر ايضاً لأنه مستعجل ليلاقي الموت الذي ينتظره عند دير العاقول . . . من يدري ؟ قد يكون المتنبي نبياً وآياته هذه البحور التي تتكشف عن مخبّآت الغيب على يد طه .

وهنا ، وهي اول مرة ، يذكر الدكتور المتنبي بخصلة كريمة وان مازج قوله الشك : « فلست استبعد ان يكون المتنبي قد وفى لهؤلاء الناس — بني كلاب — وعرف احسانهم اليه وبرّهم به فجزى خيراً بخير واحساناً باحسان . »

وتخفّ خطوات الاستاذ في تأريخ سيفيات المتنبي بعد ان سار سيراً رويداً صدقنا لأجله : ما للجمال مشيها وئيدا . ثم وقف بنا حيناً على « غيري بأكثر هذا الناس ينخدع » وشرحها شرحاً وافياً ، وان سمعت نصيحتي تقرأه في محله من الجزء الثاني . ولا يخامرك شكّ في ان النقد

اعلان مسبوب صاحبه غير مأجور .

ثم ينتقل بنا الى « ليالي بعد الظاعنين شكول » وهي عنده — وعند كل لبيب مثله — آية من آيات ابي الطيب . وكأني بطه قد تخيّل الراقص على الحبل عند نيتشه فشرح على نمطه حركتها وخفتهـا ورشاقتها بصورة رومنطيقية لا بأس بها .

واذا كان لا بد من قول شيء فاسمع ما قاله فيها : « صاغ الشاعر هذه القصيدة على مثال لامية السموأل . . . فاصطنع نفس الوزن ، ونفس القافية ، ونفس اللغة ايضاً — يريد ان يقول الوزن نفسه الـخ — بل هو استعار من هذه القصيدة طائفة من الالفاظ والمعاني والاساليب ، ولكنه لم يصنع ذلك تقليداً ولا احتذاء ، وانما اعجبه هذا المذهب الشعري فعارض السموأل ولم يتخذه اماماً .

حلّ لنا طلاسم طه ان كنت تضرب في الرمل ، واحضر لنا المتنبي لنسأله كيف فعل ، ان كنت كعرّافة شاول . اصدّقت قولهم : عش رجباً تر عجباً ؟ فاية قصيدة في الادب العربي لا تجمعهـا اواصر قربى الوزن والقافية واللفظ باخوات لها ؟

وهكذا تنطوي سيفيات المتنبي ولا يدلنـا الدكتور في الآداب على شيء من عناصر فن الشاعر ، ولكنه يرافق بلاشير فيؤرخ كالعلمـاء ، ويمشي ، وحده ، فينقد كالناشئين . . لعنها الله رحلة ، تغرينـا لنأكل الكباب فاشتهينا المرقة . واذا شئت صحناً من عصيدته فخذ : « وستمضي انت في قراءة هذه القصيدة كما مضى المتنبي في اتباع سيف الدولة مندفعاً من بيت الى بيت ، منتقلاً من مقام الى مقام ، صاعداً مـع الجيش حين يصعد ، ومنحدراً مع الجيش حين ينحدر ، ودائراً مع الجيش حين يدور حول العدو ، ثم هاجماً مع الجيش حين يهجم على العدو ، (ص ٤٤١)

فالشاعر مغنٍّ ، والشاعر مادح ، والشاعر قاصّ ، والشاعر هـاجٍ ، والشاعر مفاخر متحمس ، والشاعر يجمع اكثر فنون الشعر في هذه القصيدة التي لم تسرف في الطول . » (ص ٤٤٣)

واخيراً يراها اروع ما قال المتنبي لسيف الدولة فيقف ونقف معه امامها وقفة ابن السبيل امام القافلة ، فلا يدري ولا ندري ما في حمولتها . . . ثم يسألك ان تقرأ معه بعض ابياتها لترى انه ليس مسرفاً ويعرض عليك كوكبة منها . وتبرئة لذمتي اخبرك ان طه رأى ، في مطلع القصيدة والبيتين اللذين بعده ، كما جاء في قانون الايمان : ما يرى وما لا يرى — اظن هذه العبارة ذكرتك اديباً فذاً هو المرحوم اسكندر العازار ، ان كنت ممن يقرأون ولا يمرون كبعضهم مرور البقرة على قبر صاحبها — ويعتذر عن هذا الفهم المغلق برأي شعراء اوروبا الرمزيين فيقول : « وانما اريد من الشاعر البارع كما اريد من الموسيقي الماهر أن يفتح لي ابواباً من الحس والشعور ، ومن التفكير والجمال ، وما اشكّ ان المتنبي قد وفّق الى هذا التوفيق كله في هذه الابيات . »

وفي غيرها ايضاً ، وهذا ما كنا نتمناه . تمنينا ان تحسّ ولو مرة لئلا نشكّ فيك ، اما وقد فعلت فلنتلُ ترنيمة الشكر . . .

ويختم هذا الفصل معتذراً عن ترك درس قصائد اخرى وينصح للقارىء ان يتدبر مثله قصائد اخرى سماها له مثل : على قدر اهـل العزم تأتي العزائم . اراع كذا كل الانام همام . ذي المعالي فليعلون من تعالى . الرأي قبل شجاعة الشجعان . ولكنها محاولة تفلق ، فعندي الا يجرّبها احد .

وينظر طه نظر المؤرخ البصير الى الابيات التي يراها تتصل بحياة ابي الطيب السياسية في مصر والعراق ، تلك التي كان يعرّض فيها بمنافسي

سيف الدولة ككافور والخليفة نفسه ، فيصيب كثيراً ويخطىء قليلاً . اخطأ حين ظن ان المتنبي قصد الى معزّ الدولة بقوله :

فواعجباً من دائل انت سيفه   اما يتوقّى شفرتي ما تقلدا

فيرى الشاعر يهاجم الخليفة تصريحاً لا تاميحاً ويرسل اليه نذيراً لا لبس فيه . وما هذا الا صورة شعرية اعجبت الشاعر فما نزل عنها ولا بالى بعواقبها .

ويقول في هذا البيت :

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة   ففي الناس بوقات لها وطبول

غير الذي قاله ابن عّباد ، ويراه من روائع المتنبي ، وللناس فيما يعشقون مذاهب .

ويمر الاستاذ بشعر المناسبات فيرذله اي رذل ويكيل له ولقائله الاحتقار بالمدّ ، وهذا اقل ما يستحق وان كان قائله المتنبي . اما هذا الشعر الذي يقوله البلداء في هذا الزمن فعليه لعنات يوم ايوب الف دهر .

وقد احسن الدكتور جداً اذ دل على شعر المناسبات المتنبئيّ . فقد ظن سواد الادباء ان شعر ابي الطيب كله شعر مناسبات ، ولو تأملوا قليلاً يعيون انفسهم لميزوا هذا من ذاك .

وبعد ان يشبع من ازدراء هذا الشعر ينتقل الى النظر في انذار المتنبي لاميره بالذهاب عنه فيجيد التحليل والتقدير . وما احسن وصفه نفسية المتنبي بعد انشاده : « واحرّ قلباه » فهو يصورها أحسن تصوير بقوله : وقد خرج المتنبي من هذا المجلس آمناً كالخائف وخائفاً كالآمن . ومثل هذا في الحسن قوله من قبل في هذا البيت :

فلا يتهمني الكاشحون فانني   رعيت الردى حتى حلت لي علاقمه

« فلست ادري لماذا وجدت فيه حلاوة مرة لا آخر لها . »

ليته يشعر دائماً مثل هذا الشعور ، وسواء عندنا أدرى أم لم يدر .
ويختم الكلام على المتنبي في حلب بقوله : « والغريب ان افتراق هذين الصديقين كان شراً عليهما جميعاً . »

أبعد اللهم عنا هذا الشر لندخل ارض مصر آمنين ونزور الفسطاط ، ونرى ذلك البحر الذي ازاره الشاعر حياته وهواه فابصر الوجه الذي كان اليه تائقاً ولقي المرورى والشناخيب دونه . اللهم آمين .

عند الشمس السوداء

اقبل الشاعر على الفسطاط بعدما تغمّرت خيله من النيل ، واستذرت بظل المقطم ، فاذا بالمرعى عابس لا يحرك شهوة فاستعاذ بشيطانه الرجيم فألهمه : كفى بك داء ان ترى الموت شافيا . . . هذا الشطر ، وحده ، يستوعب وحشة الشاعر في الوادي ، وما القته سحنة كافور من الرعب في نفسه . كأني به توقّع قبحاً مقبولاً فاذا به يرى بشاعة عبقرية فاضلة على الكفاية ، فنكدت عيشه النظرة الاولى ، وعلم انه استبدل بغزاله قرداً ، فادمى شفتيه ندامة وصاح ساخراً من نفسه ومن ممدوحه :

ابا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً   اليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

واستقر في مصر على مضض يرثي نفسه واميره المحبوب ، ويهزأ بممدوحه البغيض ، وكأني به قد عناه ، قبل ان يراه ، حين قال :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى   عدواً له ما من صداقته بد

وعني طه بدرس مقام الشاعر الجديد الذي كان يتهدد به سيف الدولة حين قال : لئن تركنا ضميراً عن ميامننا . . . فاذا بالندم قد أكل قلب الشاعر قبل قلب الامير . قد فرّق طه احسن تفريق بين المقامين ، في حلب والفسطاط ، واجاد في الفصلين الاولين من الكتاب الرابع ، وزبدة ما محضه ان البطالة والخمود يشغلان ابا الطيب في نفسه . ولطه آراء طريفة حين يؤرخ فيمشي مشية صاحبة المنخّل ، اما اذا جاءت نوبة النقد فيذكرك

ابا مرقال .

دلته حياة المتنبي الجديدة على سذاجة لانه انخدع ، ورأى في كافور الذي عبّر عنه بالمصريين سياسياً لبقاً لأنه خدع . فالمتنبي « كان شاعراً كغيره من الشعراء ورجلاً كغيره من النـاس ، ظن نفسه حرّاً ولم يكن الاّ عبداً للمال ، وظنّ نفسه صاحب رأي ومذهب ولم يكن الا صاحب تهالك على المنافع العاجلة » (ص ٥٣٧) ، ثم يقابل بينه وبين المعري الذي انكر الملوك والامراء وزهد في التقرب اليهم ، حتى قال كالجازم : « ولم يكن اقل شاعرية من المتنبي . »

اما اعراض المعري عن السلاطين فاسبابه معلومة . قد رأيناه يدغدغ ام دفر في العراق فتعرض عنه مجفلة ويرجع من بغداد رجعة مشؤومة تنكر على طه قوله . . . اما تقويم شاعرية ابي العلاء فليس هنا محله ، وقد سعّرناها مراراً وكفاك من القلادة ما احاط بالعنق كما يعبّر القدماء ، واذا كان الحب يعمي عن المساوىء فالبغض يعمي عن المحاسن والحقـــائق كما قال الجاحظ ، وحسبنا من طه اعترافه ان هذه العصا من تلك العصية .

ويتمخض طه ويتوجع ليرسلها صرخة داوية تزعج الحي — لا ادري اذا كانت الاخيرة — فيقول : « ولكن الغريب ان المتنبي لم يخدع نفسه وحدها وانما خدع معها كثيراً جداً من الناس فظنوا به . . . وليس هو من هذا كله في شيء ، انما هو رجل من اهل زمانه ولم يمتز منهم باخلاقه انما امتاز منهم بلسانه . » (ص ٥٣٩)

وهل كان يظن انه يمتاز منهم باذنيه وذنبه ؟ . . ثم يراه : اقبل على كافور وضيعاً ذليلاً قد هان على نفسه فهانت نفسه على الناس ، وانه لم يصف احداً كما وصف نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الكر وحده والنزالا

أحشفاً وسوء كيلة يا استاذ ؟ لا اخلاق ، ولا اباء ، ولا شجاعة ايضاً ، هذا بغي . انسيت ما قلته (ص ٢٣٩) في وصفه لمصرع اسد ابن عمار : « فهذا كلام يكفي ان تنظر اليه نظراً سريعاً لتحس ما فيه من جمال وروعة وترى فيه فتوّة وقوّة ما ارى الا ان الشاعر قد استعارهما من نفسه وخلعها على ممدوحه الخ . » ثم في (ص ٣٢٠) « ان ابا تمام والبحتري لم يشتركا في الجهاد كما اشترك فيه المتنبي ، ولم يشهدا مواقعه كما شهدها المتنبي . » فهل من يجاهد ويحارب ، هل من يهاجم الامير الحمداني في ديوانه المحبوك ، ويخرج منه آمناً كالخائف كما قلت ، ثم يرتمي بين سواعد الجبال ، وفي احضان الفيافي والتنائف ، لا تروعه الطريق المقنّعة بفضل ازار لبنـــان الذي لا تحلّ حبوته الا في تموز وآب ، هل يكون هذا جبـاناً يطلب الكر وحده والنزالا ؟ . . ثخينة يا دكتور . المتنبي أشجع من مشى عليها ، وهو من المفارد الذين يغيّرون وجهها ، وكان لو ساعد المقدور ينتصر . . . ان بني اسرائيل خرجوا من مصر سائرين في خفـــارة الههم الدموي رب الجنود ، فشق لهم البحر الاحمر فعبروا ، وكان فرعون وقومه من المغرقين . وفجّر الرب من الصخور ينابيع ، وتقدمهم عمود الغمام نهاراً ، وعمود النور ليلاً ، ورزقهم المنّ والسلوى و . . . و . . . أأقص عليك التوراة ، وما جاء في الزبور من تغنّي داود بهذا الظفر لتعذر المتنبي على مقصورته ؟ . . اما المتنبي فأراه اعظم من امة كاملة انصرف وحيداً ما معه الا الصبر ، من وجه الذي :

يدّبو الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الشام فالنوب

لا يعاونه ربّ ولا تؤازره معجزات . اتظنه فعل ذلك ليطلب الكر وحده والنزالا ؟ فألف مرحى لهذا النقد . . . هذه غلطة بألف يا شاطر ، اياك ان تعيدها . . .

ويلوي طه كجران العود على نفس الشاعر منادياً متفجعاً كأنه ينعاه الينا لنؤجر فيه : « ماتت نفس المتنبي . . . ماتت نفس المتنبي . . . ماتت نفس المتنبي او كادت تموت ولم يبق منها الا رمق ضئيل لم يكن خير ما بقي منها ، انما كان شر اجزاء نفسه واهونها على الناس حين يلتمسون الخلق والفلسفة ، وكان خير اجزاء نفسه واكرمهـــا على الناس حين يلتمسون الشعر والفن والغناء . »

ليس لك ان تسأل كيف كانت امس فلسفة المتنبي اساس الفلسفة العلائية النبيلة ، ولا كيف امست الآن شر اجزاء نفس المتنبي . لا ولا ان تقول كيف يكون الاصل فاسداً والفرع صالحاً . ان هذا لا يعنيني ولا يعنيك ، فعميد كلية الآداب كسلاطين آل عثمان مقدس غير مسؤول . . . ومن شاء فليؤمن

ويلاحظ الاستاذ بلاشير ان كافوراً طلب الى المتنبي وصف دار جديدة انتقل اليها فلم يزد ابو الطيب على وصف كافور ، وتهنئته بهذه الدار . فتوحي كلمة بلاشير هذه الى طه فصلاً كاملاً بحث فيه وصف الطبيعة في شعر المتنبي فرآه معرضاً عنها لانشغاله بنفسه والناس . اما الذي لاحظته انا بهذه المناسبة فهو ان طه يحسن جرّ الخيط اذا استلمه ، وانه ابداً في حاجة الى من يسلمه اياه ، وبلغة اوضح ان طه فاعل ماهر في التمهيد والتعبيد ، اما ان يخطط طريقاً فليس هذا شغله . . .

لا ادري كيف يكون وصف الطبيعة والعمران ، أحين يقف ابو الطيب امام الاهرام كما وقف اسمعيل صبري ؟ أليقول قصيدة من طراز « دار البطيخ » كابن الرومي ؟ شتان بين المزاجين والعقلين . المتنبي ابن الفلاة والعراء ، وربيب الصحراء والبيداء ، لا يستهويه من مشاهد الطبيعة ما يستهوي ذلك الموسوس المتطير ، الذي يخشى الناس كالطفل النفور

فيهرب منهم ليغطي وجهه بذيل امه . . .

ان تلك النظرات التي القاها المتنبي على الطبيعة عرضاً يزخر وجيزها بما لم تتحمله مطولات ابن الرومي ، وهو لا يستفزه من مشاهدها الا ما كان فذاً كشعب بوان وجبال لبنان وغيرها من غرائب الكون واعاجيبه ، فتقع عليها قريحته وقوع النحلة على الزهرة تلثمها وتناجيها هنيهة وتنثني عنها بالشهد . اما ابن الرومي — وله قليل احلّه المحل الاول — فدودة ترعى ، تلزق بالجذع وتنبطح على الورق ثم لا تتحلحل حتى تمتص المساوية وترعى اللحاء وتقرض القش . واني لأعجب من عشاقه — في آخر هذا الزمان — كيف يخصّونه بالتشخيص وقد سبقه اليه ابو تمام والبحتري وغيرهما كما ذكرنا . . . فابن الرومي « شاعر البيت » وشاعر الظل ينشده للطبيعة . وقد علمت ان ابن الرومي يطلب ان يكفى مؤونة السفر وتأتيه الصلة الى داره محلوقة منتوفة كما اقترح على احمد بن ثوابة ، وادركت جزعه وبلادته ووقفت على سر غرامه بالطبيعة التي لا يراها الا متبرجه . . .

اما ابو الطيب فركب شعره ، في وصف الطبيعة ، الى ممدوحه فشانه كما تشين الجلال والقرّب الخيول الكريمة . ولكنه في كل حال وصف الخوارق وصفاً رائعاً جداً ، وقليله خير من كثير غيره عند من يقوّم الاشياء ولا يزنها بموازين تأخذ وتعطي كموازين طه الادبية .

وتروق طه الرقة والغناء في شعر المتنبي الكافوري فيرى « ان شاعرنا يحب سيف الدولة ويرجو نائله وانه كان يبغض كافوراً اشد البغض ويحمل نفسه على ما لا تريد ، فكان صادقاً امام نفسه حين مدح سيف الدولة ، وكان كاذباً منافقاً امام نفسه حين كان ينشيء المدح وينشده في كافور ، فلا غرابة ان اجاد في مدح سيف الدولة . واذا اتيحت له الاجادة في كافور فهذا هو الغريب العجيب . » (ص ٥٥٦)

قلت في مطلع هذا الفصل ، واقول ايضاً ، فمجال القول ذو سعة ان من يبرح افخم نادٍ يزينه امير اروع في عرنينه شمم ينفر ويشمئز اذ يقبل على مثقوب المشفر والمنخر في حضرة فيها :

من كل رخو وكاء البطن منفتق   لا في الرجال ولا النسوان معدود

ولا دواء أدوأ لدائه من كظم عواطف البغض التي فتحت للفن منفذاً عجيباً ، عدّه حقد الشاعر على صاحبه الحمداني ، وانتقامه لنفسه ممن حذره وانذره فما نفع ، فأرسل الحمم والشرر . انهـــا رحلة كلها خير وبركة يا دكتور ، فـــلو بقي المتنبي عند امير حلب لنضب وجفّ . ولا ينس الدكتور ان شاعرنا فلاح ماهر والارض السوداء مغلال ، فشخصية كافور كانت مرعى خصيباً لقلم الشاعر العظيم فلم يسلم مغـــرز ابرة في جلد ذاك الأسود فجاء الوشم رائعاً . . . وألحّ على تلك الدمنة فلم يدع منها زنقة الا استغلها . وفي هذا روعة الفن المتنبئيّ المصري فعلينا ان نتقرّاه على اشعة الفن خاصة ، وأشدنا ضلالاً من يحسبه حقائق كـــله ، فليس كافور في عقله كما صوّره الشاعر حين رأى النهى كلهـــا في الخصي ، كما ان ذاك « الشعَر » الذي رآه جرير من قبله ، لم يكن : كعنفقة الفرزدق حين شابا . . .

اما الغناء في شعر ابي الطيب الفسطـــاطي الذي أدهش الدكتور فهو درس ينفعه اذا راجع « الأدب الجاهلي » ، فمنه يتعلم ان الشاعر يلين ويشتدّ في القصيدة الواحدة فـــلا يتمسك في قابل بحبال المتمشرقين وحجته الواهية ان كل شعر تقلّ كلماته عن الوطل الشامي وزناً ليس بشعر جاهلي وصاحبه كالغول والعنقاء .

ويعدّ قصائد المتنبي في كافور ليقول لنا : « ومن الخطأ ان يظن ان المتنبي قد خصّ كافوراً بهذه المدائح » فتحسب لهـــول مـــا طرق

أذنيك انك عثرت على حجر الفلسفة ، فتهيّأ كالقادم على جليل ، حتى اذا سمعت « وانما الصواب انه جعلها قسمة بين ثلاثة اشخاص ، سيف الدولة والمتنبي وكافور » ضحكت وأرخيت ثوبك وشمّرت عن ساقيك لتخبط مع طه في المهمه الواسع .

لست ادري ماذا اسمّي هذا في الادب ، أمفاجآت ؟ ولكنها تافهة ، وطه يكثر منها جداً . انه يخلق ما لا يخطر لمخلوق ببال ليعارضه بشيء من عنده . فمن قرأ المتنبي مرة او سمع به يعلم انه يخصّ نفسه بكثير من نشيدته وخصوصاً حين يكون الممدوح هزأة لا يحتشم محضره ككافور .

ويرى طه ابا الطيب معرّضاً لا مصرّحاً بقوله :

وغير كثير ان يزورك راجل فيرجع ملكاً للعراقين واليا

اما كيف يكون التصريح فلا ادري ، وهل يكتب الشاعر بالمسّاس ؟ الله أعلم .

ويترك اليائية الى البائية الرائعة : من الجآذر في زيّ الأعاريب ، فيرى في غزلها رمزاً وايماء ، وينتهي الى البيت الذي فتن القدماء :

أزورهم وسواد الليل يشفع بي وانثني وبياض الصبح يغري بي

« فيحب ان يعجب به ولا يظفر بما يريد » . ويحدثنا عن الطباق الذي فيه كأنه مصدر لروعته ، مع ان جمال البيت لا ينبثق من هذا الطباق المخمّس الذي عظّمه الثعالبي ، ولأجله سمّى البيت امير شعر المتنبي . أما انا فأرى ان الطباق لم يخطر ببال الشاعر ، والدليل على ذلك قعود كل لفظة في محلها بلا كلفة . وبعد الجدل المعهود يقول طه : « وهذا الطباق نفسه قد يرضيني لولا انني اجد في القافية انحداراً ثقيلاً على السمع اشد الثقل .

لو ترك الاستاذ « اشد الثقل » كان أعدل ، فمثل هذا كثير في الشعر

العربي حتى في الذي اختاروه للغناء مثل : قال لي احمد ولم يدرِ ما بي . ولكن هذا لا يمنع ان يكون هناك بعض الثقل كما أحسّ طه ، والحكم للأذن في القافية لا للعين ، وبارشاد الأذن يهتدي الشعراء ، فهنيئاً للرهيف الحس

ثم ينظر في المدح فلا يرى المتنبي هازئاً بكافور ولا معرّضاً به كما زعموا ، ولكنه « صادق في الغرضين وكاذب في وقت واحد » ه اما نحن فسيّان عندنا صدقه وكذبه ، فلسنا في موقف العرض ننظر في كتابه . فالذي يعني الفن من الصدق غير ما يعني اللاهوتيين والمجتهدين . . . اننا نكبر كذب هذا الفن اذ أشبه الصدق ، ونحمد القدر الذي سلّط هذا النسر على تلك الفريسة . فالمتنبي مصوّر فذّ ظهر جبروت عبقريته في سحنة غريبة أظفره بها جده الفني لا السياسي ، فليست الاشخاص كلها تعين الفن والنبوغ .

اما السخر الذي يحاول طه انكاره فظاهر كالعنزة البلقاء ، وما خفي على كافور اللبيب ، ولكنه تباله بالعرفان كصاحبات عمر . فمن يصدّق ان سيد مصر الفطن والعبد الداهية الذي سمّوه الحجر الأسود يحلّ من البلاهة منزلة لا يحسّ معها سخر الشاعر الذي يقول له :

تفضح الشمس كلما ذرّت الشمس بشمس منيرة سوداء
وما طربي لما رأيتك بدعة لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب
فدى لأبي المسك الكرام فانها سوابق خيل يهتدين بأدهم
ابا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقاً اليه وذا اليوم الذي كنت راجيا

فلولا الشك في هذا المديح ما قال الشاعر لكافور :

وان مديح الناس حق وباطل ومدحك حق ليس فيه كذاب

وحسبنا شاهداً على مقدرة الشاعر العظيم ان يخدع اليوم استاذاً جليلاً

كطه حسين ، فيحسب ذاك الهزل جداً وتلك السخرية مديحاً . والفن الرائع خدّاع . . .

ونظر طه في الدالية والميمية والبائيتين الأخريين فرأى بعد الجمع والطرح والضرب والقسمة ان « المتنبي لم يكن يستحق اكثر مما أخذ من مال الامير » حتى خفت ان يقترح اقامة الدعوى على تركة الشاعر . . . ولكنه رضي ، والحمد لله ، رأساً برأس ولم يشغل الحكومة المصرية في هذه الازمة .

ويصل الى : حسم الصلح ما اشتهته الأعادي ، فيحكّم فيها عاطفته تحكيماً أشعرياً ، ويصفع الفن في قفاه صفعة ملعونة فيراها من اجمل شعر المتنبي وأصدقه في تصوير السياسة المصرية فيقول : « ومن ابياتها ما يمكن انشاده والتمثل به في هذا العصر الذي نعيش فيه في هذا الطور من أطوار تاريخنا الحديث . » (ص ٥٨٧)

حيّرني هذا الحكم فرحت افتش عما اعلل به اعجاب طه وانشداهه فوجدته في هذه القصيدة عينها فداويته منها بها كمجنون عامر . قال المتنبي في حسم الصلح :

انما تنجح المقالة في المرء   اذا صادفت هوى في الفؤاد

فلو توافق كل قصائد المتنبي هوى طه السياسي البلدي لكان سيد الشعراء وأشرف الناس اخلاقاً وأسماهم فلسفة . لقد كاد يقضي لها بالتعليق على جدران الجامعة المصرية « لمطابقتها مقتضى الحال . . . » وما بهذه العواطف يقاس الفن . انني اذكّر الدكتور ، وهو سيد العارفين ، بمقال النقّادة برينتيير وردّ اناتول فرانس عليه (الحياة الادبية ، جزء ٢) فلعل فيه بعض الهداية .

حاشية . — وبهذه المناسبة أسأل الدكتور : أعنك اخذ تلميذك الطاهر

زكي مبارك هذه المندازة ؟ فقد خبّرتنا جريدة المكشوف ان الصداقة من عبارات زكي الادبية . فاذا قوّمنا الادب بما يحكّ لنا من جرب محلي وقدّرنا فنّ الناس بما نحب وما نكره منهم فيا خيبة الادب ! لقد اكبرنا فتحكم الجليل وليس فينا من ينكره عليكم ولكن احذروا التخييم في الشاطىء . . . فبوادره ظاهرة .

« حسم الصلح » قصيدة طيبة ولكن في ديوان المتنبي اطيب منها كثيراً ولم يعجبك لانه لم يوافق هواك ولا يلابس احوالكم المصرية . ان هذه العلل العارضة — الهوى والصداقة — لا تصلح مثلاً للفن وان كان محلها منه كالتوابل من الطعام ، فلنفتش عن كمية الغذاء قبل كل شيء .

ان شعر المتنبي ثلاثة اقسام : قسم مات وصار رمّة ، وقسم يلائم نفسية البلاد العربية وهذا يظل حياً ما دامت ارضها ملعباً وملهى للدخيل ، وقسم لا يموت ابداً وهو الشعر الانساني . وهناك شيء آخر في هذه الاقسام ثلاثتها يستيقظ كلما أيقظته ، هو الفن المتنبئيّ الذي لا يموت فكلما فتحت الديوان يبرز امامك المتنبي بلحيته وكشرته فيعيد حقبته جذعة ، بكافورها وسيف دولتها وضبتها ، وهذا هو الفن كيفما كان واليك الآن نموذجاً من رديء استحسنه طه جداً لأنه احبه :

لا عدا الشر من بغى لكما الشر وخصّ الفساد اهل الفساد
انتما ما اتفقتما الجسم والروح فلا احتجتما الى العوّاد
هذه دولة المكارم والرأفة والمجد والندى والايادي
كسفت ساعة كما تكسف الشمس وعادت ونورها في ازدياد

فيقرّظها طه بقوله : « وانظر الى هذه الابيات التي يملأها الحنان ، أرأيت اجمل من هذا الكلام وابرع من هذا التصوير الخ ...» (ص ٥٩١) مع انها ، كما رأيتها ، اشبه بدعوات العجائز . لعل جدة المتنبي طلبت له ليلة

القدر طلبة ُقبلت فأعجب طه بقصيدته هذه وخلا كلامه عنها من لو ولكن .

ويتناول قصيدة : عدوّك مذموم بكل لسان ، فيقف عند هذا البيت :

ولله سر في علاك وانما كلام العدى ضرب من الهذيان

فيخطّىء آراء القدماء في هذا البيت ويراه مدحاً محضاً ، ورأيه هنا اوجه وامثل من آرائهم ، فلو كان المتنبي يؤمن بالآخرة بعض ايمانه بالحظ لدخل الجنة بثيابه . أليس هو القائل :

هو الجد حتى تفخر العين اختها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا
اقلّ فعالي بله اكثره مجد وذا الجد فيه نلت ام لم انل جد

ثم انداحت دائرة هذا الايمان بالحظ حتى قال للأسود :

ارد لي جميلاً جدت او لم تجد به فانك ما احببت فيّ اتاني

وينتقل الاستاذ الى المتنبي السياسي فيرى « المامه بالسياسة المصرية يسيراً لانها لم تكن سياسة حرب وقتال — نسي انه يطلب الكر وحده والنزالا — وانما كانت سياسة مكر ودهاء » . ثم يصف لنا حياة المتنبي عند كافور وما فيها من قنوط ويأس فيرينا الشاعر تاعساً بائساً .

ويشرح قصيدة الحمى — ملومكما يجلّ عن الملام — فيراها فوق الفن : « لأن حزن هذا الشاعر العظيم قد تجاوز الفن وصار اعظم منه وابعد مدى . » وتجيء نوبة : صحب الناس قبلنا ذا الزمانا ، فيشرحها ويقول ان الفلسفة العلائية انبثقت منها . ثم يذكر : بمَ التعلل لا اهل ولا وطن ، ويحب لك ان تقرأ هذه القصيدة وتقرأها فهي من ابقى شعر المتنبي وأرقاه (ص ٦١٠) فاقرأها اذن واقرأها . . . وان كان لي شيء اقوله في هذه المرحلة من نقد طه فهو انه نظاميّ المذهب في — النقد — لا

يقول بالمنزلة بين المنزلتين

وهنا ، وهذا غريب ، يعتقد طه كعجائز لبنان اللواتي يعللن موت غير الابرار ومصائبهم بغضب الله فيقول : ان الزمان يعاقب المتنبي على اظهر عند سيف الدولة من بغي وكفر للنعمة وجحود للجميل فأقسم اي الزمان — لينغصنّ عليه حياته في مصر تنغيصاً .

لست ادري كيف يكون الرجل باغياً طاغية وتموت نفسه ذاك الموت الأسود كما نعاها الينا طه ، وهل ماتت نفس يدرسها الناس كل يوم ولا ينكشف لهم الا القليل من سرائرها ؟

وينظر طه الى هجو الشاعر كافوراً والمصريين ومصر فلا يراه شيئاً غريباً ، وهذه رحابة صدر ذكّرتني المأمون حين جاؤوه في قتل دعبل الخزاعي فخيّبهم . لقد انصف الاستاذ كل الانصاف ، فهذا الهجاء يقرأ كفنّ لا كذم لأمة كريمة ، والمتنبي ، في رأي طه ، قد وفّق الى اجادة الهجاء اكثر مما وفّق الى اجادة المدح « وهو قد اضحك الناس من كافور ولكنه قد غض من نفسه عند الناس ، فالناس ينكرون الشاعر الذي أعطى ثم اخذ ، ومنح ثم استرد ، وقال ثم كذّب نفسه ، وهم حين يضحكون من هذا الشاعر لا يبخلون عليه بالاعجاب والاكبار ، يكبرون فنه وبراعته ولكنهم يصغرون رأيه ويحقرون خلقه . فالمتنبي في قصته مع كافور كلها صغير حقاً ، صغير حين مدح وصغير حين هجا . . »

قلت : ان غراب المتنبي كان ادهى من غراب لافونتين فما ترك الجبنة للشاعر . . . وكثيرون فعلوا مثل المتنبي ، شربوا من البئر ورموا فيها حجراً ، فلا تلمه . . . فكافور كان احقر واخس لأنه قبل هذا المدح المخزي ، بل استعطاه وجزى عليه الشاعر كذباً ووعوداً . وفي كل حال ارى صفقة كافور رابحة ، فحسبه هذا الذكر . فلولا شعر المتنبي ما ذكره احد

بلسان . . . لم يطلب المتنبي مالاً من كافور ، بل ولاية عشقها صغيراً ومات على حبها ، وكافور وعد ولم ينجز . انني اميل جداً الى الشك بسبب كافور ونائله ، فليس المتنبي اول شاعر خاب في مصر وعاد هاجياً .

ويتناول طه اليائية : أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا ، فيقول فيها بعض كلماته المعهودة : جميل ، او غير جميل ، لا بأس به ، الخ . ثم يقول في هذا البيت :

وانك لا تدري ألونـك أسود   من الجهل ام قد صار ابيض صافيا

انه « مبالغة سخيفـــة فلم يكن كافور يظن به الجهل الى هذا الحد » . ونحن ايضاً لم نكن نظن ان الدكتور يفهم الشعر هذا الفهم ، وهو لو تبصّر قليلا لأدرك ايضاً ان هذا ممكن ، وتفكير المتنبي صحيـــح ، فالمرء يألف قبحه ، وقبح من يألفهم ويخالطهم . . .

وعند طه ان الميمية اجود هجاء قاله المتنبي في كافور ، وقد سردها الدكتور كلها ، اما نحن فنكتفي ببعض ابياتها لضيق المقام :

من أية الطرق يأتي مثلك الكرم   أين المحاجر يا كافور والجـلم
جاز الألى ملكت كفاك قدرهم   فعرّفوا بك ان الـكلب فوقهم
لا شيء اقبح من فحل له ذكر   تقوده امة ليست لهـا رحم
أغاية الدين ان تحفوا شواربكم   يا امة ضحكت من جهلها الامم

قلت : لو عـاد المتنبي اليوم ووقف على طـاول شواربنـا فما تراه كان يقول ؟ . .

الفرار والنهاية

وفي يوم عرفة سنة ٣٥٠ ﻫ جاش صدر المتنبي فقال الدالية الشهيرة: عيد بأية حال عدت يا عيد. القصيدة من آيات المتنبي وفيها ما يلائم هوى كل نفس وخصوصاً ذات الآلام الخفية، فما قرئت على طه حتى هام بهذه الابيات الاربعة هيام دانتي ببياتريس:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقييّ اخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما همّ وتسهيد
اصخرة انا مـا لي لا تحــرّكني هذي المدام ولا هذي الاغاريد
اذا اردت كميت اللون صافيــة وجدتهــا وحبيب القلب مفقــود

واليك ما قال في تقريظهــا: «لا اعرف اجمل منهــا ولا اصلح للغناء... اما انا فمفتون بهذه الابيات وبالثلاثة الاخيرة منها خاصة. وما اعرف اني وجدت في كل ما قرأت من الشعر العربي مــا يشبههــا جمالاً وروعة ونفاذاً الى القلب، وتأثيراً في النفس. ومهما احاول فلن استطيع تصوير ما يملأ نفسي من الحزن حين اسمع تحدثه الى ساقيه وسؤاله اياهما عما في كؤوسهما اخمر هو ام همّ وتسهيد، ومهما اقل فلن استطيــع ان اصور اعجابي بهذا البيت الذي يسأل فيه عن نفسه ما له لا يطرب للخمرة ولا يطرب للغناء، وما اعرف بيتاً يصور السكون وجمود النفس وموت القلب خيراً من هذا البيت، وهو على تصويره الرائــع للسكون والجمود

الرؤوس

والموت من اشد الشعر تحريكاً للنفوس واثارة للطرب الحزين في القلوب (ص ٦٢٩)

ليس من الكياسة ان نقف خيال هذا الاعجاب الغريب لا نبدي ولا نعيد ، فالمروءة الادبية تقضي علينا ان نعين اخانا وننصره على حيرته . فلو حلل طه نفسه كما حلل نفس المتنبي لاستولى على ذلك السبب . لعن الله ذلك الحلاق الذي داواه صبياً فقد جنت يــده الاثيمة على النبوغ والادب . لقد آلمني حزن الاستـاذ حتى وددت ، وربي شهيد عليّ ، لو استطيع ان اشاطره البلوى ، فعين واحدة تكفي لقضاء نهار مالت شمسه . لقد صوّر طه نفس الضرير وشعوره في الاعياد والمواسم مــن حيث لا يدري . فلست أشك ابداً ، وان لم اره ، ان طربه حزين وابتسامتـه فاترة ، وبهذه الحسرة يستقبل الاعيــاد . فلا يحزن الله الاستاذ الكبـير فبصيرته النيّرة خير من الف عين .

وينفض طه عنه الكآبة اذ يبلغ قول ابي الطيب :

نامت نواطير مصر عن ثعالبهـا وقد بشمن وما تفنى العنـاقيد

فيرى ان الشاعر ألهم البلاغة والحكمة حقاً حين صوّر مصــر اصدق وابرع تصوير ... لست اذكر هنا « العاطفة البلدية » فهذا البيت مــن وثبات المتنبي التي يمتاز بها من شعراء العرب ، ولا أبالغ ان اقل من شعراء الدنيا اجمعين . وبعد الثنـاء والحمد ينتقل الى المقصورة الخـالدة : الا كل ماشية الخيزلى ، فيخص بالذكر هذا البيت العبقري :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنـــه ضحـك كالبـكا

ثم يسرد ابياتاً اخرى رائعة ويجمل الـكلام قائلاً : « ان لمصر على المتنبي فضلين ، فهي قد رقت غناه وعلمته الحزن الطويل العميق والتأمل الذي كاد يرقى به الى الفلسفة ، وهي قد علمته الهجاء اللاذع الممض الذي يبقى

على الدهر ولا يخلو من نفع وموعظة . » (ص ٦٣٥)

ويلذ لي ان اذكر ايضاً صورة رائعة رسم بها طه حياة المتنبي في مصر ، قال : « فلما انتهى الى مصر واستقر في ظل كافور اتيح له السكون والهدوء ولم يعرض له احد بكيد او حسد ولم يضيق عليه في حياته المادية ، وانما وضع على نار هادئة من الوعد والاخلاف فنضجت نفسه نضجاً بطيئاً ولكنه نضج صحيح . »

قلت : ونحن نأكل كل يوم هذا الشواء الشهي طعام اليدين الذي كان يسأل عنه حسان في اخريات العمر . ان المتنبي مدين بكثير لمصر ، ولو بقي في حلب لم يزد على ما قال ، فالشاعر الملهم كالمتنبي يخلق من محيطه الملائم عوالم عجيبة ، وكلما تهيأت له الاسباب باض وفقّص كالجرادة .

ويهرب ابو الطيب من مصر فيتبعه طه ليحصي عليه انفاسه ويحدثنا عن قتله عبده في الطريق لأنه يسرق متاعه ، « فيصور استهانته بالحياة الانسانية واستباحته الدم الانساني في سبيل متاع يقوّم بالدراهم والدنانير » . وقد فند هذا الرأي الفطير الاستاذ العقاد واعتذر عن فعلة الشاعر التي هي « خليقة — في شرع طه — ان تسبغ على الشاعر لوناً احمر قانياً » .

وتذكّر طه « الاندفاع البحري » بمناسبة الكلام على هذه المقصورة ، وروى ابياتاً من فخر المتنبي ليعقّب عليها بهذا الطعن المر : « فهذا الفخر الرائع البديع كله ينحل الى يسير ، وهو ان الشاعر قد فرّ من مصر فرار اللص ، واندفع في الصحراء اندفاع الصعلوك ، وقتل في طريقه عبداً لأنه سرق بعض المتاع

هكذا يرى طه نجاة جواد اضرّ بجسمه طول الجمام ، ولا هو في العليق ولا اللجام . الحرب في النظارات هينة . . . لقد جددت عهد قرقاش يا دكتورنا النزيه . أنسيت كم اكلت الصحارى من جماعات ، أتجهل انها

لا تزال تزدرد قوافل النار والحديد ، فأين كان عقلك حين اصدرت هـذا الحكم الجزّاري وسجلته على نفسك ؟ لقـــد سبق تسفيه هذا الرأي فليراجــع .

ويحاول الدكتور معرفة اسباب اتجاه المتنبي لنـــاحية دون اخرى ، فليقرأ ذلك من تهمّه معرفة هذه الامور .

واخيراً يبلغ الشاعر حضرة ابن العميد ويقول في مدحه شعراً كالشعر احسن طه جداً في اجمال الكلام عنه بقوله : « ان المتنبي اخذ من ابن العميد اكثر مما اعطاه . »

فهذا الشعر الذي قاله ابو الطيب في مدح مـــن ختمت به الكتّاب – كما سجع القدماء – شعر ميت لا حياة فيه ولا نبض ، فشـاعرنا لا يبدع الا حين يزجيه امل واسع او يحدوه غيظ صاخب .

وماذا عند ابن العميد ؟ . . اما شعره عند عضد الدولة فجيّده كثير ، وقد ادرك طه ذلك وحيّرته كثرة الانتاج . فلا يتعجب الاستاذ ، فالسراج المحتضر يرسل لهبـــاً رائعاً ثم يشرق بنوره وينطفىء ، وهكذا الشاعر ولاسيا اذا كان اخا خمسين مجتمعاً اشده .

واعجب طه بوصف شعب بوان ، وباللامية الطردية ، وغيرهما فظن – ولكن ليس اكبر الظن – ان المتنبي لو اقام طويلاً في بلاد فارس لتغير مذهبه الشعري تغيراً قوياً ، ولجاز ان يحدث في الشعر العربي فنــاً جديداً ، لم يسبق اليه (ص ٦٩٤) . وآية ذلك تصريح رآه الاستاذ في شعر ابي الطيب . وهو لا يقف عند هذا الحد بل يقول شيئاً كثيراً في شعر المتنبي الشيرازي ولكنك تخرج منه كما قالت تلك البدوية في علكة لم تمضغها : ما فيها غير تعب الاضراس وخيبة الحنجرة . . . انـه يرى في هذا الشعر الشيرازي شيئاً غريباً عجيباً ولكنه لا يقول ما هو ، و « يدهشه

حقاً الا يكون النقاد – القدماء – قد التفتوا الى ما يمتاز به شعر المتنبي في شيراز من سائر شعره . واغرب من هـــذا – عنده – ان الاستاذ بلاشير لم يكد يشعر بهذا التطور العميق الذي احدثته زيارة الشاعر القصيرة لفارس في شعره ، مع ان الاستاذ بلاشير اوروبي وكان خليقاً ان يحس ما بين هذا القسم من شعر المتنبي وبين العقلية الاوروبية والفنية الاوروبية من تقارب ليس شديداً ولكنه واضح كل الوضوح . » (ص ٦٩٤)

لا ادري لماذا يستغرب طه بهذه الدهشة قلة فهم الاستاذ بلاشير وضعف شعوره بهذا التطور الذي تراءى لطه ، الأنه افهم للشعر العربي مـــن القدماء ، ام لأنه يدرك من اسرار اللغة ما لا يدركون ولا ندرك ؟ فلو كان هناك بدع لأدركوه ولم يفتهم مهما دق وخفي .

ايطلب هذا عند من يعبّرون عن المحصنـــات بالمهسنات ، ويقولون في شرحهـــا كان العرب يضعون نساءهم في حصون ؟ ألم يبلغه ان « الا" جالا » هي « الله جهل » عند اساتذته السوربونيين ؟ فكيف يطلب ادراك الفن العربي عند من يلفظون كمولى زياد الذي حدّثنا عنه الجـــاحظ في بيانه ، ويعظون كما روى الشدياق في فارياقه ؟

وبعد ، فما لنا ولهؤلاء ، فلنرجع اليـك انت يا دكتور ، قلت : « وكم كنت احب ان اطيل الوقوف عند هذا القسم من شعر المتنبي فهو من الناحية الفنية آثره عندي واعجبه فيّ واحبه الي ، وهـو خليق ان نقف عنده قصيدة قصيدة ، وان نفصله ونستخرج دقائقه ونضع ايدينـــا على موائد التطور فيه ، ولكن هذا شيء لا نفرغ منه ان اخذنا فيه الا بعد اطالة لم يبقَ يتحملها هذا الكتاب . » (ص ٦٩٥)

فلندع الهزل ، او الخلط – اختر لنفسك ما يحلو – وأجبـــني : أمطلوب في هذا الكتاب ان يكون صفحات معدودات ؟ أتبيـع الكتب

مذارعة من الناشرين ، ولذلك لا تكتب لهم الا بمقدار ؟ وان كان هذا فلماذا لم تقتصر حيث فلقت الناس بالفأفأة والشأشأة والطباق والقرمطة الخ ؟ لماذا أشغلتنا باللف والدوران كالفرانق عند البيات ؟ لماذا أطلت الوقوف عند ما يفهمه ابسط ناشىء ثم قطعت الحديث عن هذا النجم المجوسي الجديد الذي اكتشفته في سماء فارس ؟ ان الدلالة عليه لا تحتاج الى اكثر من سطر او سطرين ، فلماذا لم تقل ماذا رأيت ؟ أنحن في الف ليلة وليلة ليدرك شهرزاد الصباح ؟ .. انها لخيبة مرة ولكن عاقبتها يأس مريح ... لقد صحّ بك قول الشاعر القديم :

تقاتل الشيب ولما تفعل في لجة امسك فلاناً عن فل

ليتك أذقتنا لقمة واحدة من هذا السماط الذي مدّته لك آلهة الفنّ ، وتركتنا نفتش عن اخواتها . انني اقترح عليك ان تفعل – كما وعدت – وتدلنا على الشيء الذي لم يفهمه احد من العرب حتى ولا بلاشير الاستاذ الأعظم في لغة الضاد . ولست اقترح عليك ان تضع يدي على هذا الشعر الشيرازي ، فأنا مثل توما اكتفي بان اضع اصبعي فقط لاؤمن بك وبقيامة فن المتنبي الجديد . فكل ما قلته في هذا الكتاب – ما عدا التاريخ – ليس فيه ما يفري .

وما لي اعجب من هربك ؟ أما عوّدتنا من قبل ذاك ؟ هكذا فعلت حين حدثت الناس عن ابي تمام – حديث الشعر والنثر – فأجّلت درس فنه الشعري لضيق الوقت واعداً ان تفعل في الكلام على البحتري ، ولما تناولت البحتري رأيتك تسترشد بذوق ابي هلال العسكري فتأخذ قصيدتين اعجب هو بهما ، وهكذا يضيق عنك ديوان البحتري فلا تجد فيه حاجتك الأدبية الفنية .

ويترك المتنبي عضد الدولة ساعياً الى حتفه ، فيصدق طه كل ما رواه

ابو نصر الجبلي عن مقتل الشاعر العظيم ناسياً زعمه ان المتنبي لم يصوّر الا نفسه حين قال :

واذا ما خلا الجبان بأرض   طلب الكرّ وحده والنزالا

ويراجع طه وسواس القرمطية ، فيحاول ان يجعل لها يداً في مقتل الشاعر الذي ملأ الدنيا وشغل الناس .

بعد الفراغ

ختم الدكتور طه حسين كتابه « مع المتنبي » بفصل عنوانه « بعد الفراغ » فرأيت ان اجعله عنواناً لهذا المقال الأخير ، واقتسمناه بالسوية فكانت حصة الاستاذ رأيه في كتابه ، وحصتي رأيي المجمل فيه ، فاسمع اذن ما يقوله الاستاذ في السبعمائة الصفحة التي سمّاها « مع المتنبي » :

« اني حين أقبلت على صحبة المتنبي لم اكن جاداً ولا صاحب بحث ولا تحقيق ، وانما كنت عابثاً اريد ان اداعب المتنبي او اداعب خصومه واصدقاءه جميعاً ، ولكني لم اكد ألقى المتنبي وآخذ في الحديث معه او الحديث عنه حتى صرفني عن اللهو العبث واضطرني الى محاولة البحث والتحقيق . . . ودفعت في ذلك دفعاً عنيفاً حتى اذا انتهيت الى حيث انتهيت وجدتني مكدوداً قد انتهى بي الاعياء الى اقصاه . لم اقل للمتنبي او لم اقل عن المتنبي كل ما كنت اريد ان اقول ، فطويت الصحف وأرجأت الحديث حتى اعود الى القاهرة ، وكنت اريد ان استأنفه متى عدت فأفصّل القول في فن المتنبي بعد ان فرغت من تفصيل القول في حياته ، وأقف بنوع خاص عند اشياء لم ازد على ان الممت بها الماماً . . . فما اكاد ابلغ القاهرة حتى تتلقاني الاعمال الجامعية فتستغرق اكثر جهدي ووقتي . . . فما اكثر ما بقي في نفسي من المتنبي ، والله وحده يعلم أيتاح لي ان اشفي من حديثه نفسي ، ام تحول بيني وبين ذلك

الحوائل والخطوب . » (ص ٧٠٦)

« ان هذا الكتاب ان صوّر شيئاً فهو خليق ان يصوّرني انا — اي طه — بعض لحظات الحياة اثناء الصيف اكثر مما يصوّر المتنبي ، وانه لمن الغرور ان يقرأ احدنا شعر الشاعر او نثر الناثر حتى اذا امتلأت نفسه بما قرأ فسجّل هذا في كتاب ظنّ انه صوّر الشاعر كما كان ، او درسه كما ينبغي ان يدرس ، على حين انه لم يصوّر الا نفسه ، ولم يعرض على الناس الا ما اضطرب فيها من الخواطر والآراء . »

فعنده ان شعر المتنبي لا يصوّر المتنبي وانما يصوّر لحظات من حياة المتنبي لا اكثر ولا اقل ، كما ان كتاب « مع المتنبي » وكل ما كتبه طه من كتب لا يصوّره صورة صادقة تطابق الاصل وتوافقه ، « فنقد الناقد انما يصوّر لحظات من حياته قد شغل فيها بلحظات من حياة الشاعر او الاديب الذي عني بدرسه . »

وقد تعجّب طه من انه قد انتظر هذه السن وهذا الطور من اطوار الحياة قبل ان يفطن لهذا الرأي ويطيل التفكير فيه .

قلت : فليقلّ طه تعجّبه ، ولوم نفسه ، فليس هذا الرأي له ، ولمثل هذا الزعم عنّف برينتيير اناتول فرانس وجول لومتر منكراً عليهما تحكيم الهوى في الآثار الأدبية ، كما فعل الاستاذ في « مع المتنبي » فكان عاطفياً ذاتياً اكثر من فرانس . وكأني به قد أدرك هذا التقصير الفني فاعتذر عنه بالأشغال الجامعية كما يعتذر بعض المؤلفين عن اغلاطهم بالتورّك على الطبّاع او على صفّاف الحروف . اما التماس صور الشعراء كاملة في دواوينهم فهذا لن نظفر به لأن الانسان لا يستطيع ان يصوّر نفسه كما هي ، وهو ان أفشى سراً من اسرارها بقيت اسرار يعز عليه ادراكها ، ويفوته التعبير عنها ، ولذلك جاءت دواوين الشعراء مختلفة في

الدلالة ، منها ما يدل كثيراً ، ومنها ما يدل قليلاً ، وديوان المتنبي أشدها دلالة على صاحبه . اما كتاب « مع المتنبي » فلست اقول فيه شيئاً بعدما أسمعتك رأي صاحبه فيه .

ان الاستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك أقدر على تأريخ الأدب منه على نقده ، وقد يكون لنشأته ، ولتكوينه العلمي ، ابلغ اثر في هذا ، فالرجل معذور غير محجوج كما تقول الجاحظية . قد نشأ نشأة مستمع قصّاص ، ومن نشأ هكذا كان في التأريخ أبرع منه في درس النصوص التي قد تحتاج الى اطالة نظر ، ففيها ما لا تلقاه اول وهلة . ولهذا رجحت كفة « مع المتنبي » التاريخية وشالت كفة النقد ، فالكتاب تاريخ ممزوج بنقدات عجاف مكرورة . وفي التاريخ ايضاً ظلمات كثيفة تحوج قارىء « مع المتنبي » الى الاستعانة بكتاب منظم ككتاب الدكتور عزام .

ان قارىء « مع المتنبي » كراكب الصعبة ، فطه يعلو فيه ويسفل كالماء ، ويروح ويجيء كحائك يسدّي ، ولا سيما حين ينقد او يحاول اكتشاف خصلة او نحلة كقرمطية المتنبي . . . تراه واقفاً للشاعر بالمرصاد ويشد عليه كمن يتعمد الفتك ، وهو لو اخلص للحق والفن لكان اعظم فلاحاً ، فبينا نراه في حديثه عن ابي تمام يصطنع اسلوب المدافع — حديث النثر والشعر — اذا به في « مع المتنبي » يفتش عن العيب بالسراج ، واذا وجده ضحّى وعيّد ، واذا رأى لومة عدّها جناية وكانت فرحته راقصة وأسمعك الزفّة في داره .

ينظر في الشعر ليتأوّله على هواه ، وكثيراً ما يجمع خلف المتمشرقين كالجواد المشكول ، اما تعبيره فواسع رحراح غير محدود ، وهو يهز الألفاظ اكثر من المعاني ، ومثل اللاعب بالسيف والترس يروعك ولا

يؤذيك ، فأنت تشعر – كما قال – انك تقرأ طه لا المتنبي ، فكأن الساعات التي قضاها معه لم تكن ساعات فأل . ولعله تعمّد مخالفة ضرير المعرّة فكتب ما كتب . . .

توقعنا ان نقرأ كتاباً يسد الفراغ فساء فألنا ، فأستاذنا كالمتعتع يجادل نفسه ويفرض ما لا يخطر ببال مخلوق ، وقد يزعم زعماً ثم ينسى انه زعمه .

امــا حسنة كتابه الضخم فهي انك تقرأه لأنه لطـه حسين ، وقل قراءته ولكنـك تستنجد بالصبر وتتجلد وتقرأ لأنه لطـه حسين ، ثم تقرأ وتترجى متوكلاً على الله لأنه لرجل وجيه في قومه ، وهكذا تقرأه كله وان لم تفز بما ينسيك التعب والعناء فحسبك انك قرأت كتابـاً صفحاته سبعمائة ونيف ، وغير قليل هذا المجد الادبي .

اما اذا كانت الثرثرة والاغراق في الكلام اظهر صفــات الاديب كما كتب طه – في هلال يناير – فيكون كتابه هذا خير اثر ادبي اخرجته المطبعة العربية في القرن العشرين .

ولكنني اشكّ في ذلك .

رأيت الناس لم يتحدثوا كثيراً عن « مع المتنبي » فتناولته ، ولست ازعم اني فلقت الحبة ، ولكنني واثق انني لم اجنف في احكامي ، واعتقد ايضاً انني وفيت الاستاذ حقه ، وان قصرت فعن غير قصد . ومهما يكن من شيء فالدكتور – أطال الله بقـاه ووقاه الخطوب ليعود الى المتنبي عوداً احمد – من افذاذ القرن العشرين غزارة قلم ، فليس بالسهل املاء كتاب صفحاته سبعمائة واكثر وخصوصاً في بلاد اجنبية كسالنش ، وفي الصيف ايضاً . . . وان نحن رأينا فيــه معاظلة وتكراراً فسببه انهماك الدكتور في اشغاله الجامعية ، اخذ الله بيده ، ومن يكفل لنا ان احداً يكتب كتاباً احسن منه او مثله ؟ اما المخالفة الشائعة فيه فهي « علامة

فارقة » للعميد يدوّنها له سجل نفوس ادباء هذا العصر .

وبعد ، فاننا نعتذر الى الدكتور عما بدر من لواذع ، فهو قد مارس النقد وعرف لغته ، فلا بد من التوابل حتى للحم الضأن ، وخير الشراب ما كان مفلفلاً .

وأحقّ تقريظ لكتاب « مع المتنبي » هو ما قاله الدكتور فيه عن شعر المتنبي : « كلام كثير لا يخلو من روعة وقوة وجمال ولكنه كلام لا اكثر ولا أقلّ . » (ص ٢٢٢)

فمن ذنبه خناقه كما يقول الرعيان .

نواحي شعر المتنبي

سيطر ابن الأثير على دواوين من استكتبوه من الملوك الصغار فأراد ان يستبدّ في « ديوان العرب » . أصدر في كتابه التامّ عنوانه على خلق صاحبه احكاماً فنية مبرمة تدل على ان الرجل كان ذا بصر نافذ الى اعماق الكلمة ولكن ادعاءه العنيف كشف للناس صفحته فكرهوه في الديوانين .

واليك نص فقرته الحكمية على المتنبي بعد ان صال وجال في ميدان المقابلة بينه وبين الطائيين ، قال : « وهو — اي المتنبي — وان انفرد بطريق صار ابا عذره ، فان سعادة الرجل كانت اكبر من شعره . وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف ، وفوق الاطراء . ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبنّ كريماً بعد رؤيته ... ان الكرام بأسخاهم يداً ختموا

ولا تبال بشعر بعد شاعره ... قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

« ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التي ما ضلّ صاحبها وما غوى ، وجدته اقساماً خمسة : خُمْسٌ في الغاية التي انفرد بها دون غيره ، وخُمْسٌ من جيد الشعر الذي يساويه فيه غيره ، وخُمْسٌ من متوسط الشعر ، وخُمْسٌ دون ذلك ، وخُمْسٌ في الغاية المتقهقرة التي لا يعبأ بها ، وعدمها خير من وجودها . »

كأنّي اراك ، ايها القارىء العزيز ، تحكّ رأسك معملاً فكرتك لعلّك تتذكّر اين رأيت مثل هذا . مهلاً . سأكفيك مؤونة هذا العناء . قد قالته العرب شعراً :

الشعراء فاعلمنّ اربعه　　واحد يجري ولا يُجرى معه
وواحد يخوض وسط المعمعه　　وواحد لا تشتهي ان تسمعه
وواحد لا تستحي ان تصفعه

لقد أصاب ابن الأثير في تقسيمه ، فالجو الذي حوّم فيه المتنبي لم يبلغه احد من نسور الشعر العربي . ان قلوبهم ورئاتهم لا تحتمل ذاك الفضاء فرأوه بأعينهم ولم يلجوه ، كما رأى موسى ارض الميعاد ولم يدخلها .

وبعد ، فشعر المتنبي يقسم اقساماً اخرى . يقسم من حيث الفنّ الى اربعة اقسام : القسم الأول وفيه ينحو ابو الطيب نحو المتقدّمين ، فهو يغرب فيه ويعمله من الطراز الذي يحبّه الأعراب لأنه كان يحيا بينهم ويألف خيامهم ، ويطمح الى النبوّة والامامة . . .

والقسم الثاني وهو الذي قاله في « برّ الشام » فقد صقله المران ولكنه ظلّ متيناً كالدمقس ، ثم عدل صاحبه عن الزاد المعدّ ، ولجأ الى اسلوب أغضب شيوخ ابن خلدون فعدّوه لأجله ساقطاً عن مقام الشعراء . وهل يرضى هؤلاء ان يقول شاعر :

الامَّ طماعيةُ العاذل　　ولا رأي في الحب للعاقل

خذوا ما اتاكم به واعذروا　　فان الغنيمة في العاجل
وان كان اعجبكم عامكم　　فعودوا الى حمص في القابل

واني لأعجب من آمل　　قتالاً بكمّ على بازل
أقال له الله لا تلقهم　　بماضٍ على فرس حائل

اذا ما ضربت به هـــامة براها وغنّـــاك في الكاهل

فهنّاك النصر معطيكـــه وأرضاه سيك في الآجل
فذي الدار أخوَنُ من مومس وأخدع من كفّة الحابل
تفانى الرجال على حبهـــا وما يحصلون عـــلى طائل

والقسم الثالث وهو الشعر الكافوري ، نهج الشاعر في اسلوبه نهجاً جديداً فقال شعراً يقرأ في كل زمان ويصلح لكل آن . شعر انكشفت فيه شخصية جديدة لم تدرك من ذي قبل ، فكان المتنبي فيهـــا ابرع الساخرين وأمهرهم .

واخيراً الشعر الشيرازي وقد رقّ هذا الشعر كأخيه الشعر الكافوريّ ، التفت فيه المتنبي الى الطبيعة فانبعثت من شعره رائحة الأرض الـــتي لم نشمّها في شعر العرب .

ومن حيث التجديد في خطة القصيدة فشعر المتنبي اقسام ايضاً ، ففي شعره الأول ينحو نحو المتقدمين ، يتغزل ويظهر الوجد والهيـام وقـــد يبكي على الطلول ، ثم تضطرم نار الثورة في فكره فيثب الوثبة الاولى ، يبكي على الربوع بكاء فيه طرافة واغراب فيقول :

ملثّ القطر أعطِشْها ربوعا والا فاسقها السمّ النقيعـــا
اسائلها عن المتديّريهـــا فلا تدري ولا تُذري دموعا
لحاها الله الا ماضييهـــا زمانَ اللهو والخود الشموعـا

ولا تلبث هذه الفكرة المتمردة ان تنمو في دماغ الشاعر وتكـــبر ، فيهتف بعد زمن وجيز :

أحقّ عافٍ بدمعك الهمم احدث شيء عهدا بها القـدم
وانما الناس بالملوك ومـــا تفلح عرب ملوكهـا عجم

ثم يتنكر العبقريّ لنواميس العـــادة وشرعاتها ، فينكر ان تكون الطريق المعبّدة هي الجادة المثلى للقريض فيقول :

اذا كان مدح فالنسب المقدّم   أكلّ فصيـــح قال شعراً متيّم
لحبّ ابن عبد الله أولى فـانه   بـــه يبدأ الذكر الجميل ويختم

واخيراً يريد المتنبي ، والارادة ام التجدد ، فلا يتوسل الى موضوعه بشيء ولا يمهّد له ولا يوطّىء ، فيقول :

على قدر اهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
لكل امرىء من دهره ما تعوّدا   وعادة سيف الدولة الطعنُ في العدى
بغيرك راعياً عبث الذئـــاب   وغيرك صارمـــاً ثلم الضراب
دروع لملك الروم هذي الرسائل   يردّ بهـــا عن نفسه ويصـاول
اعلى الممالك ما يبنى على الاسل   والطعن عنـــد محبيهن كالقبل

واذا نظرنا الى شعر ابي الطيب من حيث البقـاء والخلود فهو اقسام ايضاً . القسم الاول ، وقد مضى وراح ، هو ذلك المدح الزائل كأصحابه ويلحق به الغزل المصطنع ، وقـد يتبعها شعره الملحميّ ، وان كان في الذروة من الوصف . فالشعر الملحميّ لا يخلد الا اذا كان قوميـاً وظل يلامس حيـــاة قارئيه ، كشعر المتنبي الآخر الذي تهتز له نفس العربي اليوم لأنه يصور موقفه الحاضر .

كانت بلاد العرب في عهد المتنبي دويلات ، يحكمها فاول من الامم والشعوب ، اقطار متفرقة متشعبة ، فثار ابو الطيب على تلك الحالة وحمل عليها حملات غاشمة كحملات اميره فقال :

بكلّ ارض وطئتهـــا أمـم   ترعى بعبـــد كأنهـــا غـــنم
يستخشن الخـــز حـــين يلمسه   وكان يبرى بظفـــره القـــلم

ويقول :

وما اعاشر من املاكهم ملكاً الا احق بضرب الرأس من وثن
أرانب غير انهم ملوك مفتحة عيونهم نيام
وتضريب اعناق الملوك وان ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر

واخيراً يرى كافوراً الاخشيدي فينفجر ذلك البركان المتّقد ، ويقذف الحمم فيصرخ :

سادات كل اناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم
جاز الأولى ملكت كفاك قدرهم فعرّفوا بك ان الكلب فوقهم

لم يعجب المتنبي الا صديقه سيف الدولة ، رأى فيه رجل العروبة والاسلام اليقظ الواقف في درب الروم يحمي التخوم العربية فغنّاه اصدق اغانيه المدحيّة .

ان هذا الشعر ، الشعر الذي ينادي بالوحدة العربية ، ويعنّف العرب ويدفعهم الى الثورة ليكونوا سادات انفسهم ، يظل حياً خالداً ، ما دمنا نشعر به في كل ساعة ومأزق ، كما شعر المتنبي في شعب بوّان مع انه فتنه كل الفتنة فقال :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسان

ان شعر العروبة المتنبئيّ يبقى حياً ما بقيت الاقطار غير موحدة ، فعسى ان يموت ولو خسر المتنبي عنصراً طيباً جداً من ديوانه .

ولكن اذا مات هذا القسم الذي يبكّتنا فيه ويوبّخنا فلا يموت شعره العربي الاسمى ، شعر الطموح ، شعر حب السيادة . فالعربي يأنف ان يساد ، وهذا ما يحثنا عليه المتنبي . قد كان في شعره وفي سيرته ، في حله وفي ترحاله ، اصدق نموذج عربي . فالمتنبي هو مثال الانفة العربية ، أبى ان ينام على ضيم ، وان يستقر في وطن يسام فيه الخسف ، وهو

الذي قال :

وكل مكان ينبت العز طيّب

ولا اقيم على مال اذلّ بـــه ولا ألذّ بمـــا عرضي به درِنُ

وكم كان العاهل العربي العظيم الملك فيصل يستلذ هذه الابيات ويردّدها :

لا افتخار الا لمن لا يضـــام مدركٍ او محارب لا ينـــام
واحتمال الأذى ورؤية جـــانيه غـــذاءٌ تضوى بـــه الاجسام
ذلّ من يغبط الذليـــل بعيش ربّ عيشٍ أخفّ منه الحمـــام
كل حلم أتى بغير اقتـــدارٍ حجّة لاجىءٌ اليها اللئـــام
من يهن يسهل الهوان عليـه مـــا لجرح بميّت ايـــلام

مثل هذا الشعر يجب ان نعلّم ابناءنا اذا كان التعليم غاية تربوية ، امـا اذا كنا نفهم العلم حشو ادمغة فلنعلمهم شعر القدمـــاء والذين سبقوا ابا الطيب . فمثل هذا الشعر لا يموت ابداً لأنه الشعر الحـــي ، شعر الخلود الذي لا تأخذ الايام منه ثقل حبة خردل . فالمتنبي في حكمته يصدر عن النفس الانسانية العزيزة الكبيرة ، فيصور لنا الاخلاق العربية الاصيلة . شاء احدهم ان يشبهه بنيتشه فأخطأ . ان نيتشه يريد ان لا يبقي الا الرجال الصالحين للحياة . اكبر همه الفلسفيّ انتقاء الناس واصطفاؤهم ، امـا نحن ففي غنى عن ذلك الاصطفاء لان المحيط القاسي نقّانا واصطفانا . واسلوب الحياة لم يبق من العرب الا العرق المتين . ان صورتنا الكاملة الخطوط التامة الملامح لا نجدها الا في ديوان هذا الشاعر ، ففلسفته العامة هي ايضاً فلسفتنا الخاصة :

لا يخدعنّك من عـــدوّ دمعه وارحم شبابك من عدوّ ترحم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبـــه الدم
والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفـــة فلعـــلة لا يظلم

من اطاق الناس شيء غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

كلّما أنبت الزمان قناة ركّب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس اصغر من ان تتعادى فيه وأن تتفانى
غير ان الفتى يلاقي المنايا كالحات ٍ ولا يلاقي الهوانا
ولو ان الحياة تبقى لحي لعددنا اضلّنا الشجعانا
واذا لم يكن من الموت بدّ فمن العجز أن تموت جبانا
كل ما لم يكن من الصعب في الأنفس سهل فيها اذا هو كانا

فمن يقرأ مثل هذا الشعر ولا تتحرك فيه العزة والكرامة والاباء ؟ فهذه هي الخلايا التي لا تموت من جسم الادب العربي ، فيظل متمتعاً بالشباب الخالد الذي ذكره ابو الطيب :

آلة العيش صحة وشباب فاذا ولّيا عن المرء ولّى
واذا الشيخ قال اف ٍ فما ملّ حياة ، ولكن الضعف ملاّ

نعوذ بالله من الضعف ولا منينا به ان كان ذلك مستطاعاً .

قد قسمنا شعر المتنبي كما تراءى لنا فبقي علينا ان نقسم قصيدة الشاعر الاعظم . انها اقسام ايضاً : قسم يرضي به ممدوحه ، وقسم يرضي به ذاته التي غالى في محبتها والاعتداد بها ، وقسم يرضي به الانسانية جمعاء . لا نعني بالقسم الثالث غير تلك الكلمات الخالدة التي لا تخلو منها قصيدة من قصائد ابي الطيّب . ان هذا القسم الاخير من الشعر المتنبئيّ قد تجاوز تخوم الاقاليم وخرج من منطقة الكتب والمدارس ، فدخل الحياة العظمى . قد اطرب الناس جميعاً وهذا ما حبّب المتنبي الينا . احببناه لأننا فهمناه ، « لانه اقرب بنا عهداً ، ونحن اشدّ به أنساً ، وكلامه أليق بطباعنا ، واشبه بعاداتنا ، وانما تألف النفس ما جانسها ، وتقبل الاقرب

فالاقرب الينا » . اما بلاشير الذي سألنا ان ندلّه على موطن الحسن فيه فسيظل جاهلاً ذلك ولو وضعنا اصبعه عليـــه ، لانه لا يشعر شعورنا حين يقرأ هذا الشاعر ، ولا يدور كلامنا على لسانه ، ناهيك ان للمتنبي فنّاً يختلف عن فن غيره من الشعراء ، ونحن في بحثه ماضون .

منابع شاعريته

قال تورغنيف : السعادة هي الراحة والراحة لا تخلق شيئاً . فالحمد والثناء لمن لم يمنح ابا الطيب يوم راحة . فلو ظل في حلب مستريحاً لاسترخت قريحته وترّهلت . ان الركود يلائم شاعراً كالبحتريّ اذا حضرت رحله الهموم يوجّه الى ابيض المدائن عنسه ، فيتسلّى عن الحظوظ ، ويأسى لمحلّ من آل ساسان درس . . . ثم يعود مساءً الى وكره .

اما المتنبي ، وشعره منبثق من خاطر فوّار ، وعين تشاهد فتلتقط ، وفكر لا يستقر على حال ، فلا يلائمه الوقوف أمام قصر دارس . فهو لا يكسو قصائده ثياباً معدّة كالبحتريّ بل يلبس لكل حالة لبوسها . ان ارتقاء المتنبي في احضان الصحارى والفيافي ، وانتجاعه الحواضر والعواصم ، غذّى فكرته ، ولوّن شعره ، وحمّله رسالة عليا لم ينهض بأعبائها شاعر قبله . فلولا هذا التنقل لم يقل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني   والسيف والرمح والقرطاس والقلم
لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها   وجناء حرفٌ ولا جرداء قيدود
وتركك في الدنيا دويّاً كأنّما   تداول سمع المرء أنمله العشر
افاضل الناس اغراض لدى الزمن   يخلو من الهم اخلاهم من الفطن
لا اقتري بلداً الا على غرر   ولا امرّ بخلق غير مضطغن
وكلمة في طريق خفت أعربها   فيهتدى لي فلم اقدر على اللحن

يقولون لي ما أنت في كل بلدة   وما تبتغي ، ما ابتغي جل ان يسمى
وما الجمع بين الماء والنار في يدي   بأصعب من أن اجمع الجَدّ والفهما
واني لمن قوم كأنّ نفوسهم   بها أنَفٌ ان تسكن اللحم والعظما

فهذه الاسفار ، وقد سبقت لنا كلمة حولها ، كانت موارد خفية لهذه العبقرية ، كانت تجدّد شعر المتنبي فينشط كلما تبلّد ، وقد ادرك المتنبي خطرها فتهدّد سيف الدولة قائلا :

لئن تركنا ضميراً عن ميامننا   ليحدثنّ لمن ودعتهم ندم

ان المتنبي من مجانين العظمة ، ولكنّ هذا الجنون لم يفقده اتزانه ولو قال :

ايّ محلّ ارتقي   أيّ عدوٍّ اتقي
وكل ما قد خلق   الله وما لم يخلق
محتقر في همتي   كشعرة في مفرقي

اما حاله مع « العظمة » التي عشقها وحنّ اليها فكان أشبه بقول الشاعر : جُننّا بليلى وهي جنّت بغيرنا . . . انف المتنبي السير على الطريق المعبّدة فمشى وحده . فاذا طلبنا فن المتنبي فلنفتش عنه في افكاره الثائرة ، وخياله المولّد . في لهجته التي هي لهجتنا ، فهو يعبّر لنا عن صوره الحيّة بألفاظ واساليب مألوفة منا ، ولكنّها تسامت حين ألقى المتنبي عليها رداء بلاغته . لقد ابتعد هذا الشاعر العظيم عما لاكه الشعراء الذين سبقوه فظلوا في وادٍ وسامعوهم في وادٍ . لجأ الشعراء الى لغة خاصة بهم ، اما المتنبي فما بالى بأساليبهم ، ولم يتقيّد بما فصّلوه لأنفسهم من طراز وزيّ ، وهذا شأن الفنان العظيم ، فهو لا يتقيّد بقيود البشر بل بقيود ذاته .

ان معظم البشر كقطيع المعزى يجمعهم « البطّال » حول الجرن

الآسن . يمزج المعّاز الماء القذر بنقطة قطران من بطّاله فيعبّ القطيع منه الماء بعدما عافه . كذلك كان تهافت شعرائنا على جرن التقليد ، فمضى هؤلاء المساكين ولم يقولوا شيئاً يبقى . اما ابو الطيب فحمّل شعره رسالة خالدة فقاموا ينعون عليه غزوه اليونان ، وهذا شأن كل مجدد ، فقلما نجد تجديداً غير منفعل بعوامل خارجية . واذا كان كل موزون شعراً فكل متكلم بالعربية شاعر ، فكلهم قالوا الشعر ، وافراطهم في قوله وارساله كيفما اتفق جعلهم يقولون « بيت القصيد » وان يكتفوا بالبيت الرائع . اما المتنبي فلم يرد ان يقوله مثلهم .

الشعر يقال للتنفيس عن النفس ، اما عند الشعراء الذين بادوا فكان ألهيّة ، حاشا المتنبي ، فانه قاله منفعلاً فظلّ يحدث في نفوس قارئيه ما أحدثه في نفس قائله . ان الشعر هو المعمل الذي يصنع تعابير جديدة سامية ، ويرسم الصور الخالدة ، وفي هذا يتفرد المتنبي .

لقد وهب المتنبي خاصة لم تكن لشاعر عربي ، ولو جارينا صاحب « الوساطة » وتعقّبنا آثار المتنبي في ما يسمونه سرقة ادبية لرأينا ان المتنبي لم يدع صورة رائعة من الصور الشعرية الا حاول اخراجها بشكل جديد . تارة يخرجها لوحة رائعة ، وطوراً يكبسها أيّ كبسٍ فتتلازّ ذراتها فتقع في الذهن كالقنبلة . ان تلازّ الذرات مصدر الثقل ، والمتنبي فاق العرب اجمعين بخاصية الايجاز الذي هو التلازّ بعينه ، فجاء شعره مجهراً ، والعرب مولعون بالايجاز يتهافتون عليه فرأوا في شاعرهم العظيم خواصهم مجتمعة فاجمعوا على تعظيمه واكباره . قابل بين قوله :

ولو يممتهم في الحشر تجدو   لأعطوك الذي صلّوا وصاموا

وبين قول ابي تمام في هذا المعنى . ثم قابل قول المتنبي :

لا يقبض الموت نفساً من نفوسهم   الا وفي يده من نتنها عود

يقول ابي تمـــام ايضاً ، تدرك المدى البعيـد بين الشاعرين في اجـادة التصوير ، والايجاز .

ان الفكر العربي قد اصبح سبائك مخزونة في هذا المستودع – ديوان المتنبي – وهذا هو الحرام الحلال . فما على العربي الا ان يدخل هـذا المخزن فيكفيه مؤونـة اللفّ والدوران في الاسواق . . .

كم تمنيت على صديقي المصوّر الفنّان قيصر الجميل رسم بضعة مشاهد من ديوان شاعرنا العظيم مثل :

تمرّ بك الابطـال كلمى هزيمـة ووجهـك وضّاح وثغـرك باسم

ومثل : لا يقبض الموت ، الذي مرّ ذكره ، ومثل :

من كل رخو عظيم البطن منتفخ لا في الرجال ولا النسوان معدود

يضاف اليه :

وما طربي لما رأيتـك بدعـــة فقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

ومثل هذا كثير في ديوان شاعرنا العظيم .

اما مصدر ايجاز المتنبي فاعتداده بنفسه ، فهو لا يناقش ولا يعلّل ، فكأنّ قوله الفصل في كل قضية يلمّ بهـا . وغزارة افـكاره صرفته عن التعبير ، بصور مختلفة ، عن الفكرة الواحدة كما فعل غيره من الشعراء .

واذا شئنا التفتيش عن فن المتنبي وجدناه في الضخامـة . فأبو الطيب ، ان صحّ ما رووه ، كان يلبس طاقاً فوق طاق حتى السبعة ليبدو ملء العيون فاضلًا عنها . . . ومن يقابل بين « على قدر اهل العزم تأتي العزائم » وبين « السيف اصدق انباء من الكتب » يلمح ان كل نفس تنضح بما فيها . فنفس ابي الطيب عـــاتية جبارة تستعين بالالفاظ الضخمة والحروف الآزّة الداوية :

خميس بشرق الارض والغرب زحفه وفي اذن الجوزاء منه زمـــازم

ان القرابة شديدة بين ابي الطيب والاخطل حين يصفان الوقائع ، فهما يشتركان في التفكير ، والالفاظ ، والهزء الذي تحمرّ له الوجوه ولا تنبسط . قال الاخطل في فرار ابن بدر :

يسرّ اليها والرماح تنوشه فدى لك أمي ان دأبت الى العصر

وقال المتنبي في هرب الدمستق :

أفي كلّ يوم ذا الدمستق هارب قفاه على الاقدام للوجه لائم

ناهيك ان للاثنين عيناً حادة تلتقط أدقّ ما تقع عليه . ادرك المتنبي ان للشعر موسيقى تستخرج من غير الوزن فتعمّدها . فلغتنا العربية ليست كما توّهم بلاشير تعتمد على الحروف الصوتية في موسيقاها ، فللحروف الساكنة عمل كبير عندنا . فلكل مخرج حروف تختلف ضخامة ، فمنها حروف تكاد لا تحسّ بها ، ومنها حروف تملأ الفم ولا تخرج منه الا ببذل طاقة شديدة ، وهذا الذي كان يتوكأ عليه ابو الطيب في فنه الشعري .

ان المتنبي أحبّ فنه كثيراً ، فهو ينظم الشعر ليخلد به . قال طرفة :

ولولا ثلاث هنّ من لذة الفتى وحقك لم احفل متى قام عوّدي

وقال بول بورجه الكاتب الفرنسي : المضجر في الموت هو أن الانسان لا يستطيع الكتابة بعده . . . ولو سئل المتنبي لقال : انهم لا ينظمون الشعر . بيد ان المتنبي لم يحسب للموت اقل حساب ، فالغريزة والفناء خطان متوازيان في خارطة المتنبي . ان فن المتنبي في معانيه ، وصوره ، والفاظه التي لا يفهمها على حقها الا العربي . وعلمه العميق بما تؤديه كل لفظة هوّن عليه احياناً استعمال ألفاظ نابية فآثر اخراج المعنى ناتئاً قوياً على موسيقى لا تغني عنده غناء المعنى . وفي هذا قال :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

وُجد المتنبي في عصر مضعضع فحلم في فتوّته احلاماً جامحة فكانت

الصدمة الاولى التي بعثرت احلامه المبكّرة . يقول من يعبّرون الاحلام : ان احلام اول الليل لا تصدق . وكذلك كانت احلام صبوّة المتنبي وشبابه ، فخلقت فيه هذا السخط العنيف ، ولا سيما على الملوك والولاة ، وكيف ينسى السجن وثقل القيود ؟ ولذلك رأى ان الظلم من شيم النفوس ، فما ذكر الرحمة فيما بعد بل قال : وارحم شبابك من عدوّ ترحم ، ولم يحثّ على الاحسان الى الفقراء والارامل مثل ذاك الارمل الذكر . . . جرير .

عاش المتنبي عمره كله مشبوب الشاعرية : توليــــد في الصور متتابع ، تصوير رائع باقل خطوط ممكنة ، ولع بالمعاني يبحث عنها كعامل في منجم ، بعــد عن الصناعة اللفظية . فلغته وتفكيره وآراؤه وثقته بنفسه تتآزر وتتعاضد لتؤثر على اعصابك أيما تأثير ، فتتبعه كما تتبع الشاة الذئب ، او النائم َمن نوّمه . والمتنبي يتدفق في غرر قصائده كالشلال الغضبان ، فقصائده موسيقى معارك لا مجالس لهو وطرب . تصلح للقواد الجبـــابرة لا للحور والمخنثين . فاذا عرضت المتنبي على مقاييس القدماء غـير ناظر الى مراميه البعيدة فانت ظالمه . . .

قال سلفاؤنا : ان ابن الرومي شاعر مولد ، وقـد صدقوا ، ولكن ابن الرومي يقع فراشة ويستحيل دودة ، بخلاف المتنبي فانـــه يقع عصفوراً ويستحيل نسراً ، فهو كالمغامرين الذين يكتشفون المجاهل ويتسلّقون الجبال المستعصية . تطلّب المعنى وجدّ فأتاه من كل فج عميق ، فوهـل الناس بمعانيه وافكاره وخصوصاً البصراء بقوى الكلام . فهو فرس الخيال الجموح السبوح ، وان شئت فقل : قيد الاوابد هيكل . فكما يتغير المـاء اذ يصير ثلجاً كذلك تتحول اللفظة اذا نحتت بمحل مناسب . فالمتنبي حاذق متمكّن من صناعته كما قال عن نفسه :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

فهو نموذج من نماذج العقل البشري الفطري ، ويحق له ان يردد :

وأني على ما كان من عنجهيتي   ولوثـــة أعرابيتي لأديب

فهو اول من اخضع الشعر لقوالب جديدة وأعفاه من المخلّطات . خذ مثلاً شعره في كافور وتأمّل ، فترى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وكأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد .

ان الشعر كالقطيع يجب ان تكثر فيه الكبوش السمان فلا يضره المزيل ان كان هكذا . فأبهّة الكبوش تلهيك وتغطّي على الشويهات المزيلات .

ان شعر المتنبي مرفق كبير ومعونة حاضرة للاديب العربي ، فكأنّه جاء ليقضي على عهد البضاعة اللفظية ، وقد اخذ آياته معاصروه — الصاحب وغيره — فجعلوها تعاويذ لرسائلهم المنمّقة ، فكانوا كالصائغ يزركش الذهب ليضع فيه لؤلؤة ، او حبّة من معدن كريم .

اما الذي لا يعنيه من الشعر غير الموسيقى الناعمة فيصحّ فيـــه قول المتنبي في الخيل :

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها   وأعضائها فالحسن عنك مغيب

واذا شبّهنا الشعراء العرب بأوتار العـود كان المتنبي البمّ ، وان شبّهنا الشعر بعمل صائغ كان البوتقة ، فهو كدول اليوم اذ تصبّ الذهب سبائك . واذا لجأنا الى علـم البصريات الطبيعي رأينا المتنبي يحسن حصر النور في بؤرة العدسة فيحرق . لم يستطع ان يكون مسيطراً في السياسة فكان في الادب . ليس المتنبي كالكأس البلورية يطـــنّ لأقل لمس ثم يختفي صوته ، بل هو جرس قنطاريّ لا ينقطع رنينه الا بعد حين . اذا قرأت وصفه اسد بدر بن عمار خلت اسداً يصف اسداً ، بينـــا البحتري يصف اسد ابن خاقان وكأنه يخشى ان يفترسه . هذا اسده هرّ يداعب الأزهار المفضضة وهذاك اسد هصور يجمع نفسه في زوره :

ويدقّ بالصدر الحجار كأنه يبغي الى ما في الحضيض نزولا

ليس شعر المتنبي دواء يؤخذ بالفم بل بالدم ، فهو حامل رسالة العروبة وهو شاعرها القومي الباقي . لم تكن نافذته مسدودة فأطلّ منها على الدنيا بأسرها ، اما مخيلته فكانت كالرياح التي ارسلها الله لواقح . وبعد ، فالمتنبي مركّب غريب عجيب . كأنه عنى نفسه حين قـــال : كأنّك من كل النفوس مركّب . فيه جفاء الفرزدق ، ورقّة جرير ، ووصف الاخطل ، وتفكير الفلاسفة ، وخيال الشعراء العظام ، وهو الذي خطا بالشعر اعظم خطوة ، فجعل لغته لغة الناس المألوفة . واذا كان حدّ الشاعر والكاتب الكبير كما يقول فاكه : أي انهـم لا يكتبون بعـده كما كانوا يكتبون قبله ، فيكون هذا هو . فدع النقاد يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون .

ان تعدد البيئات كان من اهم الاسباب التي ساعدت على اظهـار فن المتنبي . وقد رأيته يبذل جهداً عنيفاً في القصيدة التي يستقبل بها محيطاً جديداً ولم يبق على الاجادة الا عند سيف الدولة وكافور .

واذا فتشنا عن ضريب لشاعرنا بين شعراء الفرنجة رأينا مـا قيل في فكتور هيغو ينطبق على شاعرنا . فلا حدّ لاعجابه بنفسه ، وهو يسعى أبداً لاعجاب الناس به ، يهتم دائماً بوقع ما يكتب ، لا يترك صغيرة اذا كانت تؤدي الى اكباره ، ولا يعبأ بالخوف والاستهزاء ، حقود بلا شفقة ، لا يعرف الحنو ، — راجع رثاءه لجدته — لا يرحـــم الذين يطعنون في شخصيته المتورّمة الضخمة :

بأيّ لفظ يقول الشعر زعنفـة تجوز عنـدك لا عرب ولا عجم

رجل جدّ واجتهاد ، شعبي على غلظة في طباعه ومزاجه ، ابتهـاجه ضخم ، والوانه خشنة ، مفتون بالاغراب ، يتفجّر شتائم اذا أثير : مـــا

أنصف القوم ضبه ... قليل الاحساس ، وان أحسّ فاحساس المتغطرسين . يتكلم عن الحب بازدراء ونزق عصبيين : وللخود عندي ساعة ... يسرّه جداً – كهيغو – ان يرى المرأة ككلب تحت قدميه . اما عقيدته السياسية فالعروبة فوق الجميع . عصبي المزاج تسوؤه اقل بادرة . يثور اذا قدر ، ويكظم ويداري اذا ضعف :

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بدّ

واخيراً يضيق صدره فيهرب ... كانت نفسه حملاً ثقيلاً عليه ، وهمه بتضخيم شخصيته أتعبه جداً .

ان قوّة نظره لا تحدّ ، يتخيّل الاشياء كما تكون وان لم يرها ، الرؤى لا أثر لها عنده ، يرى الأشياء الناتئة ولا يرى الألوان ، لا تلهمه الطبيعة شيئاً روحياً كأن يتصوّر نفسه فيها ، بل يصف احوالها ويظلّ بعيداً عنها . هو أمهر في تصوير اخلاق البشر منه في تصوير الطبيعة . قد لا تريك عدة قصائد صورة وقد يلهمك بيت واحد لوحة رائعة .

ديوانه مخزن مملوء مُثلاً عليا للحياة وصوراً رائعة لأحداثها ، وكلها صغيرة تستطيع ان تؤلف منها « ألبُوم » لا نظير له . يوحي اليك في شطر من الشعر موضوع كتاب ضخم . وهو لا متحيّر ولا متردّد كالمعرّي . يجزم في آرائه حتى الغريبة منها ، كأنه يسنّ شريعة . يكتفي بفكره ويعتمد عليه اعتماد البطل على سيفه ورمحه وفرسه .

ثقافته كاملة ، ولكنها ثقافة في شخصية كأنّها من الطور الحجري . شخصية خشنة لم تصقلها ثقافتها كما تصقل ألباب قارئيها .

اما آراؤه فتتجه في ديوانه اتجاهاً مستقيماً ، فكأنه يؤيد فكرة فيدعمها كلما انفسح له المجال ، او كأنّه لا يفكّر الا بها . يلوح لي انه أحبّ ان يكون فيلسوفاً ومشترعاً ، وان لم يصرّح :

وما الموت الا سارق دقّ شخصه   يصول بلا كفّ ويسعى بلا رجل
اذا ما تأملت الزمان وصرفه   تيقّنت ان الموت ضرب من القتل
وما الدهر أهلٌ ان تؤمّل عنده   حياة وان يُشتاق فيه الى النسل

كأنّ اعتقاده بما وراء الطبيعـــة عمل منظّم . باح بسره رويداً رويداً لأنه غير قادر على التفكير المستطيل ، او انه يلوذ بالتقيّة ، والملسوع يخاف من جرّة الحبل . ومع ذلك يجتهد ان يفكر ويعمل بكدّ وعجب . لم يحلّ لنا القضية الكبرى حلا مرضياً ولكنه أيقظ فينـا الشك والقلق والرغبات للتطلّع الى ما وراء الطبيعة . كان له هدف ، وهذا الهـدف يستفزّه فيوحي اليه في كل موضوع ويردّه دائمـاً الى فكره الرئيسي .

تجنّب المتنبي جفاف الشعر الجـاهلي كما تجنّب هيغو جفـــاف الشعر الكلاسيكي ، وكلاهما لم يتقيّد بما تقيّد به الشعراء . كانت المرثيات توقظ شاعرية المتنبي ولم تكن تزعج خاطره قضايا عديدة . « المعالي » فقط . . . لم يخلق مبادىء جديدة ولكنه أخرجها في شعر رائع فملكها .

نقمة على الحظ ، فالدهر خصمه الألدّ ، والحظّ عدوّه . ليس له امل في الغد ليتعزّى ، فما بالى لأنه ما انتفع بأن يبـــالي . كان فناناً مالكاً لأصول فنه رغم ما في مزاجه من عيب ، فلم يخضع للنواميس الفنيـــة بل عمل ما اراد ، فكان له فنه الذي صار مقياساً لمن جاؤوا بعده .

كان واثقـاً من لغته فلعب بتعبيره كما شاء . واعتداده بنفسه أبعده عن تقليد القدماء واتباع تقاليدهم . وقد اجتمع وهيغو في مثل هـــذا الضرب من الاستعارات :

في الخد ان عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخـــدود محولا
واحتمال الأذى ورؤية جانيـــه   غـــذاء تضوى بـــه الاجسام

عناصر متنبّية

المتنبي مسلم قوميّاً ، يدين بالعروبة وبما تحتوي من خصال . يؤمن بالقوة التي يؤيدها الحظ ويناصرها . في شعره حياة وقوة لا يجدهما العربي عند غيره .

في المتنبي عرق نزّاز هو عرق الدم ، فهو ظمآن اليه دائماً . تحس في جميع ديوانه انه في حاجة الى ارواء غليله ، ولكنه مات ولم يروه . ومن حسن حظه انه مات لانه قال ما اراد ان يقوله ولم يبق في جعبته شيء . ختم رسالته في شيراز ، وان قال :

وفي الجسم نفس لا تشيب لشيبه   ولو ان ما في الوجه منه حراب
لها ظفر ان كلّ ظفر أعدّه   وناب اذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر مني الدهر ما شاء غيرها   وابلغ اقصى العمر وهي كعاب
لو كان يمكنني سفرت عن الصبى   فالشيب من قبل الاوان تلثّم

ولكنه في كل حال قال خير ما عنده ، ولا خير فيما تبقّى له من العمر .

للمتنبي اباء العرب وجفاؤهم وترفّعهم ، فهم عند انفسهم ارفع الناس ، والمتنبي في نظر نفسه ارفع العرب .

تصدر كلمات شعراء العرب عن شفاههم والسنتهم ، اما كلام المتنبي

فينبع من قلبه . الفاظه جافية كخلقه ، ومعانيه جبارة كآماله ومطامحه .
كان فرجيل يقدّس الرومان اما المتنبي فيقدس العرب في نفسه .

لم تصقله الحضارة فظل خشناً جافياً عاتياً غليظ القلب ، وهذا طبع لا يغلبه التطبع . وان لان هنيهة فلا يلبث ان يعود كما كان :

غنيّ عن الاوطان لا يستخفني   الى بلد سافرت عنــه اياب

ماديّ ليس للروح من شعره نصيب ، لا يفهم العاطفة كما فهمها غيره ، واخاله لا يفهم الالفة البشرية وخصوصاً العائلية ، كما نفهمها :

وللخود مني ساعة ثم بيننـا   فلاة الى غير اللقاء تجـاب
وما العشق الا غيرة وطماعـة   يعرّض قلب نفسه فيصـاب
وغـير فؤادي للغواني رميّـة   وغير بنـاني للزجاج ركاب
تركنا لأطراف القنا كل شهوة   فليس لنا الا بهنّ لعـاب
اعز مكان في الدنى سرج سابح   وخير جليس في الزمان كتاب

لا يعرف القنوط واليأس ، واذا تذكّر المرأة في احدى غفلات الغريزة ويقظاتها تذكر سيفه ورمحه . تغزّل ليقول غزلاً ، او لأنــه مكبوت العاطفة ينفّس عنها بهذا الحديث ، فهو لا يصرّح كبشار : نفّسي يا عبد عني . . . المتنبي عفيف حقاً بل هو أعفّ شعرائنا . حبه حب عربي اوّلي لا يشذ عن التقاليد ولا يتعداها .

المتنبي رجلٌ يعشق المجد ويحب الحرب ويعشق السلاح ويصبو الى الدم . وقد يؤثر الجلوس امام فرسه ولا يقول كابن الثمانين :

وفيهـن ملهى للطيف ومنظـر   أنيق لعـين النـاظر المتوّسم

ابن بيداء وفلاة ، يحلم بالسيادة ، تصبيه المناظر المخوفة اكثر مـن المشاهد الانيقة ، ولهذا ترى تصويره يخيف كجهنم دانتي . واذا صوّر اهمل الخطوط التي لا تزيد صورته روعة ، فيعطيك سيماء الشيء او سحنتــه لا

تفاصيله ، كما وصف شعب بوّان وجبال لبنان . يصف ما له علاقة بموضوعه . فلو عاش ابن الرومي مثله في حلب ما ترك أكلة الا وصفها .

لا يعنى المتنبي بالذكريات بل ينعم بالحالة الحاضرة ، وفي هذا قال :

خلقت ألوفاً لو رجعت الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

لا يتأسف على ما فات ولا يخشى ما هو آت . انه يسمى الخلود ، والخلود في نظره كما قال :

ذكر الفتى عمره الثاني ، وحاجته ما قاته ، وفضول العيش اشغال

له في مطالعته الدائمة واسفاره المتتابعة خير غذاء لمخيلته وقريحته ، فهضم المتقدمين ولم يدع شيئاً للمتأخرين . ترك للاولين تعابيرهم ورواسمهم واعتمد على اسلوبه الخاص واتقاد شعوره ، وعلى تأمّله وقوة توليده ، قد ذكر الجمال لا للاعجاب به والانشداه ، بل لانه طريف .

الدم يتكلم عند المتنبي ، وما المال عنده الا وسيلة لادراك العظمة وارضاء كبريائه . يطل المتنبي على دواوين الشعراء كزائر يعرف مخارم البيوت ، لا كلص او مستجير . فهو غازٍ فاتح اكتسح الادب العربي كله ، وبنى مملكة ادبية اسمها مملكة المتنبي . فلا يبحث ضعاف العقول عن سرقاته ، فالدنيا كانت كلها لواحد . . . ان خارطة الارض تتغير ولا يغيّرها غير الجبابرة .

قد صبغ المتنبي دولته صبغة لا تحول ولا تزول . كثيرون حاولوا اجتياحها فتحطمت امانيهم عند اسوارها المنيعة . فروح المتنبي تنتشر في كل قصيدة من قصائده ، فهو منقذ الشعر العربي . انقذه من عبودية التقليد ووجّهه نحو تكوين الرجال وتربيتهم .

احيا كثيراً من موتى الشعراء ، فلولاه ما ذكروا . ذكرهم نقاد المتنبي اذ زعموا انه سرق هذا او ذاك المعنى منهم فعاشوا .

هو محيي الملوك والامراء ، وحسبه انه استخرج الالماس من فحمة الفسطاط . . . تسود ديوان المتنبي فكرة شاملة ، فهو ان مدح او رثى او وصف او هجا ، يريد خلق الرجل الامثل ، والرجل الامثل عند ابي الطيب هو العربي النبيل .

فاذا اخترنا من شعراء العرب معلماً لاولادنا فلا يصلح لهم الا هذا الرجل . لا خوف على العذارى والفتيان من السير في خفارة المتنبي . انهم يلوذون بحصن منيع من الاخلاق السامية . فحيث كانوا في ديوان هذا الرجل العظيم يتلقون درساً بليغاً لا يجدونه عند غيره . يهوّن عليهم اصعب الاشياء ليخلق فيهم الشجاعة العظمى ، فكيفما اتجهوا يروا رجلاً يزدري ما يخافه اشجع الناس :

الف هذا الهواء أوقـــع في　　　الأنفس ان الحمام مرّ المذاق
والاسى قبل فرقة الروح عجز　　　والأسى لا يكون بعد الفراق

فيا ليت شعري ، لو عاد « الصاحب » اليوم أفلا يخجل من قوله : بدىء الشعر بملك وختم بملك ؟ اما مات جميـع الملوك وخلّد المتنـبي ، الشاعر الحي في ضمير الانسانية ؟

ان المتنبي ، بَلْهَ انه شاعر العرب الأعظم ، هو رجل نضال ، لشعره علاقة وثيقة بحياة كلها آمال وامـاني ، فالشخصية المتنبئية مرتبطة اشدّ مـا يكون الارتباط بما قاله صاحبها من شعر . وازدادت هذه الشخصية نمواً لا بل تضخمت جداً لكثرة التنقل والضرب في فضاء الله . وهذا التنقل صيّر تلك النواة التي أحسّ بها في « المكتب » دوحة وارفة الظـل برغم أنف الجَدّ العاثر والنجم الهاوي الذي يرافقها :

أبداً اقطع البـلاد ونجمي　　　في نحوس وهمتي في سعود

وهذه الشخصية الحالمة بالعظمة حسبت كما يحسب كل شاب ان مـــا

تتخيّله ممكن الحصول ، حتى اذا أقبلت على الكهولة تراجعت رويداً رويداً ، وأدركت ان « ما كل ما يتمنى المرء يدركه » فأقلّت لومها وعتابها الزمان ، ثم ما أحجمت عن انتحال الأعذار فقالت :

اريد من زمني ذا ان يبلّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

وبعد الطموح الى الامامة والنبوّة رضي صاحبنا بولاية . ولكنه لم يحصل على ضيعة . . . فأبرق وأرعد ، وهو لا يدري انه يؤدي رسالته التي بُعث لها ، أي رسالة الشعر الباقي .

ثم كانت المعركة الفاصلة بين المتنبي وغلامه وولده ، وبين الدهر والحظ في دير العاقول ، وأرخي الستار ليفتح عن فصل الختام الخالد ، الفصل الذي لا ينتهي . في شخصية المتنبي خطان رئيسيان متوازيان يمتدان في ديوان ابي الطيب الذي هو صورة صادقة لنفسه . فالخطّ الأول ، وهو الاعجاب بالنفس والاعتداد بها ، ابتدأ في اول شعر قاله :

ان اكن معجباً فعجب عجيب لا يرى فوق نفسه من مزيد

وانتهى في آخر شعر نظمه :

وأنّى شئت يا طرقي فكوني اذاة او نجاة او هلاكا

ولو سرنا وفي تشرين خمس رأوني قبل ان يروا السماكا

ألست ترى ان هذا « الاعتداد » هو الذي قتل ابا الطيب ، بعدما انذره ابن نصر بالخطر الكامن ؟

والخطّ الثاني الذي يناوح هذا الخط الأصيل — وقد يكون هذا من ذاك — هو خط الشكوى من الدهر ، والدهر في نظر هذا الشاعر ابو الحظوظ ومقسّم الأرزاق . ترعرع المتنبي وشبّ واكتهل ولم يفلت هذا الخيط ابداً ، حتى تخيّل الدهر « غريماً » من لحم ودم فاستعدى عليه بحر الفسطاط . وكأن الشاعر أحسّ ، ولكن بعد خراب البصرة ، انه

يتجنّى على هذا « الغريم » فيما ادعى عليه فنزل عن كتفيه ، وقال :

ما أجدر الأيام والليالي   بأن تقول ما له وما لي

وهكذا تندحر تلك الشخصية الجموح بعد تخطّي العمر .

ومن الخط الأول ، خط الاعجاب بالنفس ، يشتقّ خط طويل عريض توحف عليه قاطرات ابي الطيب مشحونة موادّ سريعة الانفجار . فهو يزدري كل شيء حتى الموت والحياة ... ويحتقر الناس جميعاً ، كبارهم وصغارهم ، ملوكاً وسوقة :

اذمّ الى هذا الزمان أهيله   فأعلمهم فدم ، واحزمهم وغد

وأكرمهم كلب ، وأبصرهم عمٍ   وأسهدهم فهد ، وأشجعهم قرد

فكلّ هذا منبعه الاعتداد بالنفس حتى الهوس والجنون .

وكأني بالمتنبي يحدّق الى شخصيته العجيبة بنظّارة تضخّم الشخوص جداً ، فصوّرها لنا كما رآها هو ، حتى اذا شمل مَن حوله بنظره العالي قلب « نظّارته » تلك فرأى « أهيل » زمانه كالذرّ والذّبان .

ولست ادعي انني احطت بكل ما في ديوان الشاعر من خطوط ، فهناك خطوط رئيسية اخرى ، وكلها متفرعة من صميم « كبريائه » ، فعلى من يدرسه بعدي ان يتتبعها فيتألف من ديوان الشاعر « وحدة » تجعله « كلًا » . وسبحان الواهب بلا حساب .

بعد المتنبي

الشريف الرضي

كأني بابن الاثير قد شاهد تدهور الشعر ، بعد ابي الطيب ، فقال في مثله السائر : « وعلى الحقيقة فانه خـــاتم الشعراء ، ومهما وُصف فهو فوق الوصف وفوق الاطراء . » اجل ان « الرؤوس » التي هي من العيار الثقيل قد ذهبت بذهاب المتنبي ، وكاد يفقد القريض رصانته لولا شاعران ، هما المعرّي والشريف الرضي .

اما المعرّي فتفوّق بدرعيّاته وحلّق في رثائه ، فاذا اردت شعره كشعر عربي ، فعليك بالسقط وضوئه ، واذا طلبت مذهبه الذي اختصصناه بكتاب سميناه « زوبعة الدهور » فاقرأ لزومياته وكتبه الاخرى .

واما الشريف الرضي ، وهو شاعر زمانه لا سواه ، فخير لي ولك ان تقرأ هذا الفصل الذي كتبته حول كتابَي زكي مبارك وعبد المسيح محفوظ ، وعنوانه « الشريف الرضي بين دكتورين » ، واليكه :

جرى حديث بين الشيطان وايفان ، في رواية « الاخوة كرامازوف » للقصصي العظيم دوستوفسكي ، فقال الشيطان لايفان : « يجب ان تشك وتجحد ، فبدون الشك والجحود لا نقد . وبدون النقد كيف ننقّح ونهذّب ؟ اذا توارى النقد لم يبق الا « أوصانا » وهذا لا يكفي . يجب ان نضع التقريظ والنقد في كفتي الميزان . ومع ذلك فما انا الذي اخترعت النقد ، ولست انا تيس الخطيئة . يجب ان انتقد لان النقد اصل الحياة . »

اما تورغنيف الروائي العظيم الآخر فيقول في روايته « الارض البكر » :
« اين النقد في روسيّا ؟ عندنا بعض شبان يريدون ان ينتقدوا ، فاذا ارادوا ان يبرهنوا ان الدجاجة تبيض سوّدوا عشرين صفحة لاظهار هذه الحقيقة . . . وقد لا يظهرونها كما يريدون .

« اذا صدقنا سكوروبيكين قلنا : كل انتاج قديم هو كالعدم ، أو لا شيء لانه قديم . واذا كان الامر كذلك صارت الفنون كالازياء ، ولا لزوم للتحدث عنها بجد . اذا لم يكن في الفنّ شيء دائم لا يتغير ، مثل العلم ، فليأخذه القرد . . .

« نعم ان قواعد الفن صعب اكتشافها كقواعد العلم ، ولكنها موجودة ومن ينكر وجودها فهو اعمى .

« لا شيء اقوى فينا من الشيء الذي يبقى فينا ، ويظل كسرّ مغلق لا نفهم منه الا القليل . »

هذا رأي الشيخين الروسيين الخالدين ، اما انا ، ولا ادعاء ، فأرى النقد لا يعدو ثلاثة انواع : اما بعث ، واما نشر وتحنيط ، واما قبر .

امامي الآن كتابان في الشريف الرضي ، والشريف الرضي اشهر من ان يعرّف ، فهو شاعر بعيد مرامي الكلم ، كبير الهمّ . فبيت المتنبي الذي قاله عن نفسه :

وفؤادي من الملوك وان كا ن لساني يُرى من الشعراء

يصح في الشريف الرضي لا في ابي الطيب . انه ملك حقاً ، ومستقره في حنايا القلوب الكبيرة لا القصور الرفيعة العماد . اما الكتابان فواحد للدكتور زكي مبارك ، وواحد للدكتور محفوظ . فلنقل اذن الشريف ، رضي الله عنه ، بين دكتورين . ولكن لا ، فالاستاذ مبارك ، كما يتضح من الكشف الذي على الجزء الثاني من كتابه « عبقرية الشريف الرضي » ،

اكثر من دكتور ، هو دكتور في الآداب من جامعة باريس ، ودكتور في الآداب من الجامعة المصرية مرّتين . لقد حيرني هذا فقلت : ترى صارت الدكتوراه كبعض الاوسمة . . . تمنح مرّتين واكثر . . .

وكيفما دارت الحال بالدكتور مبارك فهو كاتب ملهم وملهم ، كما يعبّر زميله الدكتور الآخر . فكرت قبل ان افتح كتابه ان اثني ثناء طويلاً عريضاً على كتبه الضخمة ، فالرجل ، بارك الله في عمره ، سوّد وحبّر من الصفحات ما يعز على عشرة من فطاحل الكتّاب ان يسوّدوه . وفيما انا افتش عن كلمة أفي بها قسطاً من الديون المستحقة ، فتحت الكتاب بدون انتباه فوقعت عيني على اول صفحة فاستغنيت عن كلامي انا بكلمته هو ، وصاحب البيت ادرى بالذي فيه . فبعد ان قال الدكتور ولأنه ، ولأنه . . . كما يقال في المراسيم بناء وبناء ، قال اخيراً : « ولأن القلم جرى فيه — اي في كتابه — باسلوب ما احسبني سبقت اليه في « شرح اغراض الشعراء » حتى كدت أتوهم اني طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين . »

وحسبي بهذا ثناء على الدكتور الجليل ، فرجعت ولساني يردد قول العوام عندنا : من مالك يهدى لك . . .

روى الدكتور بيتاً للشريف وهو :

انا النضار الذي يضنّ به او قلّبتني يمين منتقد

وقد علق مبارك عليه بهذه العبارة : اشهد انك وجدت المنتقد ، ايها النضار .

ليت الدكتور أصر على ما ادعى في عبارته التي تقدمت ، فقد أنصف نفسه الانصاف كله ، حين زعم انه شرح اغراض الشريف . قد اجاد في هذا وافاد ، وصوّب اشعة التاريخ الكاشفة على عذارى الشريف الخالدات

فبهر جمالها العيون وفهم الناس عن ذلك النبيل ما لم يكونوا يفهمون لولا كتاب مبارك . ناهيك ان الديوان اصبح نادراً فكأنه اعاد طبعه ، او اختار دراريه ، فاصبح القارىء في غنى عن التماس الاصل . اما النقد الذي توعّد به الشريف الرضي ، او وعده ، فما وقعت على أثر له في الكتاب ، الا اذا كان ما قاله الدكتور مبارك نقداً في نظر غيري . . . لعله كذلك ، ومن يدري ؟ . .

أتقول هذا نقداً ؟ قال الدكتور في الصفحة ١٢ : « سيرى قراء هذا الكتاب اني « جعلت » الشريف افحل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون في جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبي !

« واستطيع ان اجيب بأن الشريف في كتابي اشعر من المتنبي في أي كتاب ، ولن يكون المتنبي اشعر من الشريف الا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب . »

واذا قلبت الورقة عثرت على هذه العبارات : « وبيان ذلك اني لم اقف من الشاعر الذي ادرسه موقف الاستاذ من التلميذ ، كما يفعل المتحذلقون ، وانما وقفت منه موقف الصديق من الصديق . والتشابه بيني وبين الشريف الرضي عظيم جداً ، ولو خرج من قبره لعانقني معانقة الشقيق للشقيق . »

قلْ له ، يا سيدي ، قم فيقوم ، ويشهد الناس عناقاً لم يشهدوا مثله في بيت عنيا . . . ما زلت تخمل شاعراً كالمتنبي اذا شئت ، وينبه ذكره اذا كتبت عنه كتاباً مثل هذا الكتاب ، فلا يصعب عليك ان تنشر الشريف هنيهة ليعانقك معانقة الشقيق ، وانا اكفل له الخلود الى قيام الساعة مثل ايليا واخنوخ . . . لان معانقة من يحيي قلمه

وتيت ليست بالامر الكثير الوقوع . . .

حتماً ان العبقرية فنون ! . .

ومع كل هذا القول فما ارى كتاب المبارك الا نثراً وتخبيطاً ، ومصر برّزت العالم في هذا الفن . قد كان موقف الدكتور في هذا الكتاب موقف الدليل من العاديات ، او كمن يعرض « صندوق الدنيا » . قلت ان الدكتور في غنى عن المدح لأنه ادرى بنفسه ، وقد وفّاها حقها . انه محتاج الى من ينتقده ، وقلّ من يقدم على ذلك ، لأن عند الدكتور بضاعة لا يعرضها غيره في سوق الادب ، فهو محتكر هذا الصنف ومدخره لحين الحاجة .

قد فرغنا من كتاب « عدّة دكاترة » . فلنعد الى الكتاب الآخر كتاب الدكتور الواحد .

كتاب الدكتور محفوظ جديد في بابه ، وفيه جهود ذات بال ، لولا مغالاة صاحبها في بسطها . ان فرحته بالعثور عليها تحاكي في ضوضائها وضجتها فرحة ذلك العالم الذي هتف : وجدتها وجدتها .

لقد اصبت يا دكتور ، ولكن حنانيك . . . وهلتنا يا شيخ . فليس ما تسمونه « الرمزية » باكتشاف جديد ، فمحاولة الاستعارة الرمزية ، كما فعل الشريف اللبيب ، تبلغك الهدف . احذف كاف التشبيه واضف المشبّه به الى المشبّه ، وفتش عن الاستعارات الغريبة والكنايات البعيدة تكن رمزياً .

نشر هذا الكتاب الطريف الجديد في لغة الضاد السيد محمود صفي الدين صاحب مكتبة بيروت ، فيخدم الادب خدمة جلى ، اذ ادخل هذا البرعم الجديد الى حديقة آدابنا المحتاجة الى التطعيم . فالكتاب نفيس مفيد جداً للشعراء الرمزيين . ففيه كل شيء حتى التمارين لتحويل الكلام الواقعي

الى رمزي . . . يعلّمهم الذين يستحلون الاسلوب الرمزي ، وخصوصاً من لا يغيرون على الموتى ، كما قال ابن الرومي في صاحبه البحتري ، او الذين لا يعرفون الفرنسية ليعرّبوا صور مالرمه وسامان ورنبو وفاليري حتى نثر جورج دوهاميل — عفواً يا سيدي دوهاميل ، انت دكتور ، فعندكم يهملون هذه الالقاب ، وانا اتكلم بلغتكم حين اتحدث عنكم .

من قراءة مقدمة السيد صفي الدين ناشر كتاب محفوظ يفهم القارىء أن الكتاب جديد في بابه ، وهذا لا ينكر . فهو ، عدا تعريفنا بعبقرية الشريف الرضي ، يعرّف القارىء الذي لا يعرف لغة اجنبية مذاهب الادب الاجنبي ، فيخرج من مطالعته وعنده من كل فن خبر ، فالكتاب حجر جديد في المكتبة العربية .

اما انه ادرك دون سواه رمزية الشريف وعبقريته فهذا ما اشكّ به . سمعت من استاذ لي — في ذلك الزمان — اطيب الثناء على شعر الرضي . كان هذا الاستاذ — ادركته وهو شيخ — يعلّمنا المعاني والبيان ، يقول عن الشريف الرضي : انه شريف في معانيه ، شريف في غزله ، لا تستحي البنت ولا خوري مثلي ان يردّدا نسيبه . يؤدي فكرته باسلوب يخفف من وطئها وسماجتها ، فتحلو في السماع ولا تنبو عنها الطباع . وما سماه الدكتور محفوظ اليوم « رمزياً » كان يسميه معلمنا تشبيباً بليغاً ، وكثيراً ما كان يتلمظ اذ يقول :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الاصيل على لجين الماء

كان يحب ، رحمه الله ، اسلوب الشريف الرضي لفحولة كلامه وتعففه ، وبعده من الركاكة والحشو ، ويعجبه جري تعبيره فيشبهه بأنهار لبنان . ويتكلم عن متانته ، فيقول : هذا عمّار — بنّاء — ماهر ، مدماكه حلو . . .

نعم ان استاذنا ، في ذلك الزمان ، كان عارفاً بالادب الفرنجي . ولم

يكن يقيم وزناً للرمزيين لأنه محافظ لا يعدل بكورني وراسين شاعراً فرنسياً . كان ينظر في شعر الشريف على ضوء كتابه الذي يعلّمه – كتاب البلاغة العربية – وكان يقول لنا : متى قلّت الادوات والوسائل كان المجاز ابلغ واحلى . وخير مثال على هذا عنده شعر الشريف .

رحم الله ذاك الخوري ، لقد كان كما قال الشاعر : حجر شحذ يسنّ الحديد ولا يقطع . كان شعره بارداً ونثره ابرد . ولكنه كان معلّماً .

اما كتاب الدكتور محفوظ ، فيفتح اذهان الشعراء والطلاّب ، ويرشدهم في مهمه الرمزية ، فهو كالصوى في الصحراء ، او كهذه الاعمدة المنصوبة على مفارق طرقات لبنان تهدي السائق الغريب طريق البلد الذي يقصد . لا تعيب هذا الكتاب تلك الفصول الخارجة عنه ، فهي مفيدة للقارىء وهي تمتّ الى موضوعه بنسب . يردّ على الدكتور طه حسين في المقارنة بين الادب العربي والآداب الاجنبية ، ويسمي ذلك وقفة ، فاذا بالوقفة تطول جداً فتستغرق اربعين صفحة من الكتاب . ولكنها وقفة ، على طولها ، لم تخلُ من فائدة اذ يتحدث فيها عن ادب اليونان فيقع الدكتور محفوظ فيما وقع فيه الدكتور حسين من المراجعة والتكرار والمط ، فكأنه يريد ان لا يستقل طه حسين بهذا الاختصاص ، بل يريد – ويا للجسارة ! – ان يعلّم طه كيف يدرس ، وكيف تدرس الآداب ، وطه حسين كبر على العلم . . .

وما كدنا نفلت من طه حسين ومنه حتى اعادنا في عشرين صفحة اخرى الى ذلك المحيط ، محيط التعليم ، وتعليم درس لا علاقة له بالكتاب ، وبأسلوب لا أحبه . ان أكرهَ ما اكره اسلوب اولاً وثانياً وثالثاً .

وبمناسبة الكلام على المدارس الادبية يأتينا الاستاذ محفوظ بترجمة جديدة لكلمة رومنطيقي فيعرّبها الادب المطلق ، ويحتج على تسمية الابتداعي

والاتباعي . حقاً لقد كان القدماء أنبه منـا ، فعرفوا كيف يعرّبون الالفـاظ . اما نحن فكل يعرّب على هواه ، فقد قرأت اسم شاعر الالمـان صاحب فوست اشكالاً متعددة . ان اصح تعريب هو كلمة رومنطيقي ، وهي مطبوعة على غرار العرب في التعريب .

ويحدثنا الدكتور محفوظ ويثير قسطلًا من الاعجاب حول هذا البيت :

ولو استطاع لقد جرى مجرى الوشاح على حشاها

فهذه الفكرة ، التي غالى في وصفها وتحليلها ، بسيطة جداً . وردت لغير الشريف وقد ترد كل يوم ، وفي كل ساعة ، عند ذوي العيون النهمة حتى صارت مبتذلة .

ويكتب فصلًا شائقاً قيماً عما يلتبس بالشعر الرمزي ، ولا عيب في هذا الفصل الا انه كلف نفسه فيه مناقشة الاستاذ الزيات حول شعر ابن الفارض . فيقول الدكتور محفوظ ان البيتين والثلاثة في القصيدة لا تكفي لاعتبارها شعراً رمزياً ، فلو كان لابن الفارض ثلاث قصائد كاملة من مرتبة هذين البيتين المليئين بالصور الجميلة :

وفي مساقط انداء الغمام على بساط نور من الازهار منتسج
وفي مساحب اذيال النسيم اذا أهدى الي سحيراً اطيب الأرج

لجاز لنا ان ندعوه شاعراً رمزياً ، ولكن بكل اسف لا نجد له سوى ابيات متفرقة فقط غير كافية لالباسه التاج الرمزي الصحيح .

قلت : وهل للشريف الرضي قصائد كاملة ! اقول هذا وانا مثل الدكتـور محفوظ لا ارى الرموز الصوفية شعراً رمزياً كما نفهم الشعر الرمزي الاوروبي .

ويقابل الدكتور محفوظ بين الشريف الرضي وشعراء الفرنجة الرمزيين فيوفق توفيقاً حسناً وان تكلف . ويحاول تهشيم شعرائنـا المتقدمين

ليثبت قضيته التي اثارها حول شاعرنا الشريف . ثم يعجب حتى يفوق عجبه العجب باتفاق رنبو صاحب « المركب السكران » وشريفنا صاحب « العرف السكران » حتى كدت اقول ان كتاب محفوظ يدور كله حول هذا البيت دوران القمر حول الارض :

كم نفحة الك كاللطيمة مسرا   هـا نوم وعرفهـا ثمل

ويعجب محفوظ ببيت آخر للشريف :

تزاحم انجمه الافول   والبدر في اثر ذاك الزحام

فيقـابله بقول شعراء الغرب وينسى « نابغتنا » القائل : وليس الذي يرعى النجوم بآيب .

ويغالي الدكتور محفوظ جداً في استخراج الصور كأنها كل شيء ، مع ان الشعر الرمزي يقوم على الموسيقى قبل الصور . وهـذا رأي العرب في الشعر ايضاً فقالوا عن البحتري : اراد ان يشعر فغنى . وقال الجاحظ : الشعر لا يستطاع ان يترجم ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل سقط موضع التعجب منه . ولهذا اتعجب كيف ان الدكتور لم يسهب في وصف موسيقى الشريف الشعرية ، مع انها موسيقى فائقة يضارع فيها البحتري شيخ النغم الشعري . ولكنهـا ويا للاسف غير موجودة في الابيات التي طبقهـا محفوظ على الاصول التي وضعهـا « مشترع الرمزية » مالرمه . . .

اما « الدزينة » من الصور التي استخرجها محفوظ من بيت الشريف هذا :

كم فيك من مهجة معذبة   هجيرها بالنسيم يلتطم

فمدهشة حقـاً ، وادهش منها تفتيشه دائماً عن بيت رديء او وسط عند المتنبي ليقابله بما قاله الشريف . واني لأعجب من الدكتور حين

يطيل الثناء على هذا الشطر للشريف : « ترى العين ما لا تنال اليد »
ثم يقول عن بيت المتنبي :

تركت السرى خلفي لمن قل ماله　　وأنعلت افراسي بنعماك عسجدا

ان في استطاعة كل انسان ان يقول : ملأت جيوبي ذهباً ، او ملأت داري ذهباً ، وانعلت خيلي ذهباً وعسجداً . ونحن نقول له ان شطر الشريف ، وان اجاد نظمه ، هو ايضاً نظم قولنا العامي العين بصيرة واليد قصيرة ...

ما هكذا تقاس الفنون يا نطاسي ، وما هكذا يقابل بين شاعرين عظيمين كالشريف والمتنبي . فكل فنّان يستقي من الواقع ، ولكنه يخرج فكرته كما تخرج النحلة عسلها ، أي مطبوعة بطابع نفسه ، فرويداً رويداً . ولا تنس ان الشريف ترسّم خطى ابي الطيب .

لقد اجاد الدكتور فأفاد حين حدد الشعر الرمزي وذكر أسسه واصوله . ولم يفته ذكر عيوبه فحذر جماعة الرمزيين بقوله : فنقع في العيب الذي وقع فيه الادب الرومنطيقي حيث كانوا يعيبون على شعرائه تكرار بعض عبارات

لقد وقعتم يا صاحبي — ان كنت منهم — وابتذل شعركم ، كما قلت لكم غير مرة ، واصبحتم ترتطمون في تعملكم . فحذار !

وكأنه تصور ان الشريف الرضي شاعر رمزي حقاً فقال (ص ٩٦) بعد ان بيّن العيوب التي وقع فيها الشعراء الرمزيون : ان عبقرية الشريف المدهشة لم تقع في واحد من العيوب المنسوبة الى الادب الرمزي والى اسلوب شعرائه ... انها لغريبة تلك العبقرية التي تتجرد من نفسها لتنتقد ذاتها بذاتها .

فالجواب : ان الشريف الرضي ليس بشاعر رمزي كما يشاء الحكيم

ان يكون ، ولكنه شاعر ملهم ، له استعارات وتشابيه طريفة أرشده اليها ذوقه الرفيع ، واساوبه الفذ ، ولغته الجزلة ، وقد سبقه الى هذا ابو تمام . أما انه واضع اسس الرمزية قبل بودلير فلا يا صاحبي . وهل للرمزية اسس تتجرد كل التجرد من المدارس التي سبقتها ؟

اما تعجب الحكيم من خاصة النقد عند الشريف فلا داعيَ له ، فهذه خاصة لا بد منها لكل فنان في الادب وغيره ، وان حرم منها فلا يقول شيئاً يذكر ، بل يضع السكر والملح في طبخة واحدة .

تهيأ يا قارئي فنحن قادمون على « مأتم » ، مأتم طويل يدوم خمسة اسابيع واكثر ، فلا ترع . مأتم حول بيتٍ قاله مولانا الشريف واليكه :

تلذ عيني ، وقلبي منك في ألم فالقلب في مأتم ، والعين في عرس

من عادة المأتم ، حتى الملوكي منه ، ان يدوم اسبوعاً ، اما المأتم الذي اقامه الحكيم فظل خمسة وثلاثين يوماً ، اي ٣٥ صفحة من القطع الكبير . راح ، آجره الله ، يحدثنا عن « المأتم » في الشعر العربي من ابي تمام حتى شوقي ، فخلنا نفسنا في مأتم حقاً . لم ينس مأتم البحتري في ايوان كسرى ، ومأتم شوقي في الحمراء ، ولست ادري لماذا أتعب المؤلف نفسه كل هذا التعب وجاءنا بكل هذه المآتم . لا علاقة بين مأتم الشريف وبين أي مأتم آخر الا المأتم الذي اقامه قبله حبيب الطائي ، حيث يقع فيه الحافر على الحافر بين الشاعرين ، كما عبّر قبلنا ابن الاثير . واليك قول ابي تمام :

أسكّن قلباً هائماً فيه مأتم من الشوق الا ان عيني في عرس

وتعصّب الحكيم لشاعره — وهو شاعرنا الذي نحبه لأنه عشير الصبا — فقال : ان الشريف لم يطلع على بيت ابي تمام هذا . قلت : ان اطلاع الشريف لا يضيره يا دكتور ، فلا تعنِّ نفسك ، فأبيات الشريف الاربعة

التي اوردتها هي خير ما قيل في الشعر العربي اظهاراً للتحرق ، وهي من الشعر « الناعم » جداً ، كما تعبّر عن شعركم الرمزي ، ولا بد من ايرادها تبريراً لمغالاتي :

خذي حديثك من نفسي عن النفَس وجدّ المشوق المعنّى غير ملتبس
الماء في ناظري، والنار في كبدي ان شئت فاغترفي ، او شئت فاقتبسي
كم نظرة منك تشفي النفس عن عرض وترجع القلب مني جد منتكس
تلذ عيني ، وقلبي منك في ألم فالقلب في مأتم ، والعين في عرس

فالشريف هنا ، وفي كل مكان ، يبذ أبا تمام ديباجةً ، اما المعاني فذاك ربها ، كما وصفه ابن الاثير . ولم يكتف الدكتور بنهاية المأتم العربي حتى نقله الى اوروبا فجاءنا بما قاله فرلين في هذا المعنى ، وقال هو ان القصد من هذه الابحاث هو تحليل الادب الدقيق . وقلت انا : ولكنه تحليل طويل يحلّ المفاصل . . .

ومن عادة المأتم ان يعقبه البحث في زوال الدنيا ، وهكذا كان ، فشرح لنا الحكيم بيت الشريف العذب :

وقفات على غرور واقدام على مزلق من الحدثان

وحدثنا حديثاً قيماً عن الصور الفارغة والمتناقضة ، وليس هنا باب التحدث عنها ، فالكتاب ضروري للمكتبة العربية ، فليطالعه الراغبون في الفن الرفيع ليعرفوا الصور الفارغة والمتناقضة وكيف تصنع .

قد رأيت ان عند الدكتور اشياء لم يقلها ، فعسى ان لا يحرمنا منها في جزء تالٍ ، ولا عيب في كتابه هذا الا التكرار واللف والدوران ، واخاله قد اضطر الى ذلك اضطراراً .

لقد طبّق المفصل اذ اهتدى الى الشريف ، فهو وابن المعتز ملكان ، والتأنق من صفات الملوك . وقد يصح هنا القول العربي المأثور : كلام

الملوك ملوك الكلام .

ان للشريف خاصة موسيقية فريدة في شعره الذي يرسله عفو الخاطر ، اما حين يتكلف الاستعارات البعيدة ، او الرمزية ، فقد رأيته يفقد كثيراً منها . ناهيك ان هذه الاستعارات الجميلة هي في ديوانه الضخم كشذور في منجم ، وقد ادرك بعد غوره القدماء فاشاروا الى ذلك ، وما أخّرهم عن وضعه مع المتنبي الا لان شعره يجري في مستوى واحد ، فليس له وثبات ابي الطيب ولا اسفافه .

ان للشريف مقدرة عظمى على تحميل الكلمة ما تطيق ، فتبرز فكرتا ناتئة كأنها تفويف الرخام أخرجه ازميل نحّات حاذق . وللشريف شخصيتان بدوية وحضرية . فللشريف البدوي كل صفات الشاعر القديم الا الخشونة وللشريف الحضري ليونة الاطلس ونعومة المخمل .

فبينا تسمعه يرثي بدوياً تخالك أمام شاعر جاهلي اذ يقول :

منابت العشب لا حامٍ ولا راعِ   مضى الردى بطويل الرمح والباع

ثم يختمها بقوله :

استودع الارض خلاني لتحفظهم   لقد وثقت الى هوجاء مضياع

واذا تغزّل قال :

يا حبّذا منك خيالٌ سرى   فدلّه الشوق على مضجعي

ان الشريف من أحلى شعرائنا استعارة وأبلغهم تشبيهاً ، ولو كنا من معاصريه ، رضي الله عنه ، لقلنا فيه بيته هذا :

خلا منك طرفي ،وامتلا منك خاطري   كأنّك من عيني ، نقلت الى قلبي

عاشت العبقرية ، والاخلاق الرضيّة ! انه لشريف حقاً .

الموشحات

بشّار بن برد اول شاعر تغنّى بتسهيل الشعر فقال معتدّاً بشعره :

وشعر كنور الروض لاءمت بينه   بقول اذا ما انجد الشعر اسهلا

اما الذين سهّلوه حتى أسهلوه فاولئك هم شعراؤنا المغاربة . ثاروا على القوافي والأوزان وقالوا الشعر بالكلام الجاري على السنتهم ، في جميع الاغراض التي قاله فيها المشارقة . تهافتوا على الشعر متعمدين السهولة الفائقة فصحّ فيهم قول الشاعر : زاد في الرقة حتى انفلقا . . . لست أطيل الكلام وحسبي نموذجان أخذتها عن ابن خلدون ، قال : « وذكر الاعلم البطليموسي انه سمع ابن زهير يقول : ما حسدت قط وشّاحاً على قول الا ابن يقيّ حين وقع له :

ما ترى احمد ، في مجده العالي لا يلحق   اطلعه الغرب ، فأرِنا مثله يا مشرق

ثم انتقل الى رواية أخرى فحدّث عن الحكيم ابي بكر بن باجة انه حضر مجلس مخدومه ابن تيفوليت صاحب سرقسطة ، فألقى على بعض قيناته موشحته :

جرّر الذيل ايما جرّ   وصلِ الشكرَ منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك لما ختمها بقوله :

عقد الله راية النصر   لأمير العلاء ابي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تيفوليت صاح : واطرباه ! وشقّ ثيابه

وقال : ما أحسن ما بدأت وختمت ! وحلف بالأيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة الى داره الا على الذهب ، فخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشى عليه . »

فليحكم القارىء في نفسه ، ثم لا يظنن ان القريض الاندلسي كله من هذا الحوك ، ففيه انماط وضروب مختلفة . وقد كان في المغرب شاعر يضارع المشارقة ويجاريهم هو ابن هاني ، كانت تتجاوب في نفسه اصداء الشرق فيحاكيها بكلام يقفز قفزاً ويجمز جمزاً ، وما رأيت ابا العلاء عادلاً ، اذ نقده ، فشبّه شعره برحى تطحن قروناً ، فللرجل موسيقاه وفنه ، وليست مبالغاته من نوع المبالغة الشعرية المعهودة ولكنّ شاعر الفاطميين الاكبر يستوحي عقيدة راسخة فتحت مصر بقوّة ايمانها وسيفها ، والشاعر على دين ملكه .

واذا استعرضنا شعراء الاندلس رأينا فيهم شعراء لم يتناهوا في هذا الشطط ، كابن زيدون ، وابن خفاجة ، وابن عبد ربه ، وابن الخطيب ، واذا قرأت موشح هذا الاخير « جادك الغيث اذا الغيث هما » هبّت عليك منه رائحة الشرق ، وادركت انهم لم يبتلوا جميعاً بالفالج الادبي الاندلسي .

لست انعى على الاندلسيين سهولتهم ، ولا صورهم الحلوة ، ولا الوانهم المتآلفة ، ففي شعرهم حلاوة السحر البياني وخفته ورشاقته كما في هذا المقطع الرشيق :

كحل الدجى يجري ، من مقلة الفجر ، على الصباح
ومعصم النهر ، في حلل خضر ، من البطاح

ولكني انعى عليهم ما انعاه على شعرنا الشرقي ، وهو هذا التشابه ، فلا تكاد تقرأ موشحاً او موشحين حتى تعلم انك أتيت على كل ما عنده

القوم ، ولست تخرج من هذا الجوّ الشعري مهما قرأت ، وهكذا أصيب شعرنا الغربي بما ابتلي به شعرنا الشرقي .

اما المأثرة التي لا تنسى فهي سبقهم الناس اجمعين الى هذا النمط من الشعر . جاء في مقدمة مجموعة الازجال والموشحات للشيخ فيليب الخازن :

« ان القافية لم تكن معروفة في اوروبا ، قبل عهد العرب ، فانما هم الألى ادخلوها اسبانيا في بدء القرن الثامن ، كما حقق العالم السيد هويت اسقف افرانش ، ولم تنتشر في المانيا الا في القرن التاسع على يد الراهب اوتفريد الالماني . اما القول بأنّ القافية كانت معروفة قبل ذلك العهد استدلالاً بقصيدة لاتينية التزم فيها ناظمها القافية ، على كونها منسوبة الى القرن السادس ، فليس ذلك بحجة واردة على اسقف افرانش ولا يقدح في صحة قوله المار ذكره ، اذ ليس في كتب العروض عند اللاتين من ايماض الى القافية في ذلك التاريخ . وفضلاً عنه فان المنظومة اللاتينية المستشهد بها لم تكن معروفة حتى المئة الثامنة عشرة . وباعثها من مدفن جهالتها وخمولها انما هو العالم لويس انطون ميراطوري .

« فلو سلمنا بتعارف القافية في اوروبا منذ المائة السادسة لورد علينا الاحتجاج بعدم استعمالها حتى القرن التاسع ، فبطل الاول لثبوت الثاني ، ولا عبرة ببعض مزدوجات جاءت في شعر « اوفيد وفرجيل وانيوس وهوراس وفادر » فانه من النادر او النزر القليل الذي لا يصلح حجة للقائل بغير قول السيد هويت ، خصوصاً وان نقدة الكلام قد حملوا ما ورد من الشعر المقفّى لاولئك الشعراء على قصد الافتنان الخاص بهم دون غيرهم ، يؤيده ان شعراء اوروبا لم يحتذوهم فيه على المثال ، وانما لزموا سنن الشعر اللاتيني حتى جاء العرب اسبانيا مستصحبين كتاب عروض شعرهم ، ومداره القافية ، فاخذها عنهم الفرنج وجعلوها اساساً

لكتب عروضهم .

« اما الموشحات فاستحسنها شعراء الفرنجة من الاسبان والجرمان والطليان والفرنسيين ونسجوا على منوالها كما يُرى في ديوان الاغاني الاسبانية الاهلية الموسوم Le Romancero وديوان القوافي Les Rimes لفرنسيسكو بترارك احد فحول شعراء ايطاليا الذين ظاهروا على النهضة الادبية في القرن الرابع عشر ، وكما يظهر من المنظومات الاوروبية المعروفة عندهم ، وقد نظم على هذا الاسلوب شاعر فرنسا العالم المشهور فكتور هيغو في ديواني شعر له عنوانهما : Odes et Ballades Les Orientales ولا مراء في ان العرب هم السابقون الى هذه الطريقة بدليل ان شعراء الفرنجة في اوروبا لم يألفوا اساليبها ولا انسوا من انوارها رشداً الا في اواخر القرن الثالث عشر . »

لا شك ان الموشحات طراز معلم من الشعر ، وها هو الشعر الاوروبي اليوم يمشي في تلك الجادة التي اختطوها ومهدوها في دنيا الشعر منذ عشرة قرون . لقد تبعهم العالم الادبي العالمي وتخلف عنهم اخوانهم في الجلدة واللسان ، وكانت اليقظة اللبنانية فسمعنا في فجر القرن التاسع عشر صدى هذه الانغام في قصر امير لبنان . مدّ شعراء الامير بشير ايديهم الى تلك القيثارة فاهتزت اوتارها . سمعنا نقولا الترك يهتف : بأبي عهد التهاني والصفا ، الخ . وسمعنا بعده بطرس كرامة ينشد مهنئاً بقدوم مياه الصفا الى دار الامير :

صاح قد وافى « الصفا » يروي الظما بشراب كوثريّ ألعس
وأفاض الشهد في روض الحمى لجلا الغمّ وبرء الأنفس

الى ان يقول مادحاً اميره :

سيد أهدى المعالي سؤددا وحباها كل عز شامل

خرق الصخر واجرى موردا فاض من نهر الصفا بالنائل
انشدت من كفه سحب الندى لا يضيع الله اجر العامل
فبأعيان ثناه قد سما غزلي لا بالعيون النعس
وبميّاس قناه نظما عقد مدحي لا بقدّ اميس

ثم انتشر ابناء لبنان في اقطار المسكونة ضاربين في مناكبها مترنمين بلسان عربي مبين ، فخلقوا في كل قطر من اقطار العالم اندلساً جديدة . اطلقوا الشعر العربي من اقفاصه ، ولقحوه بدم جديد . البسوه حللاً طريفة دون ان يطمسوا ملامحه او يخفوا العروق الاصلية التي تمتاز بها كل امة من غيرها . فكانت له الملاحة الاندلسية دون ان ينزلوا به الى الميوعة التي ابتلاه بها بعض شعراء الاندلس .

ابن الفارض

وتمرّ قرون ينقطع فيها صدى الموسيقى العربية الضخمة ، ويركض الشعر ركضاً نحو السهولة ، فتسمع الاقطار العربية صوتَ شاعر رخيماً ناعماً .

كان شعر ابن الفارض نموذجاً للشعر السهل المتماسك ، يرينا ان للسهولة حدّاً يجب ان لا تتعداه . والشاعر ، في هذا النحو من الشعر ، طائر لم تألفه دوحة الشعر العربي ، وان لم يكن غريباً عنها . يحكى عن هذا الشاعر « الرّباني » انه بلغ في تصوّفه ذروة « الوجد » . ويروون عنه احاديث غيبوبات لا محلّ لذكرها في كتابي . ولكن الذي أستشفّه من شعره السهل الرصين يحملني على تصديق جميع تلك الروايات . فأيّ « وجد » يجده القلب البشري في شعر الشعراء اكثر مما يجد في ديوان شرف الدين ، العارف بالله ، ابن الفارض :

غيري على السلوان قادر ... وسواي في العشاق غادر
لي في الغرام سريرة ... والله اعلم بالسرائر
يا ليل ما لك آخر ... يرجى ولا للشوق آخر
لي فيك أجر مجاهد ... ان صح ان الليل كافر

زدني بفرط الحب فيك تحيّرا ... وارحم حشا بلظى هواك تسعّرا
واذا سألتك ان اراك حقيقة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

ته دلالاً فأنت اهل لذاكا وتحكّم فالحسن قد اعطاكا
ولك الامر فاقضِ ما انت قاضٍ فعليّ الجمال قد ولاّكا
وتلافي ان كان فيه ائتلافي بك عجّل به جُعلت فداكا

قلبي يحدثني بأنك متلفي روحي فداك عرفت ام لم تعرف
ان لم يكن وصل لديك فعد به املي وماطل ان وعدت ولا تفِ
يا ما اميلح كل ما يرضى به ورضابه يا ما احيلاه بفي
ان زار يوماً يا حشاي تقطّعي كلفاً به ، او سار يا عين اذرفي
ما للنوى ذنب ومن اهوى معي ان غاب عن انسان عيني فهو في

ما بين معترك الاحداق والمهج انا القتيل بلا اثم ولا حرج
اعوام اقباله كاليوم في قصر ويوم اعراضه في الطول كالحجج
قل للذي لامني فيه وعنّفني دعني وشأني ، وعد عن نصحك السمج
تراه ان غاب عني كلّ جارحة في كل معنى لطيف رائق بهج
لم ادرِ ما غربة الاوطان وهو معي وخاطري اين كنا غير منزعج

هو الحب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل فما اختاره مضنى به وله عقل
وعش خالياً فالحب راحته عنا واوله سقم وآخره قتل
اذا أنعمت نعم عليّ بنظرة فلا اسعدت سعدى ولا اجملت جمل

ارأيت ان « نعم » ذات حظ سعيد عند كل الشعراء ؟ فهي حتى عند ابن الفارض ، اكبر حظاً من سعدى وجمل . لقد قدمتها الصناعة التي عيب بها شعر الشيخ ، ولكنها صناعة قلّما يحس بها القارىء ، لأنّ جراح الشاعر سخنة ، والجرح لا يشعر بألمه الا متى برد .

حقاً ان ابن الفارض شاعر الوجد ، وسواء عندي ألهيّاً كان ام انسانيّاً . . . فهو وجد لا نظير له في كل حال ، والاعمال بالنيات . لمت هذا الشاعر وهو حمويّ الأصل ، مصريّ الدار ، وعجبت منه ، وهو الشاعر الحادّ الشعور ، كيف لا يحنّ الى « العاصي » ولا يذكر النيل ، فيقول :

اروراح نعمان هلاّ نسمة سحرا   وماء وجرة هلاّ نهلة بفمي

ان الجمرة لا تحرق الا حيث تقع ، وقد تكون أرواح نعمان وماء وجرة ، في عرفهم ، كمدامة هذا الشاعر التي شربها على ذكر الحبيب ، فسكر بها من قبل ان يخلق الكرم .

القليل من الصوفية يستملح ويستحلى في الشعر لأن المبادية الصاخبة كمادية الشعر الجاهلي تجفّفه ، ولكنه يستهجن ايضاً متى صار صوفيّاً كله وبلغ الحد الذي بلغه مع هؤلاء الشعراء فيقول ابن عربي مثلاً :

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة   فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف   والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أين توجهت   ركائبه فالحبّ ديني وايماني

ومع ذلك ارانا نستسيغ هذا الشعر ونقبله متى سمعنا قول شيخنا العارف بالله ، قدّس الله سره :

ولاغرو ان صلّى الامام اليّ ان   ثوت في فؤادي وهي قبلة قبلتي
وكلّ الجهات الست نحوي توجهت   بما تمّ من نسك وحجّ وعمرة
لها صلواتي بالمقام أقيمها   وأشهد فيها أنها لي صلّت
كلانا مصلٍّ واحد ساجد الى   حقيقته بالجمع في كل سجدة
وبي موقفي لا بل اليّ توجهي   كذاك صلاتي لي ومنّي كعبتي

ان هذه « الشطحات » تُبكي وتُضحك ، واليك قول احد شعرائهم ، فاسمع كيف يعتذر عنها :

انا الحق في عشقي كما ان سيّدي هو الحق في حسن بغير معيّة
فان كنت في سكري « شطحت » فانني حكمت بتمزيق الفؤاد المفتّت
سقوني وقالوا لا تغنّ ، ولو سقوا جبال حنين ما سقوني لغنّت

وعلى ذكر هذا العشق العنيف نروي بيتين موجّهين الى هذه « الجماعة » :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهمُ وأهْوِنْ بالحـلول
أقـال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

رحم الله شيخنا فقد كان رجلاً صالحاً . ان الحب ، على جميع انواعه ، مستبد جائر ، وقد ادرك هو ذلك فوصفه ادق وصف ، ولكنه وان اعمى واصمى ، فهو ، وحده ، يخلق مثل هذا الشعر ، اما الآن فلننتقل الى ساحة شاعر آخر ، أحب مثلما نحب ، ولم يحدثنا احاديث غريبة لا يفهمها الا الراسخون في العلم . . .

بهاء الدين زهير

الشعراء كالطيور . منها الكناري والحسّون . ومنها الغراب ومنها الحجل والحمام . لم يستطع الفرزدق ان يكون كجرير ، ولا ابو تمام كالبحتري . في الاستطاعة التكيّف والتجويد ، وليس في الامكان خلق شيء من لا شيء ، فهذان شاعران معاصران جريا في ميدان واحد ، ميدان الحب والغزل ، الاول وهو ابن الفارض تغنى بوجده العنيف بصوت رخيم وسهولة عظيمة ، ولكنه في كل حال يختلف اختلافاً كبيراً عن بهاء الدين زهير الذي جاء شعره كأنه الكلام الجاري ، لولا الوزن والقافية . ومع ذلك فقد فتن الناس بهذا الشعر الخفيف ، ولا عجب ، فليس للفن عيارات ثقيلة او خفيفة

تقرأ ديوان زهير من الجلد الى الجلد ، فلا تلتقي وجهاً غريباً تنكر معرفته من وجوه اللفظ . يجري الشاعر في نظمه كله على نمط واحد ، ولا تملّ حديثه لأنه حديث كل قلب ، ولأنّ قائله خفيف الروح ظريف ، لا يكلّف نفسه فوق طاقتها . وقد أدرك انه الطائر الفريد في جنان الشعر العربي فقال يخاطب مولاه الملك الصالح ، نجم الدين ايوب :

هذا زهيرك ، لا زهير مزينة   وافاك لا هرماً على علاّته
دعه وحوليّاته ثم استمع   لزهير عصرك حسن ليليّاته

واذا تحدث متوسلاً الى الحبيب فبهذه اللهجة الحلوة العذبة :

تعيش انت وتبقى   أنا الذي متّ حقا
حاشاك يا نور عيني   تلقى الذي انا القى
قد كان ما كان مني   والله خير وأبقى
ولم اجد بين موتي   وبين هجرك فرقا
يا أنعم الناس قلْ لي   الى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثاً   يا ربِّ لا كان صدقا
حاشاك تنقض عهدي   وعروتي فيك وثقى
فما عهدتك الا   من أكرم الناس خلقا
يا الف مولاي ، مهلاً   يا الف مولاي ، رفقا
لك الحياة فاني   أموت لا شك عشقا
لم يبق مني الا   بقية ليس تبقى

واذا كتب اليه لائماً على الهجر فبهذه الرقة والافتتان :

اقرأ سلامي على من لا اسمّيهِ   ومن بروحي من الاسواء أفديهِ
ومن اعرّض عنه حين أذكرهُ   وان ذكرت سواه كنت اعنيه
أشر بذكريَ في ضمن الحديث له   ان الاشارة في معناي تكفيه
واسألْهُ ان كان يرضيه ضنى جسدي   فحبذا كلّ شيء كان يرضيه
هل كنت من قوم موسى في محبته   حتى أطال عذابي منه بالتيه
من مثل قلبي او من مثل ساكنه   الله يحفظ قلبي والذي فيه

واذا مال هذا الحبيب عن خياله ، ارسل اليه البهاء يعنّفه ، ولكن تعنيف البهاء كما يقول مثلنا : ضرب الحبيب زبيب وحجارته رمّان .
فانظر الى هذه الحجارة :

نراكم قد بدا منكم   أمور ما عهدناها
وعرّضتم بأقوالٍ   وما نجهل معناها

كشفتم بيننا اشياء قد كنا سترناها
وكم جاءت لنا عنكم احاديث رددناها
واشياء رأيناها وقلنا ما رأيناها
قرأنا سورة السلوان عنكم بل حفظناها
وما زلتم بنا حتى جسرنا وفعلناها
فرجل تطلب المسعى اليكم قد منعناها
وعين تتمنّى أن تراكم قد غضضناها
ونفس كلما اشتاقت للقياكم زجرناها
وكانت بيننا طاق فها نحن سددناها
ولو انكم جنّات عدنٍ ما دخلناها
واما الحالة الأخرى فانّا قد ساوناها
وقد ماتت وصلّينا عليها ودفناها
هجرنا ذكرها حتى كأنّا ما عرفناها
وفي النفس بقايا من أحاديث خبأناها
فلو ارضتكم الارواح منا لبذلناها

وله في هذا الصدد كلام يستحق الذكر لسهولته وخفته وسرعة جريه ، قال :

اما تقرر انّا فلِمْ تأخرتَ عنا
وقد اتيناك زحفا وانت تهرب منا
ولم يكن لك عذر ولو يكون علمنا
فلا تلمنا فانّا قلنا وقلنا وقلنا

واخيراً يخطو شاعرنا الخطوة الاولى نحو الصلح ، فيستسفر الى الحبيب من يحمل اليه هذه العروض الاخيرة :

من اليوم تعارفنا … ونطوي ما جرى منّا
ولا كان ولا صار … ولا قلتم ولا قلنا
وان كان ولا بد … من العتب فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم … كما قيل لكم عنا
كفى ما كان من هجر … وقد ذقتم وقد ذقنا
وما احسن ان نرجع … للوصل كما كنا

وكأن هذه الخطوة نحو السلام الزهيري قد كللت بالنجاح فسمعنا البهاء يتغنى :

سمع الناس وقلنا … وافتضحنا واسترحنا
شكر الله لمن بشّر … بالوصل وهنّا
لي حبيب لي منه … كل شيء أتمنى
كان غضباناً فلما … ان تلاقينا اصطلحنا
يتجنى ولعمري … حقه أن يتجنى
جمع الحسن وفيه … غير ذاك الحسن معنى
هاتِ حدثني وقل لي … ما على العاذل منا
نحن لا نسأل عنه … ما له يسأل عنا

ثم عادت حليمة الى عادتها القديمة فعاد الشاعر الى بث شكواه ، مطارداً ذلك الغزال كأنه يطلبه بدين :

قد طال في الوعد الامد … والحر ينجز ما وعد
ووعدتني يوم الخميس … فلا الخميس ولا الاحد
واذا اقتضيتك لم تزدْ … عن قول اي والله غد
فأعدّ اياماً تمرّ … وقد ضجرت من العدد
وتقول أوصيت الخطيب … فهل نفوهُ من البلد

واذا اتكلت على الخطيب فما اتكلت على احد

ولا يخلو شعر الوزير من الصنعة ، ولكنه نمش لا يضير ذلك الوجه الجميل كقوله :

اقول اذا ابصرته مقبلاً معتدل القامة والشكل
يا الفاً من قدّه أقبلت بالله كوني الف الوصل

وكقوله هاجياً :

لعن الله « صاعداً » وأبـاه فصاعـدا
وبنيـه فنـازلاً واحـداً ثم واحدا

والبهاء كان ككل عاشق مبتلى بالثقلاء الذين لا يعرفون متى ينصرفون ، فاسمعه يئن منهم :

لي مجلس ما رمت فيه خلوة الا اتاح الله كل ثقيل

وخير ما نخص بالذكر في هذا المقام قوله ايضاً :

كلما قلنـا استرحنـا جاءنا الشيخ الامـام
فاعـترانا كلنـا منه انقبـاض واحتشام
فهو في المجلس فدم ولنـا فهـو فدام
وعلى الجملة فالشيخ ثقيـل والسـلام

وأخيراً يلتقي الشاعران الروحاني والجسداني — ابن الفارض والبهاء — وكل منهما يدّعي عقد لواء الحب له . قال ابن الفارض :

نسخت بحبّي آية العشق من قبلي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
وكل فـتى يهوى فاني امـامه واني بريء من فتىً سامع العذل

ويقول ايضاً :

وملك معالي العشق ملـكي وجنديَ المعاني وكلّ العاشقين رعيّـتي

اما الوزير فلا يخطر بباله ان يصوّر لنا زعامته بتعابير العلماء بل بلغة

الدول ، ولا عجب في هذا ، فهو وزير ملك قال :

رفعَتْ رايتي على العشاق　　واقتدى بي جميع تلك الرفاق
وتنحّى اهل الهوى عن طريقي　　وانثنى عزم من يروم لحاقي
سرت في الحبّ سيرة لم يسرها　　عاشق في الورى على الاطلاق
ودعاتي تجول في كل ارضٍ　　وطبولي يضربنَ في الآفاق
مثل العاشقون فوق بساطي　　في مقام الهوى وتحت رواقي
ضربتْ سكّة المحبة باسمي　　ودعت لي منابر العشّاق
كان للقوم في الزجاجة باقٍ　　انا وحدي شربت ذاك الباقي
شنّف السامعين درّ كلامي　　وتحلّت اجيادهم اطواقي

فما قول صديقنا الشاعر بشاره عبد الله الخوري ، أيعترف بالامامة للبهاء ؟ البهاء يقول انه لم يدع للقوم شيئاً ، ووحده شرب ذاك الباقي في الزجاجة ، وبشاره يقول انّه أفرغ كأسه وحطّمها على شفتيه — انكسر الشرّ — فلمن نحكم ؟ حقاً ان لبنان علم يتمائل امامي اين اتجهت ، ففيه كل مطلب . ولكن ، ليس هنا مجال هذا البحث فنطيل الكلام .

وبعد ، فيلوح الشيب في رأس زهير ، فيقول :

نزل المشيب وانّه　　في مفرقي لأعزّ نازل
وبكيت اذ رحل الشباب　　فآه آه عليه راحل
بالله قل لي يا فلان　　ولي أقول ولي اسائل
أتريد في السبعين ما　　قد كنت في العشرين فاعل
هيهات لا والله ما　　هذا الحديث حديث عاقل
قد صار من دون الذي　　تبديهِ من مزحٍ مراجل

ثم رأى ان المراح والأخيل تراجعه فقال :

قالوا كبرت عن الصبا　　وقطعت تلك الناحيه

فدع الصبا لرجاله واخلع ثياب العاريه
ونعم كبرت وانما تلك الشمائل باقيه
ويفوح من عطفيّ انفاس الشباب كما هيه
ويميل بي نحو الصبا قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديم بقية في الزاويه

قلت : ما أشبه شاعرنا بذاك المنادي على بضاعته : ترمس أحلى من اللوز . . .

وقد مدح شاعرنا ، ولا بدع في ذلك ، فهو شاعر ملك . ورثى ايضاً وأجاد الرثاء وله فيه قصيدة لم يوفّق الى مثلها في قوة العاطفة الا التهاميّ في رثاء ابنه ومطلعها :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار

اما البهاء فاليك بعض ما قال في هذا المرثيّ ، ولا تعجب فالبهاء هو هو في كل اغراض شعره ، تظهر شخصيته بارزة ناتئة :

أراك هجرتني هجراً طويلاً وما عوّدتني من قبل ذاكا
يعزّ عليّ حين أدير عيني افتّش في مكانك لا أراكا
ويا خجلي اذا قالوا محبٌ ولم أنفعك في خطبٍ أتاكا
تموت وما أموت عليك حزناً وحق هواك خنتك في هواكا
فيا من قد نوى سفراً بعيداً متى قل لي رجوعك من نواكا
فيا قبر الحبيب وددت أني حملت ولو على عيني ثراكا

ان ديوان البهاء ، على صغره ، جامع بجميع اغراض الشعر حتى وصف الخمرة . اما اختصاصه ففي الناحية التي ذكرناها . فهو شاعر الحب في هذه الحقبة الجافة ، وقد ملأ صوته الرخيم هذه الصحراء القاحلة من التاريخ الأدبي فأنعشها وآنسها .

فشاعرنا ، بخلاف ابن الفارض والمتنبي وغيرهما من الشعراء النازحين ، قد ابتلي بداء « الحنين الى الوطن » وقال فيه ، واليك شيئاً من ذلك :

أحنّ الى عهد المحصّب من منى ... وعيش به كانت ترفّ ظلاله
ويا حبذا أمواهه ونسيمه ... ويا حبذا حصباؤه ورماله
فكم ليَ بين المروتين لبانة ... وبدر تمام قد حوته حجاله
وأذكر أيام الحجاز وانثني ... كأنّي صريع يعتريه خباله
ويا صاحبي بالخيف كن لي مسعداً ... اذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادي كذا عن يمينه ... بحيث القنا يهتز فيّ طواله
هناك ترى بيتاً لزينب مشرقاً ... اذا جئت لا يخفى عليك جلاله
فقل ناشداً بيتاً ومن ذاق مثله ... لدى جيرة لم يدر كيف احتياله
وكن هكذا حتى تصادف فرصة ... تصيب بها ما رمته وتناله
فعرّض بذكري حيث تسمع زينب ... وقل ليس يخلو ساعة منك باله
عساها اذا ما مرّ ذكري بسمعها ... تقول فلانٌ عندكم كيف حاله

انك عندنا في احسن حال ، ولا نعدل بك الكثيرين من الشعراء . حسبك انك وجدت ذاتك ، ولم تنسحب على ذيل غيرك . فطب نفساً وقرّ عيناً .

رؤوس صغيرة

في عالم الأدب كما في كلّ العوالم حظوظ وبخوت ، فبعض الشعراء خُلّدوا بقصيدة كما خُلّد غيرهم بديوان ، اما وللموت سنّته ايضاً في عالم الأدب ، فمنهم من يحيا اجيالاً بعد موته ، ومنهم من يموت « أديباً » ساعة تنطفىء حياته . ومنهم من يموت وهو حي ، كما قال برنارد شو في زميل له : كتب خير ما عنده في الأربعين ، فليُكتبْ على قبره : مات في الأربعين وأجّل دفنه الى الثمانين . لقد صدق شو ، فالذين يؤجل دفنهم كثيرون . . .

اما الذين عُرفوا بقصيدة تدور ابياتها على أغلب الألسن ، او يذكرها الناس ، فالطغرائيّ عاش بلاميته المعروفة بلامية العجم ، كما عاش الشنفرى باللامية المعزوّة اليه ويعرفها الناس بلامية العرب . والسموأل اشتهر بلاميته ، كما عرف ابن النبيه وابن سناء الملك بالناس للموت كخيل الطراد ، وبسواي يهاب الموت او يرهب الردى . وطار صيت : علوٌ في الحياة وفي الممات ، حتى كدنا ننسى اسم صاحبها ، وكذلك قصيدة لا تعذليه ، كما اشتهر البوصيري ببردته الرائعة ، وابو البقاء الرندي بلكل شيء اذا ما تمّ نقصان ، والتهاميّ بحكم المنية في البرية جار . وكما بقي ذكر ابن الورديّ بلاميته الشهيرة : اعتزل ذكر الغواني والغزل . وهناك قصيدة : هل في الطلول لسائل ردّ ، التي لا يُعرف لها حسب ولا نسب

حتى صحّ فيها قول الشاعر :

ماتوا وعاشت بعدهم فلذاك سمّيت « اليتيمه »

لقد ارتفعت اصوات من خلال العصور ، بعد البهاء زهير ، ولكنها اصوات محاكاة اكثر منها اصوات ابداع . لم يكن كلامهم غير تقليد للذين تقدّموهم . استوحوا القدماء لا الحياة والمحيط ، فقضي على اقوالهم بالفناء كما يقضي القيظ على النبات الضعيف الاصول ، ولا يدع الا ذا الجذور المنسدّة الى الاعماق والفروع المتسامية الى الأعالي .

اسمع ما يقول احد هؤلاء الشعراء – ابن زيلاق – واصفاً الربيع ، وقابله ، اذا شئت ، بقول ابي تمّام وان كان قليلًا :

قم لا عدمتك فالرياح تغربل والرعد يطحن والغمائم تنخل
والمسك قد عجن الثرى بسحيقه والعود يحرق ، والحميّا تشعل
والدنّ تنّور توقّد جمره الصهباء باطنه ، وفار المنزل

ألا تقول مثلي ، بعد سماع هذه الأبيات من قصيدته الطويلة ، ان الشاعر ابن خبّاز ؟

ان خير ما سمعنا من الاصوات ، في هذه الحقبة ، صوتان ارتفعا في آن واحد . اولهما في العراق ، وهو صوت صفي الدين الحلّي ، الشاعر الذي استعبدته الصناعة اللفظية حتى اجتمعت في شعره جميع معايبها . كان صفي الدين كالطفيليّات يعيش على جذوع الاقدمين ، فخمّس وضمّن ، ثم حاول اجتراح العجائب في الشعر – كما كان يظنّ – فراح ينظم لسلطانه الذي فزع اليه من ظلم المغول قصائد سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وهي تسع وعشرون قصيدة ، على كل حرف من حروف المعجم . يبدأ بالحرف البيت ويختمه . واليك نموذجاً منها :

مغانم صفو العيش اسمى المغانم هي الظل الا انه غير دائم

ملكت زمام العيش فيها وطالما «رفعت» بها لولا وقوع «الجوازم»

ارأيت كيف يبدأ بالميم التي هي قافية قصيدة، ثم ارأيت «الرفع والجزم»؟ ان صفي الدين الحلّي لم يدع جريمة ادبية في النظم الا ارتكبها، قال القصائد طويلة وقصيرة، والموشحات والازجال، وكما نظم ابن مالك النحو والصرف نظم الحلّي «بديعية» مطلعها:

ان جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم واقرا السلام على عرب بذي سلم

وكما اتبع ابنَ مالك ابنُه، واخيراً الشيخ ناصيف اليازجي، كذلك اقتفى عز الدين الموصلي، وابن حجة الحموي، وعائشة الباعونية، وعبد الغني النابلسي، آثار الحلّي في نظم البديعيات، واذ كان لا بد للبنان من ان يجاري في كل شوط فقد سمعنا في القرن الثامن عشر صوت الخوري نيقولاوس الصائغ يرتفع ببديعيته متعمداً ذكر النوع، كما فعل ابن حجة الحموي، ويغنّي – على ليلاه – كما غنّى البديعيون قبله فيقول:

بديع حسن امتداحي رسل ربّهم براعة في افتتاحي حمد برّهم

وبعد قرن يقوم شاعر آخر لبناني هو الخوري ارسانيوس الفاخوري فينظم ثلاث بديعيات لا واحدة. واليك مطلع احداهن:

براعة المدح في نجم ضياه سمي تهدي بمطلعها مَن عن سناه عمي

وهكذا لا نرى للحلّي شيئاً جديداً – ان كان هذا شيئاً – الا سبقه الى نظم فنون البديع في قصيدة، ولكن بديعيته لم تصب من السيرورة ما أصابته «بديعية» الحموي فركدت ريحها.

اما شعر الحلّي فجارٍ حين يتبع سجيته، ولكنه لا يخرج ابداً من دائرة التقليد، فهو يعارض قصيدة المتنبي ليقول من الجناس:

اسبلن من فوق النهود «ذوائبا» فتركن حبات القلوب «ذوائبا»

بيض دعاهن الغبيّ كواعبا ولو استبان الرشد قال كواكبا

ثم شاء ان يكون له شعر مثل شعر البهاء زهير فقال ناحياً نحوه :

ان غبت عن عياني يا غاية الاماني
فالفكر في ضميري والذكر في لساني
ما حال عنك عهدي ولا انثنى لساني
شوقي اليك باقٍ والصبر عنك فاني

وشاء ايضاً ان « يتمنتر » فقال قصيدة معارضاً بها قصيدة « حكّم سيوفك » ، ومدّ يده فيها الى نجم الشعر العربي فأخذ قوله :

تماشى بأيدٍ كلّما وافت الصفا نقشن به صدر البزاة حوافيا

فقال وقصّر تقصيراً شائناً :

فتظل ترقم في الصخور أهلّةً بسنا حوافرها وان لم تنعلِ

اما الباقي على الألسن من شعر هذا الفاضل فقصيدته النونية المشهورة :

سلي الرماح العوالي عن معالينا واستشهدي البيض هل خاب الرجا فينا

اما الصوت الثاني فهو صوت تعالى في الشام ومصر ، هو صوت الشاعر ابن نباتة ، معاصر الحلّي وصديقه الحميم . وكانت الحال في مصر ، حيث نشأ ، مثلها في العراق ، حال مخاوف واضطرابات ودسائس واستبداد . ان ابن نباتة ضريب الحلّي في شعره ، وهو مثله يستوحي الكتب لا الحياة .

وكما ارتحل الحلّي ، كذلك هاجر ابن نباتة ، فجاء سوريا ثم عاد الى مصر . ولكن رحلات كلا الشاعرين عقيمة ، لم تتأثر بالمحيط . فظلت تتسكّع في ظلال دواوين القدماء فلم تورق بخير لنرجو الثمار الشهية . ولكن هناك أثماراً ، في كل حال ، أثماراً أشبه ما تكون بالتي تستقبلها الأسواق في سني المحل .

وفي اثناء مروري في ديوان ابن نباتة سمعت انيناً متصلاً ، وشكوى مرة ، فهو يندب حظه دائماً ، ويشكو جهل الناس قدره . فقير مسكين يطلب

حيناً بيتاً يسكنه حتى بلغ به نكد العيش ان طلب الخبز . ان أحوال ابن نباتة تشبه كثيراً حالات ابن الرومي وخصوصاً في موت بنيه . أما شعر ابن نباتة فكشعر صفي الدين ، يتلهى بالألفاظ ملتمساً الغذاء الفني عندها . واذا عجز عن معنى يخلقه من لفظة مهّد بشيء من عنده لشطر او بيت من شعر القدماء أرضى به نفسه وسامعه . ومن أمثلة تضمينه قوله :

يا تاليَ القول كتباً في لواحظه　　السيف أصدق انباء من الكتب

ومن امثلة تضمينه ايضاً ما كتبه لشاعرٍ صديقٍ أرويه للتفكهة :

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً　　أفاطم مهلاً بعد هذا التدلل
بروحي ألفاظ تعرّض عتبها　　تعرّض أثناء الوشاح المفصّل
فأحيين ودّاً كان كالرسم عافياً　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تعفّي رياح العذر منك رقومه　　لما نسجتها من جنوب وشمأل
نعم قوّضت منك المودة وانقضت　　فيا عجباً من رحلها المتحمل
أمولاي لا تسلك من الظلم والجفا　　بنا بطن خبت ذي قفاف عقنقل
ولا تنس مني صحبة تصدع الدجى　　بصبحٍ وما الاصباح منها بأمثل
فكم خدمة عجلتها ومحبة　　تمتّعت من لهوٍ بها غير معجل
وكم اسطر مني ومنك كأنها　　عذارى دوار في ملاء مذيّل
وكم ناصح كذبت دعواه اذ غدت　　عليّ وآلت حلفة لم تحلل
الى ان تبدّى عذره متمطياً　　وأردف اعجازاً وناء بكلكل
وضنّ بأسطار كأنّ يراعها　　أساريع ظبي او مساويك اسحل
ويقرع سمعي من معاريض لفظه　　مداك عروس او صلاية حنظل
وعدنا لودٍ يملأ القلب عوده　　بشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتّل
أعدت صلاح الدين عهد مودة　　بكل مغار الفتل شدّت بيذبل

فأجابه صديقه صلاح الدين هذا ، وهو ابو الصفاء خليل بن ايبك الصفديّ ، الكاتب المؤرخ الشاعر :

أفي كل يوم منـــك عتب يسوؤني — كجلمود صخر حطّه السيل من علِ
وترمي على طول المدى متجنيـاً — بسهميك في اعشار قلب مقتّـل
فأمسي بليل طال جنح ظلامـه — عليّ بأنواع الهموم ليبتـلي
وأغدو كأنّ القلب من وقدة الجوى — اذا جاش فيه حميه غلي مرجـل
تطـير شظاياه بصدري كأنهـا — بأرجائه القصوى أنابيش عنصـل
اذا عاين الاخوان ما بي من الأسى — يقولون لا تهلك أسى وتجمّل
ترفّق ولا تجزع على فائت الوفـا — فما عند رسم دارس من معوّل
ولي فيك ودّ طالما قد شددته — بأمراس كتّان الى صم جندل
ولي خطرات فيك منها جوانحي — صبحن سلافاً من رحيق مفلفل
فكرّ على جيش الجناية عائـداً — بمنجرد قيـد الأوابد هيكل
وخلّ الجفا وارجع الى معهد الوفا — وان كنت قد أزمعت صرمي فأجمل
حلا ودّك الماضي وان لم تعد أعد — لدى سمرات الحيّ ناقف حنظل

قد سردنا لك المنظومتين لنريك ان الجماعة كانوا يتلهون بالشعر ويتسلون به عن الملوك الذين ذهب ذهبهم مع دولهم . وسيطغى بعد هذا سيـل تمادح الشعراء حتى يمسي طوفاناً يلقي بصحراء العبيط بعاعه ... اما الآن فلندع هذا عائدين الى ابن نباتة فنريك ولو قليلا جداً من امثلة تعليله وتوريته ، قال :

تجاسر عود اللهو يشبه صوتها — فمن اجل هذا اصبح العود يضرب
وكنت اخا سعدى فأصبحت عمها — فيهات لي جدّ بتقبيل خالهـا
عذلوه على النوال « فـأغروا » — « فنداه » نصب على « الاغراء »

ان استلهام العلوم اللسانية بدأ مع المعري . اكثر ابو العلاء من

استخدامه حتى كاد يستعبده الذين جاؤوا بعده كما ترى .

وكما اشتهرت نونية الحلّي كذلك طار صيت ميمية ابن نباتة لأجل هذا البيت :

هناءٌ محا ذاك العزاء المقدّما   فما عبس المحزون حتى تبسّما

واذا سألتني أيهما أسبق ، أصفيّ الدين الحلّي أم ابن نباتة ، قلت لك كلاهما مقصّر ، ولكن الحلّي يسبق صاحبه بضع خطوات . . .

وبعد هذين الشاعرين تظهر في عالم النظم امرأة هي عائشة الباعونية ، ولكنها لا تمتّ بنسب الى شاعرات العرب ، ولولا « بديعيّتها » ما كانت تستحق الذكر .

ثم ظهر بعدها شاعر هو ابن معتوق ففاقها قليلاً وقصر عمن تقدموه كثيراً ، وهكذا خلا غاب الأدب العربي من أسده .

يقظة

وحي الجبل

لم يخلُ العالم العربي من « النظم » وان خلا من الشعر . فالنظامون كانوا في كل عصر اكثر من الهمّ على القلب . فالشعر عندنا كالجبن والزيتون للسفرة . تعوّدنا ان نهيّء الشاعر قبل الوليمة ، فهو من حوائج كل حفلة . فلا بد للزواج من عقد شعري يهدى الى العروسين ، ولا بد للمولود من اقمطة شعرية . وحقّ كل ميت ان يكفّن بالشعر ، ثم يختم قبره – بعدئذ – ببلاطة التاريخ الشعريّ . . . كانت للشعر سوق رائجة ، ولما انسدت الأبواب بوجه الشعراء حوّلوا وجوههم صوب انفسهم فمدح بعضهم بعضاً .

واذا قلنا نام الشعر نومة اهل الكهف ، مئات من السنين ، فلا نعني انه لم يكن هناك من يحسنون توقيع الكلام على مفاعلتن مفاعلتن فعولن ، فقد سمعت هذه الدندنة او الشقشقة – سمّها كما تشاء – حتى في القسطنطينية ، حول عرش سلاطين بني عثمان الذين لم يعرفوا من لغة الضاد غير حروفها .

لقد نام الشعر نوماً عميقاً قروناً ، وما تمطّى وتثاءب الا في أُخريات القرن الثامن عشر ، حين تنبه العرب واستيقظوا على صراع اوروبا حول ابوابهم في مصر ، وعند اسوار عكا . انفتحت ابواب المسألة الشرقية فانبثثنا في اربعة اقطار المسكونة حاملين معنا قيثارتنا وآدابنا .

فهذا الغريب الذي جاء مصر فاتحاً لم يكن يجهله لبنان ، بل عرف

بلاده ، وعرف لسانه حين كان يأخذ منه ويعطيه . تعلّمنا لغته وعلّمناه لغة الضاد . و « كراسينا » الجامعيّة في عواصم الدنيا لا يجهلها التاريخ لأنها ما زالت وطيدة القوائم . أجل كان اللبناني رسول ثقافة بين الشرق والغرب فانشأ في سفوح جبله وعلى قممه مدارس تعلّم لغات الغرب على حقهـــا ، قبل ان صاح الديك الفرنسي فقلبت ثورته وجه المعمورة . وكان الذين تعلموا في تلك المدارس تراجمة الاجنبي حين جاء مصر غازياً ، ثم انكفأ عنها بعدما القى فيها بذور علمه ومدنيته .

لا نعني بهذا ان لبنان هو الذي احيا الادب والشعر ، ولكننــا نزعم انه هو الذي حاول ايقاظه من رقدته ، وهو الذي طعّم الادب العربي ببراعم جديدة فاورقت واثمرت على ذاك الجذع القديم . ففي تلك الحقبة الخرساء كان للبنان امير ، وكان لهذا الامير بلاط فيه شعراؤه وادباؤه . وما انتعش الشعر على يد الترك وكرامة ، وناصيف اليازجي في لبنان ، حتى كان شاعر آخر يجوب الآفاق ، ويمدح الملوك واشباه الملوك مثل السلطان عبد المجيد ونابوليون وباي تونس ، فيستقدمه « الباي » على دارعة حربية . يظهر ان « بانت سعاد » كانت ميمونة الوجه في كل عصر فبوّأت احمد فارس الشدياق ، نسر لبنان ، أسمى اريكة ادبية . ان كرامة والشدياق واليازجي وغيرهم من اشباههم قد ايقظوا الشعر من غفوته . فقصر الامير بشير ، على ما في انشاء شعراء بلاطه من ركاكة وضعف وتبلّد خيال ، قد أيقظ الاقطـــار الأخرى . فهذه « الخـالّية » قصيدة شاعر القصر — بطرس كرامة — تفتّق قرائح شعراء العالم العربي ، فيعارضها الشاعر الشيخ عبد الباقي العمري الموصلي ، ويخمّسها الشيخ ابراهيم يحيى العاملي ، والشيخ موسى بن شريف المهدي ، وينتقدها الشيخ صالح التميمي نقداً عنيفاً ، رادّاً على ناظمها بقصيدة هذا مطلعها :

عهدناك تعفو عن مسيء تعذّرا   الا فاعفنا عن ردّ شعر تنصّرا
وهل من مسيحيّ فصيح نعدّه   اذا أينع الشعر الفصيح وازهرا

فيرتفع صوت من باريس هو صوت الكونت رشيد الدحداح منتقداً التميمي ، وينهض صاحب الخاليّة بطرس كرامة مدافعاً عن نفسه بقصيدة مطلعها :

لكلّ امرىء شأن تبارك من برا   وخصّ بما قد شاء كلّا من الورى
ولو شاء كان الناس امة واحد   ولم تلق يوماً بينهم قطّ منكرا
اذا انحط قدر الدرّ من اجل بائع   فذلك جهل باللآلي بلا امترا
كما عاب شعري قائل في قريضه   الا فاعفنا عن رد شعر تنصّرا
عجبت له مع أنه خير فاضل   فكيف تغاضى عن اخي الفضل وازدرى
نعم انني من امة عيسوية   واهل كتاب لن يشان ويحقرا
واقرب من كل الانام مودة   اليه كما قد جاءه الذكر مخبرا
لعمرك ما داعي الفصاحة ملة   ولا نسب حتى ألامَ وأهجرا
فقسٌ مسيحي والسموأل موسوي   وغيرهما ممن تقدم أعصرا

فانبرى للرد على الشيخ صالح التميمي شاعر عراقي هو السيد عبد الجليل البصري فقال معارضاً :

حكمت وحكمي الحق ناءٍ عن المرا   بان التميمي الاديب تعذّرا
بذم قوافٍ في تمام جناسها   وذلك نوع في « البديع » تقرّرا

ومما قال رادّاً على الكلمة المأثورة : أبتِ العربية ان تتنصرا :

وقد قام من اهل الكتابين زمرة   جنوا من رياض الشعر ما كان مزهرا
فمَن كابن عبّادٍ يجاري مهلهلا   وكان مسيحياً تقدم يشكرا
وكالاخطل المعروف شاعر تغلب   يسوق به القسيس في الدير كالفرا

ثم يثني على بطرس كرامة ثناء طيباً حتى يقول :

أنى منه نظم هدّ حجة « صالح »   وان كان في المنظوم قدماً تصدّرا
وقد كان لي من « صالح » خير صحبة   وعند اتباع الحق ما زلت اجدرا
لكلّ تراني قد قضيت بحقه   وأسال بارينا المدى والتبصّرا

كان في كل الاقطار شعراء ككرامة بل ارصن وأمتن منه كلاماً ، ولكنهم لم ينعموا بشهرته وصيته . وانقضى عهد الامير ولكن المجرى الادبي لم ينقطع ، فكانت نهضة عظيمة بالمدارس والصحافة والجمعيات الادبية والتآليف العلمية الضخمة التي صنفها المعلم بطرس البستاني . واستمر ناصيف ينسج على منوال القدماء ويتبع آثارهم خطوة خطوة ، فبلغ في التقليد مبلغاً يحسد عليه ، بينا كان خصمه الادبي يشن الغارة على التقليد في الفارياق ، وكشف المخبّا ، والجوائب ، ويكتب باسلوب جديد ، وهو وان لم يبلغ في شعره ما بلغه في نثره فقد انعش الشعر نقده العنيف ، اما المعلم بطرس البستاني فراح يبني صرح العلم حين فاته ان يبرّز في الادب فكان مع رهطه بناة النهضة الحديثة .

لا نزعم ان اللبناني كان ذاك « الفطحل » في اللغة ، اذا استثنينا الشدياق واليازجي الابن ، ولكن اللبناني كان دائماً وابداً رسول تجديد في الادب ، حتى أنه ليصح في تجديده قول ابن عربي عن نفسه : لقد صار قلبي قابلاً كل صورة . . . وخلف هذه العصابة عصابة قامت في مصر ، فبزتها في قول الشعر على نهج القدماء ، فاعاد البارودي وصبري شباب الشعر العباسي ، ومنها انبثق حافظ ابراهيم واحمد شوقي .

احمد شوقي

ان احمد شوقي هو الشاعر الذي يعنينا امره ، لانه خلاصة « الرؤوس » وخاتمة الشعر المدرسي – الكلاسيكي – . لا شك ان احمد شوقي رأس ، وفي هذا الرأس معانٍ من جميع الرؤوس التي تقدّم ذكرها . ففي شعره رقة البهاء زهير ، وحلاوة ابي نواس ، وفيه من ابي تمام تصيّده المعاني وأخذها عنوة اذا اقتضى الامر ، وفيه سلاسة بحترية ، وفيه حِكم متنبئية تهالك عليها شوقي ، طمعاً في سيرورة شعره ، كما يقول :

رواة قصائدي فاعجب لشعرٍ بكل محلة يرويهِ خلق

حوّل شوقي وجهه شطر التجديد في الشعر فلم يظفر بذلك ، فعاد اخيراً يعارض جميع « الرؤوس » التي مر ذكرها ، فكان له في كل عرس قرص . واذا رجعت الى ديوانه أدركت ، دون ان تنبّه ، آثار هذه المعارضة الصارخة .

عارض الجميع وكاد يجاريهم الا المتنبي ، فما حاول محاكاته الا قصر عنه ، ومع ذلك نسمعه يخاطب السلطان عبد الحميد بقوله :

ملكت امير المؤمنين ابن هانئ بفضل له الالباب ممتلكات
وما زلتُ حسّانَ المقام ولم تزل تليني وتسري منك لي النفحات
ومن كان مثلي أحمدَ الوقتِ لم تجزْ عليه ، ولو من مثلك ، الصدقات
ولي درر الاخلاق في المدح والهوى وللمتنّبي درّةٌ وحصاة

ان احمد شوقي الذي يقدّم نفسه على ابي الطيب قد كان يستوحي هذا الشاعر العظيم كلما نظم ، ويحاكيه حتى في الفخر الذي عابه الناس على المتنبي ، فقال للسلطان ايضاً :

واني طير النيل لا طيرَ غيره وما النيل الا من رياضك يحسب

كما قال لأميره :

ان عصراً مولاي فيه المربّى انـــا فيه القريض والشعراء

قلنا ان في احمد شوقي ملامح من جميع الرؤوس ولكن هذا لا يعني انه شاعر لا شخصية له ، انما نعني ان همه الاكبر كان في معارضتهم ، فيعارضهم وكأن لسان حاله يقول : ما قولكم ؟ اما فقتهم ؟ . . قد كوّن هذا التحدّي شاعراً هو شوقي ، فكان شأنه في هـذا شأن عنصر تولّد من عنصرين كيماويين فجاء منفصلاً عنهما وان نشأ منهما ، والدليل على هذا هو انك اذا عرضت على بصير بأساليب الكلام شعراً لشوقي فلا يتردد ان ينسبه اليه .

واذا صدّقنا ما قاله شوقي عن نفسه ان فيه اربعة اصول ، ولله در التطعيم ، قلنا : هذا شاعر أخير يضاف الى سلسلة المستعربين الذهبية .

اما العناصر التي عملت عملها في شاعرية شوقي فمنها : معرفته الفرنسية والتركية ، وسياحاته ، وتقلبات حياته ، وتطوراتها ، فلو بقي الشاعر عند اميره لما كان لنا شعره الذي يبقى . فهو في ظروف واحوال شتى يشبه المتنبي ، ويتشبه به ، ولكنه لم يدركه قط ، وان ادعى انه فاته .

ولا ننسَ الحوادث العظمى فقد كان لها أثر بيّن في شاعرية شوقي . فمن امير ينفى ، وشاعر يبعد الى الاندلس فيئنّ ويحنّ ويشكو . ويقابل الشاعر ، في الاندلس ، بين الفردوس المفقود ، وجنته الضائعة ، فيصف

ولكن النسّاك ، يا سيدي ، لا يحوزون مالا فيزكّوه ، وان تموّلوا فما هم بنسّاك . . . ونهر شوقي هادىء غير عجّاج حتى في أحرج أزمات الدفاع . فهذا اللورد كرومر يخطب شاتماً مصر والمصريين بضع ساعات يشرب في خلالها زهاء خمسة اباريق من الماء المثلوج ، فيردّ شوقي على أدقّ قضايا خطاب اللورد بقوله :

مـن سبّ دين محمـد فمحمـد متمكّن عنـد الاله رسولا

الا ترى مثلي ان احمد شوقي في هذا الموقف هو الانكليزي طبعـاً ، لا اللورد كرومر ؟ . .

اما ملخص شوقي الوجداني ، فهو عندي على هـذا الترتيب : تركي مصري مسلم شرقي ، وفي كل زاوية من هذه الزوايا الاربـع متسع مـن الوعي ينفسح ليدخله الآخرون عند الضرورة . . .

وشاء شوقي ان يكون كالشعراء العالميين الكبار ، فنظم المسرحيات والاساطير والخرافات كلافونتين وهيغو وراسين . اراد ان يكون له شعر في كل فن ومطلب فما ترك شيئاً فسار في جادّة قدماء الشرق والغرب ولم ينسَ احداً حتى الزمخشري .

لقد نظم شعراء كثيرون قبل شوقي مسرحيات ولكنه وفّق اكثر منهم . لم يوفق التوفيق كله لأن رواياته غنائية اكثر منها تمثيلية ، فهو ينظر الى الشعر قبل الفن التمثيلي فظهرت شخصيته في كل مسرحيـاته ، فكانت صوراً بيانية يتعمدهـا الشاعر ، وافـكاراً فلسفية اجتماعية يتعمد نظمها ولا يبالي بقائليها ، فلا يهمه ان صح ان تقـال بلسان هذا او بلسان غيره ، والمحادثة وخصوصاً المناجـاة تطول جداً ، فتسمع كقطع شعرية رائعة تزيّنها ديباجة بحترية اندلسية ذات الفـاظ منتقـاة لا تنـافر بينها ، ورنّة موسيقية تطرب لها ، فكأن الجيّد من شعر شوقي في هذه

الروايات ، موقّع ايقاعاً .

كأني بشوقي يؤلّف هذه المسرحيات وعبد الوهاب ملء خاطره ، كأنّه كان يتخيله ويتخيل غيره من بلابل النيل يغنونها فيسير مرخياً زمام قريحته ، ضارباً بشكيمة الفن عرض الحائط . ان لغة الشعر ، وخصوصاً العربي منه ، لا تصلح للتمثيل فكيف بها حين ينظمها شاعر كشوقي لا يعنيه الا الشعر ، ينظمه بلسان هذا وتلك فتبدو في وجوه رجال العصور الاولى سمات ناس القرن العشرين ، فيضطرب الفن لظهورهم في ذاك الشذوذ الخلقي . فلولا وثبات رائعة فاق بها شوقي شعراء جيله ودنا بها من كبار القدماء لما كان ذلك « الرأس » الذي نختم به المدرسة القديمة . ان خطّ الشعر القديم المصقول قد ختم بشوقي الذي اعاد عهد الديباجة البحترية ، فظلع وراءه رهط من اصحابنا « المؤجّل دفنهم » .

وبعد كل ما قلت فلست ازعم انني درست احمد شوقي درساً اشتهيه ، ولهذا سبب يعنيني اكثر مما يعني القارىء العزيز ، فليظن خيراً ولا يسأل عن الخبر .

اما الشعر الجديد ، ومنبعه هذا الجَبَل ، فجبران اول من شقّ الطريق اليه وعبّدها ، فهو زعيم المدرسة الرمزية الرومنطيقية ، وأتباعه منتشرون في كل قطر من الاقطار العربية حتى الحجازي واليمنيّ منها . لا جدال في انّ اتجاهات الذين تأثروا به قد اختلفت ، وتفاوتوا في الابداع ، ونهجوا في الشعر نهجاً جديداً لا نستطيع الآن تقدير مداه ومصيره .

والانصاف الادبي يقضي علينا ان نقرّ بما لخليل مطران من عمل بدائي في هذا التطور . كان مطران في عهد تقديس القديم حرّ التفكير ، عميق التحليل ، طريف التصوير ، كما كان محافظاً كصاحبيه — شوقي وحافظ — فحبس قريحته مثلهما في قلعة القافية وحصن العروض ، وقيّد نفسه باغلال

التعابير الموروثة . فكان رجلاً جديداً في ملابس قديمة . تطور تطوراً رصيناً لا طفرة فيه ولا جموح ، فوضع في بنية الشعر الحديث زاوية يذكر بها .

اما اسباب ذهاب الشعر العربي في بنيّات الطريق ، زهاء عشرين قرناً ، فأهمّها ما احدثك عنه خاتماً به هذا الكتاب ، ولعل فيه عبرة وعظة للناشئين .

الشعر بين الناقد والمعلم

لم يفتن الشعر امّة كما فتن العرب ، فكل ذي شفة ولسان قال شعراً حتى ابن خلدون فانه راود ربة الشعر عن نفسها ، فاستبقا البـــاب ولم يقدّ لها قميصاً . . .

خبّرنا مؤرخو الادب ان بيت الشيخ زهير كان محشوّا شعراء ، وان وُلْدَ العمّ جرير كلهم قالوا الشعر . كان هؤلاء قطيعاً يقارب المئة ، كما بشّرنا جرير بهذا النبأ العظيم حين قال لمعاوية بن هشام :

ماذا ترى في عيال قد برمت بهم   لم تحصِ عدّتهم الا بعدّاد
كانوا ثمانين او زادوا ثمانية   لولا رجاؤك قد قتّلت اولادي

كان في كل بيت من الشعْر « فبركة » شِعْر ، اللهم زد وبارك ! والسوق تبرد متى غمرتها البضاعة . ومثل هذا النظم الذي لم يعجز عنه ناطق بالضاد يفسد الادب والذرية .

عندي للشعراء الافذاذ برد وسلام لا صواعق من معدّات جرير ، فلولا الشاعر لماتت الآلهة . لولا عمر ما خطرت الثريا ببال ، ولولا المتنبي مـا دار ذكر ابي البيضاء على لسان . ولكن الشاعر العظيم ، كما يقول رينان الفيلسوف الفرنسي ، يكلّف الطبيعة من المواد الاولية ما لا تكلفه اعظم الحروب ، فلا بد من استهلاك ثلاثين او اربعين مليوناً من شعوبنا الكثيفة الجماجم ليكون لنا شاعر من الطراز الاول . هذا على قوله ، امـا انا

فذمّتي بريئة من هذه المعصرة او هذا المكبس .

كان لنا في ذلك الزمان شاعر من الوارد الريناني ، ويكون لنا ايضاً ، ان اتكلنا على الله ، فلا خوف اذن من انقراض هذا النسل الطاهر . ولكن ما الذي جمّد ادبنا وصيّره جليداً ، بل ما الذي ابقى في أنفه الخزامة ؟ — انه النقد العقيم .

لست اعنّف نقادنا القدماء جميعاً ، ففيهم المبدع والمصيب ، وفيهم التابع والجمّاع ، وخاتمة هؤلاء علاّمتنا الجليل ابن خلدون . لا ننكر ان لهذا المفكر العظيم اوليّة يقرّ له بها الشرق والغرب ، اما في نقد الشعر وصناعته فكان عبداً للقدماء ، يأخذ عنهم ولا يفكّر . كان للشعراء نافذة يأتيهم منها النور والهواء فسدّها عنهم هذا الفاضل ، وقتل الشعر صبراً . قال سامحه الله :

« كان شيوخنا ، رحمهم الله ، يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر الاندلس لكثرة معانيه ، وازدحامها في البيت الواحد ، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعرّي بعدم النسج على الاساليب العربية ، فكان شعرهما كلاماً منظوماً نازلاً عن طبقة الشعر . » (المقدمة ص ٥٧٥)

ان امامنا عبد الرحمن قاس الفن بالباع والذراع ، وتخيّله كالهنداز والقالب ، فحبس الشعراء في صيرة أحاطها بالقندول فقعدوا يجترّون قديمهم كالمعزى في القيلولة . لم يخرجوا الا مزاود وقرباً واجربة متكرّشة هريئة . ثم توغّل في مفاوز الارشاد الفنّي حتى جعل للنظم مواقيت كالصلوات ، ووصف للشعراء صفة Régime يأخذون بها في انفسهم ، كما يفعل اطباء اليوم للمصابين بالسكّر والزلال والضغط . . . وهو لولا يأتي على ذكر المآكل لحظر البصل لانه يعمي القلب ، واشار بالصعتر لانه يفتح الذهن . . . واليك رأيه في الزمان والمكان اللذين يهبط فيهما الوحي على الشعراء :

« ثم لا بد له — اي الشاعر — من الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار ، وكذا المسموع لاستثارة القريحة باستجماعها وتنشيطها بملاذ السرور . ثم مع هذا كله فشرطه ان يكون على جمام ونشاط ، فذلك اجمع له وانشط للقريحة ان تأتي بمثل ذلك المنوال الذي في حفظه . وخير الاوقات لذلك اوقات البكَر عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وفي هؤلاء الجمام . وربما قالوا ان من بواعثه — اي الشعر — العشق والانتشاء ، فان استصعب عليه ، بعد هذا كله فليتركه الى وقت آخر ، ولا يكره نفسه عليه . »

اذن فلا بد للشاعر ، عند ابن خلدون ، من طبل وزمر ، وخمر ونهر ، وبستان وعروس ، وعندي انّ من أوتي هذا كله يطلّق عروس الشعر ثلاثاً . . .

ولم يقف ابن خلدون عند ذاك الحد بل تعرّض لبنيان بيت الشعر فقال : « وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه بعضها ، ويبنى الكلام عليها الى آخره ، لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب عليه وضعها في محلها فربما تجيء نافرة قلقة . » (المقدمة ٥٧٤)

كأني بالاستاذ قد حسب الشاعر بنّاء والقافية زاوية ، فلا بد اذن من وضع الزاوية اولاً ليستقيم المدماك ، ويشدّ بعضه بعضاً .

كان النقد العربي في اوله ، يوم كان كلمات جامعة ، خيراً من آخره . كان موكلاً بالذوق حتى جاء المتأخرون بشرائعهم فصيّروا الشاعر عبداً لا ينفع . فالكلمات التي قالها الرواة والاعراب ، اجمع وانفع من كتب المتأخرين التي شدّت الزيار على الشاعر واقتادته بخناق . لم يقل الرواة والاعراب للشاعر انظم وقت كذا ، ولم يتعرضوا لفراغ المعدة وامتلائها ، اما اعلامنا المتأخرون كابن رشيق وابن خلدون فامتد سلطانهم

حتى علّموه كيف يمدح ، وكيف يهجو ، وكيف يتغزل ، بل قل كيف يبكي ويضحك . . . وهكذا وضع دستور شعر « غبّ الطلب » .

اسمع نقد بدوي في ذلك الزمان . جاء في زهر الآداب ، قال بعض الرواة : افضنا في ذكر الاصمعي فقـال راويته ابو نصر : رحم الله الاصمعي ، انه معدن حِكَم ، وبحر علم ، غير انه لم نر مثل اعرابي وقف بيننا فسلّم وقال : أيّكم الاصمعي ؟ فقال : انا ذاك . فقال : اتأذنون بالجلوس ؟ فأذنّا له وعجبنا من حسن ادبه مع جفاء الاعراب .

قال : يا اصمعي ، انت الذي يزعم هؤلاء النفر انك أثقبهم معرفة بالشعر والعربية وحكايات الاعراب ؟ قال الاصمعي : فيهم من هو أعلم ، وفيهم من هو دوني . قال : افلا تنشدني من شعر اهل الحضر حتى أقتدي به على شعراء اصحابنا ؟ فانشده شعراً لرجل امتدح به مسلمة بن عبد الملك :

أمسلم انت البحر ان جاء وارد وليثٌ اذا ما الحرب طار عقابها
وانت كسيف الهندوانيّ ان غدت حوادث من حرب يعبّ عبابهـا

قال فتبسم الاعرابي وهز رأسه ، فظننا ان ذلك لاستحسانه الشعر ، ثم قال : يا اصمعي ، هذا شعر مهلهل ، خلق النسج ، خطأه اكثر من صوابه ، يغطي عيوبه حسن الرويّ وروايةِ المنشد . يشبّهون الملك بالاسد ، والأسد ابخر ، شثيم المنظر ، وربما طرده شرذمة من امائنا ، وتلاعب به صبياننا . ويشبهونه بالبحر والبحر صعب على من ركبه وعلى من شربه ، وبالسيف والسيف ربما خان في الحقيقة ونبا عند الضريبة .

وروى صاحب الاغاني عن حماد : استنشدني جعفر ابن ابي جعفر المنصور المعروف بابن الكرديّة لجرير فأنشدته : بان الخليط برامتينِ فودّعوا . ولما انتهيت الى قوله :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلاّ هزئت بغيرنا يـا بوزع

قال لي : أعدْ هذا البيت . فأعدته . فقـــال : بوزع أيّ شيء هو ؟ قلت : اسم امرأة. قال : امرأة اسمها بوزع ! انا بريء من الله ورسوله ، ونفيّ من العباس بن عبد المطلب ان كانت بوزع الا غولاً من الغيلان . تركتني ، والله ، يا هذا ، لا انام الليلة من فزع بوزع . يا غلمان ، َقفاه . فصفعت والله حتى لم ادرِ اين انا . ثم قال : جرّوا برجله . فجرّوا برجلي حتى خرجت من بين يديه مسحوباً . . .

فما أسطع هـــاتيك الومضات النيّرة ، وما اقلّ خير تلك المجلدات الضخمة التي صنفوها بعدهم ليجعلوهـــا اصولاً للفن ! ان العلم لا يعمل شاعراً . فعلم التشريح يعرف المواد التي يتركب منها الجسم وقد يجدها ، ولكنه لا يقدر على خلق بهلول واحد .

قال تولستوي : ان المدارس لا تعلّم الفن ، فالاساتذة يؤثرون شاعراً يروضون تلاميذهم على نمطه واسلوبه فيخرجونهم مقلدين . وهذا ما فعله نـّقادنا المتأخرون فصيروا الشعر علماً بأصول ، وقـــالوا للشاعر كن كالقدماء حذوك النعل بالنعل — هذا من تعابيرهم — فابتلونا بهذا السل الادبي . ان الشاعر لا يعلّم كيف ينظم ولا اين ومتى ، فالشاعر الحق يقول شعراً في جهنم ، والشعرور يقرزم في الجنة تحت أجنحة الكاروبيم وعلى تهاليل الساروفيم .

هذه حقيقة يجب ان يعلمها شبابنا ، فجذور المستقبل تمتد في الحاضر . اذكروا قول ابي العتاهية : روائح الجنة في الشباب ، فانفحونا بروائحكم الطيبة لنتعلل .

قد تقولون هكذا تعلمنا وبهذا نحمل الشهادات العـالية . وانـا اقول لكم ليست الشهادة ، مهما كبرت ، غير مفتاح باب الثقافة والفن . ان

لم تفكروا وتريدوا تبقوا خارجاً كعذارى الانجيل الجاهلات . واذا كان سلاحكم هذه الدروس التي تستظهرونها فالغد مظلم قاتم . ان تقديس القديم طبع في الشيوخ فأين ثورات الشباب ؟ دعوا الدراسات والمذكرات للخمسين والستين ، اما العشرون والثلاثون فللخلق والابداع .

قد درستم ، ولا ريب ، فصل الارادة درساً عميقاً وحفظتموه كالماء الجاري ، ولولا ذلك ما صرتم فلاسفة . . . أفما علّمكم علم النفس ان كل بديع وجديد من فعل الارادة ؟ يريد المرء فيخلق نماذج جديدة ، فلماذا لا تريدون ؟ الارادة تصيّر الفعل الآلي والعادي فعلا تأمّلياً مقصوداً ، فتفرغه في قالب جديد طريف ، فأريدوا وتأملوا . الارادة ، كما علموكم ، تسيّر الحركات والتصورات كما يقتضي الزمن والاحوال ، فلماذا لا تقرأون في كتب الحياة ؟ لماذا لا تستوحون الظروف والاحوال بدلاً من تدارس مواضيع مبتذلة اورثتكم اياها المدارس ؟ دعوا « العادة » العمياء فهي بنت المدرسة وأم كل مبتذل . طيروا باجنحة الارادة الى الآفاق البعيدة . اريدوا تخلقوا الطريف الجديد . لم يفسد الشعر العربي الا نسج نوابغه على منوال واحد ، فلا تقولوا : نبني كما كانت اوائلنا تبني . . . اننا نتوقع ، كل ساعة ، ان ندعى الى مآدبكم الحافلة بالطيبات ، فأعدّوا لنا كل شهي .

ان اذكى ما خلق الله هاتيك الجدة التي يسمونها حواء . كانت ، نفعنا الله بدهائها ، من ذوات الارادة الفولاذية ، فعقدت الف صلة وصلة مع المخلوقات الفردوسية ، قبل ان يزول عن الشيخ آدم خطر العملية الجراحية الأولى . . . يوم استلّت ضلع من اضلاعه وسدّ مكانها بلحم . أيقظت ارادة حواء الجنة الغافية . ولو لم « ترد » تلك النبيهة لظل الانسان في الفردوس تكلة حكلة ، وعاش الابناء والاحفاد آكلين شاربين ، ولم يدركوا سراً واحداً من الاسرار التي خبأها الله في احشاء امهم . ان

نقطة من عرق الجبين الانساني خلقت الف فردوس ، وستخلق كل يوم ما دام الانسان مريداً .

قد حان للوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف غير اله واحد هو الجمال . فابحثوا عنه . اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الاضواء والانوار ، افلا يستطيع مصباح أديسون ان يبدّل شعرنا المعمول على ضوء مصباح امرىء القيس ذي الذبال المفتّل !

لقد عشنا عشرين قرناً وعيوننا في ظهورنا ، فلننظر الى الامام . ان ثقافتنا لفي خطر ، وستهوي اذا لم تتداركها يد جبارة فتنتزعها من فم اللجة التي تجذبها اليها ، ومن لها غير سواعد الشباب ؟

اريدوا ، ايها الشباب ، تفلحوا . لا يتبع بعضكم بعضاً فتشيخوا قبل الاوان .

تشرين الثاني سنة ١٩٤٥

[اشكر صديقي الاستاذ مصطفى محمود دمشقية اطيب الشكر ، فقد لاقى عناء شديداً في الاشراف على ضبط هذا الكتاب ، والكتب التي تقدمته . واذا قلت آجره الله فما أعدو الحق ، فقد كان من سهوي ، ومن كلالة حروف الآلة الكاتبة ، في جهد جهيد .]

الفهرست

الصفحة

الصفحة

الصفحة

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع
شركة الطبع والنشر، بيروت
في ٢٩ نيسان ١٩٤٦.